رواية

زوايا داكنة

الأمجد العثماني

كتوباتي
kotobati

زوايا داكنة

الأمجد العثماني

رواية

الكتاب: زوايا داكنة

تأليف: الأمجد العثماني

تدقيق: الأمجد العثماني

النوعية: رواية

الإصدار: 2024

التصميم والتنسيق: مكتبة كتوباتي

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.

وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

الفهرس

الإهـــــــــداء 8
زوايا داكنة 9
زوايا داكنة 10
الفصل الأوّل 21
الفصل الثّاني 28
الفصل الثّالث 33
الفصل الرّابع 37
الفصل الخامس 44
الفصل السّادس 49
الفصل السّابع 55
الفصل الثّامن 65
الفصل التّاسع 71
الفصل العاشر 83
الفصل الحادي عشر 89
الفصل الثّاني عشر 97
الفصل الثالث عشر 107
الفصل الرابع عشر 113
الفصل الخامس عشر 119
الفصل السادس عشر 127
الفصل السابع عشر 146

الفصل الثامن عشر..... 150
الفصل التاسع عشر 153
الفصل العشرون 180
الفصل الحادي والعشرون 201
الفصل الثاني والعشرون 216
الفصل الثالث والعشرون 227
الفصل الرابع والعشرون 244
الفصل الخامس والعشرون 252
الفصل السادس والعشرون 265
الفصل السابع والعشرون 280
الفصل الثامن والعشرون 286
الفصل التاسع والعشرون 293

السّيرة الذاتية للكاتب الأمجد العثماني

من خرّيجي دور المعلّمين، عمل بمدينة جلمه معلّما ومدير مدرسة ابتدائيّة ومدير دار ثقافة ورئيسا للّجنة الثقافيّة بها وبعث وأسّس المهرجان الثّقافي "مهرجان سيلما للمياه" وترأّس المجلس البلدي وكان من مسيّري جمعيّة النّسر الرّياضي ومسؤولا على مركز تعليم الكبار ومن مؤسّسي نواة مركز ذوي الاحتياجات الخصوصيّة وكان عضوا بالاتّحاد الجهوي للفلاّحين بسيدي بوزيد و أوّل الروّاد الّذين عملوا بالصّحافة المكتوبة محرّرا ومراسلا بمدينته ثمّ شاءت الأقدار أن ينتقل إلى مدينة سوسة، عندما انتقل أبناؤه للدّراسة والعمل هناك، ليعمل كأمين لمكتبة عموميّة ثم رئيس قسم مهتمّا بالتّعليم الثانوي وشؤون الأساتذة بالإدارة الجهويّة للتّعليم بسوسه حتّى إحالته على شرف المهنة فكتب وبحث وألف حديث الوجدان وأحداثه تنطلق من العاصمة، نبش الذات عن مدينة جلمه وقبائل الوسط الغربي ومولد

الإلهام وأحداثه تنطلق من مدينة سوسه... وعام الرّؤساء وزمن الكورونا عن البلاد ككل. ومن أقواله: " نعيش الحرّية كالنّوارس ونصارع الزّمن كالصّقور والكواسر ونقف بشموخ أمام الظّروف وأحداث السّنين كصفصاف مدينتنا."

هذا المساء، تذُكّرتكَ ككلّ مساء، لكن بطعم مختلف.. تذكّرتك بألوانك الطبيعية و بالأبيض والأسود أيضا و بكلّ ما فيك من صفات البشر... ذكرتني فيك تفاصيل كثيره كانت تجمعنا... تفاصيل صغيرة كانت عاديّة لا تلفت الانتباه فأصبحت واضحة مثيرة... ونحن على أعتاب عيد ميلادك الذي طالما احتفلنا به معا في سعادة خلناها، بل خلتها، أبديّة دائمة لا تزول...

تفاصيل عذبة بنكهة الوجود ولذّة الحياة أصبحت مريرة بطعم العلقم، متعبة للعقل والقلب معا، ذهبت مع الزّمان وتصاعدت في الفضاء بخارا بل كدخان سجائري... واندثرت تماما كضباب صيفي إلا من ذاكرتي... القويّة الصّلبة...

تذكرت بداياتنا الجميلة ذات ليلة شتويّة من ليالي يناير منذ سنوات... بدايتنا العميقة المتجذّرة... بداية الرّواية التي تظلّ خاتمتها مفتوحة وإن انتهى سردها... بدايات زمن الكورونا وما تبعه... من استعداد و تلاقيح وعمل ميداني مضني، على أرض الواقع لا و لن ينسى وأحداثك الكثيرة خلاله... وخوفنا الكبير المنطقيّ من ذاك الغول المجهول... غول الكوفيد وما تبعه من جوائح...

تذكّرت كلّ شيء وكلّ ما سجّل بشريط الذاكرة... وكلّ ما صوّر وكتب ورسخ بالوجدان... من تذبذبك وانفعالاتك وإرهاصاتك... وترددك في مواقفك...

تذكرت لقاءاتنا وانصهارنا ومشاكساتنا وهواياتنا...

تذكرت الليالي و الأيام... تلك الأنغام ومولد الإلهام...

تذكرت كل الكتب...

تذكرت الشعر والنثر و الأدب..

وليالي الفنون والطرب.. تذكرت شطحات الشّوق و الغضب...

تذكرت كل شيء وكأنه بالأمس رغم ما تلاشى من زمنه وانسحب !

الإهـــــــــداء

إلى من رافقني وصادقني وشجّعني وألهمني وآمن بي فرفعني ودفعني إلى كتابة هذه الرّواية وتوثيق فترة مفصليّة أزعم أنها تستحقّ ذلك. كلّ الودّ والتّقدير والاحترام.

زوايا داكنة

مولد الإلهام أو حبّ في زمن الكوفيد أو الدّكتورة نون
اختاروا العنوان الذي يروق لكم !

هو مخطوط كتب أيّام الحظر والحجر في زمن الكورونا ولا أدري، رغم قناعتي، هل يرقى للكتابة الرّوائيّة، والرّواية التّوثيقيّة بالخصوص، بمقوّماتها وسردها و عقدها و حواراتها و رموزها وتوثيقها وما تحمله من مضامين أدبيّة و إنسانيّه... مع أنّني هكذا كتبتها وحمّلتها ما في واقع حياتنا من مضامين تثبّت وتوثّق خاصّة لشبابنا حيثما كان. لوحات واقعيّة واضحة المعالم تؤرّخ لفترة ما بعد ذاك الّذي سمّي بالرّبيع العربي أي أواخر العشريّة التي أسالت حبرا كثيرا و ها إنّني أضعها بين أيديهم علّها تفيدهم وتفيد من يطّلع عليها في هذا الزّمن وغيره لما فيها من صور حقيقيّة تبرز واقعنا السّياسي والصحّي والثّقافي والاجتماعي وتطلّعاتنا المأمولة وما آلت إليه الأمور، في كلّ مجالات الحياة، بعد فترة زمنيّة ثقيلة مهتزّة، مضطربة ومتناقضة.

فهي رواية توثيقيّة لفترة زمنيّة هامّة من تاريخ البلاد... أحداثها واقعيّة وشخصيّاتها خياليّة افتراضيّة من وحي جائحة كوفيد 19 وجوائح السّياسة والاقتصاد والأوضاع الاجتماعيّة الّتي سادت "زمن الكورونا" وتأريخ لوقائعها بصدق وثائقها و الإستقصاءات الّتي حشرتها واستشهدت بها، كما هي، وكلّ تشابه في الأماكن أو الأسماء أو الأشخاص أو المهن أو الأحداث... فهو محض صدفة لا غير...

والله ولي التوفيق

زوايا داكنة

بين صرامة التّوثيق وفتنة التّخييل
بقلم الأستاذة نجاة وسلاتي خوالدي

عندما تلتقط عدسة الكاميرا لحظة آنية تسبل عليها أهدابها لتصيّرها لحظة خالدة، عصيّة على النّسيان، لا تسقط بالتقادم من الذاكرة. وكيف تفعل وقد وقفت الشّخوص والأمكنة متجمّدة في الصّورة حارسا أمينا يحفظ التّفاصيل يجمّدها في الذّاكرة فلا تتسرّب من ثقوبها مهما بعد زمن التقاط الصّورة عن زمن المشاهدة؟ وكذا كانت الكتابة التّسجيليّة عدسة تلتقط وقائع وأحداث توثّقها تحميها من الضّياع والتّلف.

وعندما يلتقط المصوّر الفوتوغرافيّ البارع مشهدا، يجنّد كلّ أحاسيسه ليفعل. فاختياراته للوضعيّات ليست عشوائيّة، بل خاضعة إلى كثير من الذّوق، ومحكومة بالمواقف والأفكار الّتي يحملها حامل آلة التّصوير. وكذا كان كاتب الرّواية التّسجيليّة. إنّه يلتقط فترة من زمنه ينقلها إلى القارئ مضمّخة بأحاسيسه نحوها. هو لا يستعرض أحداثا استعراضا جافّا، بل يكتب أدبا. إنّه لا يدوّن مقالا صحفيّا مضبوطا، بل يحبّر رواية. بيد أنّ التّوثيق إذا اقترن بالرّواية قد يصيب الكاتب برهاب الكتابة لتناقضهما. فالتّوثيق يقتضي صرامة ودقّة وموضوعيّة والتصاقا بالواقع شديدا؟ إذن فالخبر مقدّس هنا. أمّا هناك.. في الرّواية فلا قيمة للخبر خارج وعاء الخطاب. وكان ديدن الرّواية الخطاب لا الخبر. وصنع الخطاب يقتضي التحرّر من

قيود الواقع والإيغال في الخيال. وبين واقعية التّوثيق وخياليّة الرّواية كجنس أدبيّ يصير حال كاتب الرّواية التّسجيلية كحال البهلوانيّ المتقدّم بحذر على الخيط المعلّق في السّقف يحاول أن يحفظ توازنه ويشدّ أنظار المتفرّجين إليه بجماليّة عرضه.

رواية زوايا داكنة هي رواية توثيقيّة تسجيليّة اختار الكاتب فيها أن يوثّق لفترة زمنيّة عصيبة مرّ بها وطننا بل العالم بأسره وهي فترة الكورونا ذلك الوباء الغامض الّذي شلّ حركة الكرة الأرضيّة و لأنّ الرّواية التسجيلية لا تقف عند تسجيل الظواهر والأحداث والتّواريخ معزولة بل تسبغ عليها جانبا تخييليّا فنّيّا فإنّنا نتساءل في هذا السّياق عن مدى نجاح كاتب الرواية في تحقيق هذه المعادلة الصعبة الّتي قوامها اندماج التّسجيل بالفعل الروائيّ.

إنّ الطابع التّوثيقيّ لرواية زوايا داكنة يلوح منذ عتباتها فالعنوان يكشف عن اللّحظة الآنيّة الّتي يروم الكاتب توثيقها "زمن الكورونا وهيمنة الكوفيد"

من ناحية أخرى يصرّح الكاتب في عتبة التقديم ويصارح قارئه بأنّه يكتب رواية تسجيلية بل يقدّم تعريفا مسهبا للرّواية التّسجيليّة

"...وكما للرّواية التّقليديّة تقنياتها وآلياتها فللرّواية التّوثيقيّة أيضا تقنياتها وأهمّها إدماج السّرد الرّوائي مع تقنيات الصّحافة أي "التّوثيق بعبارة أخرى" واستخدام هذه التّقنية بدمج أخبار الصّحف والمراجع المكتوبة ضمن النصّ السّردي للرّواية ككلّ..."

بل ويستعرض الكاتب رواياته التّسجيليّة السّابقة الّتي وثّق فيها أحداثا متنوّعة في عصره

" كانت روايتي التّوثيقيّة الأولى " حديث الوجدان" حيث طرحت الأحداث إلهامة للستينات والسّبعينات في عهد أول رئيس للجمهورية التّونسيّة الزّعيم الحبيب بورقيبه".

أمّا اذا تجاوزنا العتبات الى متن النّصّ، يلوح الجانب التّسجيليّ طاغ على الكتاب. فالكاتب يصوّر أحداث ووقائع يوثّقها حتى لا تسقط من الذّاكرة. فيبدأ بتصوير تأثير جائحة الكورونا على مدينة سوسة التّونسيّة

"هجر السيّاح المدينة وفترت الحركة التّجاريّة. أغلقت جلّ الفنادق وبعض المقاهي والمطاعم وخيّمت ظلال الجائحة وجثم كابوس ثقيل على صدور النّاس فبدت بناءات منطقة الكرنيش كئيبة، يائسة..."

ويعتمد الكاتب على الصّحف اليوميّة والأسبوعيّة التّونسيّة ليستقي منها معلوماته ويوثّقها في كتابه وقد ركّزت على العشريّة السّوداء بأيّامها العصيبة فيصوّر ما آلت إليه الأحداث عقب الثّورة التّونسيّة. ويصف الفوضى ،الّتي عمّت المجتمع، نتيجة ضعف الدّولة، واستشراء الفساد السّياسيّ، والانحدار القيميّ، وانتشار الفقر، وارتفاع نسبة الجريمة، وظهور التطرّف الدّينيّ، الّذي أعاد إلى السّطح قضايا خلافيّة، كنّا اعتقدنا أنّ أمر البتّ فيها قد حسم منذ عقود، كقضيّة تعدّد الزّوجات الّذي ألغته مجلّة الأحوال الشّخصيّة في ستّينات القرن الماضي.

ويعتبر الكاتب أنّ جائحة كورونا ،الّتي وقف العالم أمامها حائرا، فتكت بالعباد في البلاد التّونسيّة ككلّ بلدان العالم. ولكنّها أيضا فضحت ضعف الحكومات المتعاقبة و كشفت عجزها عن احتواء الأزمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة.

"أمّا الأوضاع العامّة طيلة هذه الأشهر فقد دفعت بالبلاد إلى كساد اقتصاديّ شبيه بذلك الّذي فرض نفسه عقب كل حرب عالمية. تضرّر أصحاب الصّناعة والتّجارة و الخدمات كما تضرّرت قطاعات اقتصاديّة أخرى كثيرة. بقيت ثمار الأشجار في أغصانها وأغلقت النّزل وتشرّد عمّالها و تفرّقوا. أصبحت أوضاع البلاد ترزح تحت كلاكل الفقروالتّهميش و"لوبيات" السّياسة ومستغلّي الظّروف القاهرة ومافيات التّهريب والتّسريب في كلّ المجالات، تقريبا، وشملت حتّى الأدويّة والمواد الغذائيّة والقطاعات الحيويّة الحسّاسة".

ولم يقتصر الجانب التّسجيليّ للرّواية على تلك الحقبة الزّمنيّة بل إنّ الكاتب يعود عقودا وأجيالا بل قرونا إلى الوراء. يغوص في أعماق التّاريخ. فيوثّق لتاريخ الأوبئة. يصف الطّاعون مثلا **"كانت تونس بين 1702 و1705 آخر محطة لانتشار وباء الطاعون الذي دام 6 سنوات في مدينة طرابلس الليبية، كما انتشر في مصر حيث كان يظهر بقوة كل عام خلال تلك الفترة. لا يوجد تحديد لعدد الوفيات بسبب موجة الطاعون ولكنه حصد أرواح عديد التونسيين طيلة تلك الثلاث سنوات"**

من ناحية أخرى يقف الكاتب عند بعض الظّواهر الاجتماعيّة الّتي غزت المجتمع التّونسيّ بعد الثّورة ولعلّ أشدّها وطأة كانت المخدّرات فيشير إلى تسرّبها إلى المجتمع التّونسيّ إثر الانفلات الأمنيّ عقب الثّورة التّونسيّة وانتشارها في الأوساط التّلمذيّة والطّلاّبيّة

"وفق الأرقام الّتي نشرت من مراكز بحثيّة فإنّ عدد متعاطي المخدّرات من فئة "الزطلة" تجاوز المائتي ألف شخص وإنّ تعاطيها تصاعدت وتيرته في المعاهد

والمدارس الإعداديّة وفي المجتمع بصورة عامّة بالتّوازي مع هذا فإنّ معضلة المخدّرات تعاطيا و أيضا ترويجا لم تقف عند "الزّطلة" بل تعدّتها إلى معضلة جديدة انتشرت أكثر فأكثر وهي تعاطي بعض الأنواع من الحبوب الّتي هي في الأصل أدوية لأمراض نفسيّة وعصبيّة عصيّة أو أمراض السّرطان المتفشّي عافانا و عافاكم الله"

وقد يغوص الكاتب في الموروث الحضاريّ ليذكّر ببعض العادات الاجتماعيّة القديمة

"كانت توضع في العهد العثماني على أبواب المنازل مطرقتان، واحدة صغيرة، و الأخرى كبيرة فعندما يطرق الباب بالصغيرة، يُفهم أن الذي يطرق الباب امرأة، فكانت تذهب سيدة البيت، وتفتح الباب وعندما يطرق بالكبيرة، يُفهم أن على الباب رجل، فيذهب رجل البيت، ويفتح الباب لاستقبال ضيفه"

وثّق الكاتب لفترة زمنيّة اعترت فيها البلاد التّونسيّة جوائح لعلّ أهونها كانت جائحة الكوفيد. فعصفت باستقرار هذا الوطن وهدّدت بخرابه. وقد كان جاحظيّا في توثيقه. حاول أن يأخذ من كلّ شيء بطرف. فتطرّق إلى السّياسة والاقتصاد والاجتماع والحضارة وعلم النّفس والتّاريخ والجغرافيا و الفنون والآداب والعادات والتّقاليد. ونجح من خلال كلّ ذلك أن يضمن الجانب التّسجيليّ لمولد الإلهام. غير أنّنا نتساءل في هذا المستوى عن مدى نجاح الكاتب في أن يحقّق أدبيّة الكتاب باعتباره رواية ويضمن بذلك تحقّق الطّرف الثّاني من المعادلة أليست كتابة الرّواية التّسجيليّة معادلة طرفاها الواقع والخيال؟

إنّ الرّواية كما وصفها عبد الملك مرتاض " **هذه العجائبيّة, هذا العالم السّحريّ الجميل، بلغتها وشخصيّاتها، وأزمانها وأحيازها، وأحداثها، وما يعتوركلّ ذلك من خصيب الخيال، وبديع الجمال**" تقوم أساسا على المتخيّل. و زوايا داكنة كانت رواية يصرّح صاحبها بانتمائها إلى المتخيّل منذ عتباتها الرّئيسيّة. أي منذ صرّح الكاتب للقارئ بعقدها الأجناسيّ. إنّها "رواية" أي حكاية متخيّلة. وعتبة العنوان تشير إلى الطّابع القصصيّ للحكاية. هي قصّة "**حبّ في زمن الكوفيد**" أمّا صورة الغلاف بطابعها الرّومنسيّ حيث الخضرة والقمر والوجه الحسن فتؤكّد ما ذهبنا إليه فالحكاية لن تكون إلاّ حكاية رومنسيّة لعلّ في ختامها سيتغلّب البطلان على الجوائح ويتزوّجان.

زوايا داكنة رواية حديثة اعتمد صاحبها التّجريب ويتمثّل التّجريب في الفنّ كما يعرّفه صلاح فضل في "ابتكار طرائق وأساليب جديدة في أنماط التّعبير المختلفة" أي أنّه ابتعاد عن القولبة وكسر لرتابة المألوف وغاية المبدع من وراء ذلك أن يستفزّ المتلقّي ويدفعه إلى تطوير آليّات قراءته فيتتبّع شفرات النّصّ ويحاول فكّها.

لقد اختار الكاتب لروايته راويا خارجيّا، غير مشارك في الأحداث. لكنّه لم يكن ذلك الرّاوي التّقليديّ الّذي يرتقي منبره فيلقي الحكاية للمتلقّي كما يشاء. باعتباره المتصرّف الأوحد. بل إنّه وبضرب من الميتا سرد يصيّره راويا ديمقراطيّا. يحاور المتلقّي ويصارحه ببعض آرائه

"الكتابة، كما أراها، فنّ و إبداع وصدق ينبع من الأعماق. "

ثمّ إنّه يشركه في وضع تفاصيل روايته ، يسأله أن يختار لها عنوانا من العناوين التّالية : **زو ايا داكنة**

"مولد الإلهام

حبّ في زمن الكوفيد

أو الدّكتورة نون

اختاروا معي العنوان"

بل إنّه يضع الرّواية على محكّ النّقد ويدعو القارئ إلى تقويمها

"هو مجرد مخطوط كتب أيام الحظر والحجر في زمن الكورونا ولا أدري، رغم قناعتي، هل يرقى للكتابة الروائيّة، والرواية التوثيقية بالخصوص"

و الرّاوي ليس مفردا وإن أوهمنا الكاتب بذلك بل تتعالى أصوات الرّواة الّتي تتقمّص أدوارها الشّخصيّات الكلّ يطرح مواقفه ويدلي برأيه وكانت الرّواية فضاء رحبا لاستقطابها غلى تضاربها وتناقضها. فهنا صوت اليساريّ واليمينيّ والمتطرّف والمتحرّر والمثقّف والأمّيّ. الكلّ يقول والمواقف كثيرة. يمسك الكاتب بخيوط اللّعبة ولكنّه لا يقمع شخصيّاته. وكأنّ لسان حاله يقول دعهم يقولون، يحلّلون، يحرّمون، يسقطون قوانين وضعيّة، يفبركون قوانين يوهموننا بأنّها شرعيّة. وعليك أنت أيّها القارئ الفطن أن تغوص إلى بواطن أقوالهم تفهم وتحلّل وتناقش وتستنتج. ألست يا قارئي العزيز قد غدوتَ و كتابي بين يديك الماسك الحقيقيّ بخيوط اللّعبة السّرديّة تتلقّاها كما تشاء وتفهمها كما تريد.

وتتداخل ضمائر الغيبة والمتكلّم والمخاطب في الرّواية حتّى نكاد نشكّ بأنّنا إزاء سيرة ذاتيّة يروي فيها الكاتب شذرات من حياته بل إنّنا نجزم أنّنا أمام رواية من روايات التّخييل الذّاتيّ بما يعنيه المصطلح من معاني...

فزمان الرّواية هو زمن عاش فيه الكاتب إنّه زمن الكورونا والمكان هو مقرّ إقامته الحاليّة "مدينة سوسة"

" وها هو ممسك بمقود سيّارته يجوب الشّارع الطّويل على شاطئ بوجعفر الشّهير بسوسه جوهرة السّاحل، المدينة الر اقية قبلة السيّاح من كل أصقاع العالم. يتأمّل الفراغ المريب الذي ألمّ به رغم زرقته ونقائه وفتنة جماله. يستوحي من سكونه القاتل مرارة الوحدة وفجاج التأمّل وضبابيّة المصير، فحتّى تلك النّجمة الرّمز لفريق النّجم الرّياضي السّاحلي وحيدة وسط الصّخور البحريّة بعدما كان الشبان يتزاحمون حولها لأخذ الصور التذكاريّة. "

وتبدو العلاقة وطيدة بين الكاتب وشخصيّته الرّئيسيّة فما يستهوي هذه الشّخصيّة من فنون و ميولات أدبيّة يستهوي الكاتب أيضا وإنّ إلقاء نظرة صغيرة على جدار الكاتب الافتراضيّ يفضح هذه العلاقة. فالكاتب ضمّن روايته مقاطع من الأغاني الّتي يحبّها إذ تتعالى أصوات نجاة الصّغيرة، فيروز، عبد الحليم حافظ... صدّاحة تفضح حنين الكاتب إلى أغاني الزّمن الجميل الّتي رافقت طفولته وشبابه كما استحضر أسماء كتّاب عاصروه " أميرة غنيم، حسنين بن عمّو، الطّيّب الجوّادي..." و طعّم نصّه بأقوال لأدباء يحبّهم كجبران خليل جبران، نزار قبّاني، أحلام مستغانمي...

يقول نزار

سأقولُ لكِ "أحبّك.."

وتضيقُ المسافةُ بين عينيكِ وبين دفاتري

ويصبحُ الهواءُ الذي تتنفَّسينه يمرُّ برئتيَّ أنا

وتصبحُ اليدُ التي تضعينَها على مقعد السيّارة هي يدي أنا..

سأقولها، عندما أصبح قادراً، على استحضار طفولتي"

ويوظّف الكاتب في روايته التّناصّ فيقتطع من نصوص أخرى عبارات يثري بها روايته وهي نصوص كثيرة ومتنوّعة تتراوح بين التّراثيّة والحديثة فتكشف عن سعة مطالعات الكاتب وتنوّعها من ناحية وتتحدّى القارئ من ناحية أخرى في الاهتداء إلى المعاني الثّواني المُرام التنبيه إليها.

ويلوح التّناصّ منذ عتبة العناوين فنحن نقرأ عنوان الرّواية "مولد الإلهام" فتقفز إلى مخيّلتنا رواية مولد النّسيان لمحمود المسعدي وبين العنوانين تآلف وتخالف. فكلاهما مركّبان إضافيّان وإن كان المضاف عينه في المركّبين فإنّ الاختلاف يصل إلى حدّ التناقض بين المضاف إليهما ولعلّ حكاية الحبّ في مولد النّسيان تقتضي من المحبّ أن ينسى حبيبته نسيانا وجوبيّا باعتبار موتها فإنّ حكاية حبّ الصّيدليّ للطّبيبة ولدّت في نفسه إقبالا على الحياة وألهمته أن يتجاوز كلّ آلامها.

ويغرف الكاتب من الشّعر القديم فيعقد مقارنة ضمنيّة جائزة بين عصرين عصر المعرّي الّذي كثرت فيه الملل والنّحل وعصر ما بعد الثّورة التّونسيّة الّذي تكاثرت فيه الأحزاب السياسيّة حتّى ضاق بها المكان وضيق المراح يعلّم النّطاح كما يقول المثل الشّعبيّ

" وعلى مسرح الحياة يتصارع أقطاب السّياسة والمصالح من اليمين إلى اليسار مرورا بالوسط المشتّت المنهار يسابقون الريح و " كلّ يعزّز دينه، ليت شعري ما الصّحيح !..."

من ناحية أخرى بدت لغة الرّواية فصيحة ولكنّها سهلة تكشف عن تعامل الكاتب باقتدار مع اللّغة العربيّة بمفرداتها وتراكيبها وجملها غير أنّه قد يجنح أحيانا إلى توظيف العامّيّة التّونسيّة خاصّة إذا أجرى الحوار على ألسنة الشّخصيّات ولعلّ ذلك يمنح الفرصة لكلّ شخصيّة لتنطق بلغتها لا بلغة السّارد ممّا يضفي واقعيّة على النّصّ

استطاعت " زوايا داكنة " أن تحقّق المعادلة الصّعبة القائمة على الجمع بين التّسجيل والإبداع فوثّق الكاتب بأسلوب أدبيّ لعشريّة سوداء مبدؤها ثورة حادت عن مسارها وانفلتت فيها الأوضاع السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة و حتّى الأخلاقيّة ومنتهاها جائحة هدّدت صحّتنا وأجهزت على ما بقي من استقرارنا وأمننا. وما أكثر الزوايا الداكنة !

زوايا
داكنة

الفصل الأوّل

سماء المدينة صافية جميلة وبحرها هادئ مهجور. بدأت نسائم الصّيف تغمر الأماكن وتنعش الحواس والمشاعر و الأجساد. النّاس يتهافتون على مشترياتهم ومقتنياتهم فالظّروف الجاثمة أنهكتهم ولم تبق لهم صبرا. وها هو ممسك بمقود سيّارته يجوب الشّارع الطّويل على شاطئ بوجعفر الشّهير بسوسه جوهرة السّاحل، المدينة الراقية قبلة السيّاح من كل أصقاع العالم. يتأمّل الفراغ المريب الذي ألمّ به رغم زرقته ونقائه وفتنة جماله. يستوحي من سكونه القاتل مرارة الوحدة وفجاج التأمّل وضبابيّة المصير، فحتّى تلك النّجمة الرّمز لفريق النّجم الرّياضي السّاحلي وحيدة وسط الصّخور البحريّة بعدما كان الشبان يتزاحمون حولها لأخذ الصور التذكاريّة.

هجر السيّاح المدينة وفترت الحركة التّجاريّة. أغلقت جلّ الفنادق وبعض المقاهي والمطاعم وخيّمت ظلال الجائحة وجثم كابوس ثقيل على صدور النّاس فبدت بناءات منطقة الكرنيش كئيبة، يائسة، بائسة يسكن بعضها الحمام وتسمع له هديلا حزينا من حين لآخر.

. وقتاش تكبر يا مجد وتولي طبيب، نقرّيك، ونوصّلك للعلالي ! نبيع خلخالي والهنشير الغالي...

. خلّي الولد يقرأ يا دوجه هاكه باش يفكّ على روحو وعلى تونس الكل. ويشري هناشر موش يبيع...

تذكّر هذا الحوار بين أمّه وأبيه، الذي لم ينسه قط، وهو يجوب الشّارع الطّويل وخيالهما لا يفارقانه. وإن لم يصبح طبيبا ها هو في نفس المجال صيدلانيّا له من الأهميّة ما جعله يتبوّأ مركزا مرموقا بشركة عالميّة لصنع الأدويّة. همّه أن يسعد والدته و يريح والده، ويحميهما من هذه الجائحة القاتلة وغوائل الدّهر الغادرة إذ لهما مكانة كبيرة في القلب والعقل والبال وصفائح الوجدان... ومدينة سوسة تلهم كلّ كيانه فهي تتميّز بأنّها ثالث أكثر مدينة مكتظّة بالسكّان في الجمهوريّة، وهي تَقعُ على امتداد البحر الأبيض المتوسّط، ويعود تاريخها إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد وقد أسّسها الفينيقيون، وأظهرت تمَّيزها اللافت للأنظار على مرّ العصور في القِدم، وخاصّة في العصر الإسلامي. مدينة يشرأبّ التّاريخ فيها بعنقه فخورا مزهوّا كلما مررت بأحد أزقة "البلاد العربي".

***

انتدب مجد للعمل بعد ربيع عربيّ ساخر وساخن أسال الكثير من الحبر. استغلّ الفراغ ورداءة الأوضاع وهو المهووس بالآداب والفنون والإبداع رغم تخرّجه من كليّة الصّيدلة، واعتكف خارج أوقات العمل، وحيدا في غرفته يكتب ويؤلّف وهو الموهوب، المسكون شعرا وأدبا وفنونا جميلة. ألّف الكتاب الأول و أردفه بالثّاني في مواضيع حياتيّة مختلفة تلامس الوجدان وتدغدغ أعماق الإنسان والنّفس البشريّة في حِلّها وترحالها وسكونها و هيجانها. كتلك التي أعجب بها من كتابات عمّار التيمومي والطيب الجوّادي أو محمّد صالح الجابري ورشاد الحمزاوي. تلك اللّوحات الصّادقة المستمدّة من ماضينا وتراثنا الثّريّ بأريافنا في الأعماق التونسيّة أو كتابات أميره غنيم و حسنين بن عمّو بعبق المدينة العتيقة أو " البلاد العربي" وأريجها وعطر تاريخها في مدننا المتجذّرة في أعماق التّاريخ...

كان خالي القلب و البال. يعشق جذوره وعمله و مكان إقامته. لا شيء يشغله عدا أهله وعائلته وخاصّة والدته البعيدة، الطيّبة الحنونة وهذه الهموم السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة المتراكمة كالغيوم والتي تخيّم على بلاده بعد عشريّة متناقضة و في ظلال جائحة عالميّة لا تبقي ولا تذر...

في هذه الفترة الكئيبة، فترة الحظر والحجر، والقلق والضّجر التي يملأها الفراغ من كلّ ناحيّة وتحيط بها سوداويّة الوحدة من كلّ مكان، تعرّف على طبيبة شابّة، جميلة جذابة، أنيقة، متألقة أو هكذا رآها وأحسّ بها وبدت له. ساقها له القدر عبر هذه الوسائط الاجتماعيّة العصريّة دون سابق إعلام ولا سابق معرفة. تعلّق بها فكريّا وروحيّا واقعا بلا أوهام ورأى فيها حبلا ألقي له وهو في قاع جبّ عميق بل في كهف سحيق لتنقذه من وحدته و رتابة أيّامه وألوانها الرماديّة. تغيّر روتين حياته ونمط عيشه. تلوّنت أيّامه ولياليه بألوان الحياة القزحيّة الجميلة المتوهّجة. زاد نبع إلهامه من تدفّقه، وأحسّ بمولد إلهام جديد، إلهام يبرق كسراب من بعيد. إلهام لم يعهده من قبل. لكنّه إلهام مرتبط بمزاج صديقته وحضورها وغيابها وتواصلها وانقطاعها... وقد قيل فيه: [1]" إنّ الإلهام حالة نفسية تشبه في تفسيرها البسيط بـ«الفتح الربّاني»، أي أنّ قدرة إلهيّة تفتح على الإنسان التّفكير في مختلف المجالات. فنحن لا نعلم متى يأتينا الإلهام أو متى نستوحى فكرة إبداعية معيّنة! فمن الممكن أن يجلس الإنسان لساعات طويلة في مكتبه أو مقرّ عمله يفكّر في حلّ مشكلة ما أو في إنتاج فكرة معيّنة، ولا يحالفه الحظّ في إيجاد ذلك. وإذا به يجد ضالته أثناء جلوسه أمام التلفاز أو أثناء قيادة السيّارة أو حتى عند خلوده إلى النّوم.

1 وحول ذلك يقول الأديب التونسي إبراهيم درغوثي: "زعم العرب قديماً أن لكل شاعر شيطانه الذي يلقنه الشعر مثل: هاذر بن ماذر: شيطان النابغة الذبياني، ولافظ بن لاحظ: شيطان امرئ القيس. ومِسحل بن أُثاثة: شيطان الأعشى. و هَبِيد: شيطان عَبِيد بن الأبرص.. وهؤلاء من فطاحل الشعراء وأصحاب المعلقات قبل الإسلام.

وهذه حالات إنسانيّة مسجّلة، وقد تحصل مع أيّ شخص منّا[2] " أو كما يردّد هو دائما: " الكتابة، كما أراها، فنّ و إبداع و صدق ينبع من الأعماق. وإنك لتحاول أن تكتب شيئا وتمسك اليراع، فيأبى قلمك و "يحرن" كما يفعل ذلك، حمار غبيّ أمام مجرى صغير من الماء. وإنك ، أيضا ، لتجلس أو تستلقي طلبا لبعض الراحة فإذا بسيل من هذه الأفكار الواضحة المتراصّة يرغمك على الكتابة فيسيل حبر قلمك مدرارا وكأنّك لا تقوم إلا بمسكه أو بضغط الحروف على لوحة مفاتيح حاسوبك أو هاتفك الذكيّ...

وهكذا كان أبو القاسم الشّابي يلازمه قرطاسه وقلمه. وقد يقوم من نومه في أيّ وقت ليكتب أشعاره والكثيرون غيره. أمّا صاحبنا فقد ولّدت فيه الدّكتورة نون هذا الإلهام وأصبحت الماسكة بزمام أموره في كلّ تقلّبات مزاجها وتغيّرات أوجه حياتها. فهو يقدّر علمها وعملها ونمط تفكيرها ويحبّها حبّا جميلا صادقا عذبا كأحلام الرّؤى ويتمنّى أن تدوم هذه البدايات الجميلة فلا تتعثّر ولا تتغيّر فجذورها في أعماقه وينتهي لو سحبتها منه يوما ما... أصبح كالسّمكة يخاف أن يُسحب منه ماء البحر...ماء الحياة لديه... كان يرى فيها حلاوة أيّامه ونقاء أفكاره وصفاء سريرته ووضوح طموحه وجمال رؤاه وأحلامه وسعادته الكبرى. يُحيّره غيابها و ترهقه أتعابها... هي مرحة تحبّ الحياة وجادة تذوب حبّا في عملها.

.كم أنا فخورة بصداقتك، قالت له ذات يوم.

.وكم أنا سعيد بمعرفتك دكتوره في هذا الوقت بالذّات، أجابها بتلقائيّة، سعيدا من رأسه إلى أخمص قدميه.

Layalina.com 04/08/2014

.ولماذا هذا الوقت بالذّات؟ ردّت ضاحكة..

.أحتاجك.. ردّ بقوّة و باقتضاب !

في حين أنّها هي من كانت تحتاجه بشدّة في ظرف الفراغ الذّي ما فتئت تعاني من تبعاته..

.أنا أحببت صداقتك دكتوره !

.وأنا أحببتها أيضا.. أرجو أن تكون صداقة واثقة، مثمرة، فيها الإضافة !

كلمات لها وقعها الخاص لم ينسها قطّ، تفتح له الآفاق وتعبّد له طريق الحياة.

الحبّ عندنا نحن العرب، يقول في نفسه كما تقول مستغانمي، "ضرب من الإثم لا يدري المرء كيف يعيشه بل أين يهرب ليعيشه" وهو سلطان متمكّن لا يستأذن بل يكسّر أبواب القلب ويحتلّه عنوة. لذلك ومنذ البداية نعاقب الحبّ ومن يحبّ وننعته بكلّ النّعوت ونتّهمه بكلّ التّهم ولا نجعل له مكانا يليق به في حياتنا. تحوّل الحبّ من كلمة مقدّسة جميلة إلى كلمة مدنّسة هجينة.

.في الواقع لا يشغلني إلاّ عملي الإنساني الذي يأخذ منّي كلّ أوقاتي. قالت له ذات بوح جميل...

.أنا زيادة عن عملي في المكتب واهتماماتي بجديد الأدوية وأسواقها، تشغلني الكتابة وتأخذ من وقتي الكثير. ردّ مجد معتزّا فخورا... أنا من مناهضي العنف بجميع

أشكاله وألوانه والميز العنصري بمختلف أنواعه، أنشط ضمن جمعيّات المجتمع المدني ومن معتنقي الحرّيات الكونيّة و المبادئ الإنسانيّة الأساسيّة...

حدّثته عن حبّها لمهنتها الّتي حلمت بها منذ الصّغر، وهي أصيلة إحدى المدن الداخليّة الفلاحيّة. من عائلة محافظة محترمة، تعرّف والدها المهندس على والدتها المربّية، أصيلة احدى مدن الشمال الغربي بالعاصمة. تحصّلت على شهادتها العليا في إحدى مدن السّاحل التّونسي وتقيم مع أختها المتزوّجة بضواحي العاصمة. تمارس مهنتها بإحدى المصحّات المشهورة المعروفة وحبّها لعملها ألهاها عن التفكير في حياتها الخاصّة وتكوين أسرة كجلّ صديقاتها. حدّثته بإطناب عن آمالها وأحلامها وعمّا يعترضهم من مصاعب للتصدّي لهذا الفيروس المتجدد "كوفيد 19" وما تخلّفه هذه الجائحة من أوضاع اجتماعيّة واقتصاديّة على مجتمع هشّ يتخبّط في أوضاع داخليّة وأخرى إقليميّة وعالميّة صعبة.

حدّثها عن رتابة أيّامه والملل الذي اعتراه وما يتدفّق في أعماقه من أفكار وآراء تغذيها الأوضاع الحاليّة المتردّية. أوضاع سرياليّة لم تعهدها البلاد منذ زمن طويل. أزمات سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة متوتّرة ومتواترة وغلاء فاحش وارتفاع متصاعد في الأسعار واحتكار وانهيار للدّينار... وهو أصيل إحدى المدن الداخليّة أيضا ويعمل إطارا بإحدى الشركات الكبرى لصناعة وتوزيع الأدويّة بإحدى مدن السّاحل التّونسي. ظروفه المادّية على أحسن ما يكون. فقط أضنته العزوبيّة وأضجرته الوحدة وملكت لبّه الكتب والمكتبات وكتابات أحلام مستغانمي وشعر سعاد الصباح ونزار قبّاني وصوت نجاة الذي يعشقه ورائحة الحبر الأسود على الأوراق

البيضاء. لم ينبض قلبه بعمق لامرأة قطّ رغم رومنسيته منذ سنّ المراهقة المبكّرة وسنوات المرحلة الإعداديّة الأولى ولا حتّى أثناء دراسته الجامعيّة بمراحلها الثلاث. هي فقط من اختارها القدر وأرسلها له، فحرّكت سواكن مكنوناته وأحيت ما نسيه وحسبه مات من مشاعره الجيّاشة وعواطفه النبيلة وحبّه الجارف للحياة ونعيمها. وهي الصّديقة الافتراضيّة البعيدة الّتي لم ير لها خيالا ما عدا بعض الصّور الإلكترونيّة التي كانت ترسلها له كلما جدّ جديد وفي مناسبات مختلفة. أدمن عليها لصفائها وجمالها، لكنّه رآها بعيون قلبه وفؤاده وأعجب بروحها وتميّزها وخفّة ظلّها ودماثة أخلاقها وما الرؤية إلاّ رؤية القلب، مسكن الحبّ ومنبع الحياة.

أفلا يصدّق قلبه ؟

لم تكن أمّه مثقّفة بالقدر الكافي، عكس والده، لكنّها تمرّست بالحياة فأعطتها ما يجب من حكمة. سهرت على تدريسه وإيصاله إلى أسمى المراتب في انشغال والده، لكنّها لم تكن راغبة يوما في أن يتزوّج من غير موطنه ولا من غير بنات جلدته، معتقدة أنه بذلك قد تخسره.

.شوف ولدي حل عينيك مليح، بنات اليوم عينيهم محلوله، آنا حيّه وإلاّ حتّى ميّته ننصحك خوذ بنت بلادك، ناس بكري قالوا إذا ملّست، ملّس من طينك... بوك وجدّك والعرش ملّسوا من طينهم... ما تخرجش من ملّتك وصيّه ما تنساهاش...

الفصل الثّاني

ها هي الدّكتورة، من أعماق البلاد، وإن لم تكن " ابنة مدينته" فهو لم يغضب والدته... و إن كان غير مقتنع تمام الاقتناع بوجهة نظرها التي كانت مستمدّة من زمن مضى ولّى وانتهى ولظروف غير ظروفنا الحاليّة... لكن للوالدين تجاربهما ورؤيتهما البعيدة وتقدير المسافات الزمنيّة...

كانت الدّكتورة نون تقضي كامل يومها في العمل وأحيانا تقضي جزءا من المساء في ندوات ودراسات حول ما يستجدّ من أوضاع هذا الفيروس الفتّاك المستجدّ والمتحوّر دائما والإلمام بكلّ جديد حوله. لقد باغتهم كما باغت العالم. كانت تبدو له جدّيّة أكثر من اللزوم واقعيّة "براغماتية " مزاجيّة على غير ما هو عليه وكان لا يطمئنّ عليها إلاّ عندما تعلمه أنّها وصلت منزلها بخير. فالعاصمة كثيرة الحركة متشابكة ومتداخلة طرقاتها كخليّة نحل أو كمرتع نمل. زد على ما طرأ على مجتمعنا في العشريّة الأخيرة من سلوكيات وممارسات تقشعرّ لها الأبدان، فرضتها البطالة والأوضاع الاقتصاديّة المتردّية والانحدار الأخلاقي والسّياسي والاجتماعي ورواج حبوب الهلوسة والمخدّرات بأنواعها وأشكالها.

أعرفتم ما معنى حبوب الهلوسة؟ أسمعتم عن ضحاياها ؟ فهي السّبب الرئيسي لجرائم كثيرة لا مثيل لها في القساوة والبشاعة والحيوانيّة... ذات يوم، في حديث جانبي حول الموضوع، قالت له الدّكتورة:

.تنقسم "حبوب السّعادة" إلى نوعين حبوب تسبّب الهلوسة، وحبوب أخرى تسبّب انفصالا عن الواقع وأمراضا ذهانيّة . وكلا النوعين يسبّبان أمراضا نفسيّة خطيرة

تتطلّب سرعة الخضوع لبرنامج متخصّص في علاج إدمان المهلوسات للتّخلّص منه أو تلقي بهم في غياهب السّجون من جرّاء ما يأتون به من فواحش الأقوال والأفعال وشناعة بعضها.

***

مجد شاب طيّب، رقيق الإحساس، تمشي على قلبه الحياة ويزحف الكون الكبير. يرهقه انتشار هذه الآفة وما تخلّفه من مآسي. كما يرهقه ما يشاهده من غلاء الأسعار وارتفاع أثمان الأدويّة وفقدان بعضها وخوف النّاس ووجلهم والرّعب الذي حلّ بهم وسيطر على عقولهم منذ حلول الجائحة. لكنّه يتفاعل مع محيطه بالتأمّل والكتابة والمشاركة في أنشطته ويجد متنفّسا لكل هذه المشاكل السّياسيّة والاجتماعيّة التي تتربّع على صدره بتدوينها وتحليلها ونشرها ومشاركة النّاس آرائهم واهتماماتهم. ومن حين لآخر يكتب لصديقته بعض ما يعتمل في مهجته وداخله كمتنفّس وهي التي بسحر الأنثى وذكائها سرعان ما بحثت عن جرح روحه الغائر وسكنته فأهدته إلهاما لا ينضب ومشاعر جيّاشة لا تفهم وأحاسيس لم يعهدها من قبل. جعلته يقول فيها الشّعر والنّثر بكل اللغات التي يتقنها ويتغزّل بأوصافها رغما عنه ويتجوّل حافي القدمين بحديقتهما الخلفية. هذه التي تزيل توتّره وتعبه وهمومه وما تكدّس من غبار الأيّام في مهجته. فيرتجل ما لم يفكّر في كتابته البتّة، يمليه عليه شيطان شعره. أحيانا يتعكّر مزاجها فيتوقف إلهامه لساعات إذ أصبح شديد الارتباط بها يسعد بسعادتها ويتفتّح كأزهار الرّبيع. يكتب ويبدع أو يتوقّف تماما ويصيبه الرّكود والجمود وتنضب قريحته كبئر مهجورة شحّ ماؤها وقلّ مرتادها.

الإعجاب هو التوأم الوسيم للحبّ والحبّ لا يدقّ باب القلب بل يخلعه بضربة واحدة ويربك دقّاته تقول مستغانمي.

كم شرح لها أحاسيسه هذه وترجّاها أن تتفهّمه كفنّان مبدع. تلهمه بهدوئها وراحة بالها واهتمامها المتواصل و ثقتها الموصولة فيه والإنصات له بتمعّن وخاصّة بتلك الكلمات السّحريّة الملهمة. تحيّات الصّباح والمساء وما بينهما، تلك المغموسة بقلب المحبّة و أزهارها. البوح بما يعتمل داخلها واستشارته، وما يرفع من معنوياته. إذ أنّها أصبحت جزءا هامّا من حياته، جزءا مؤثّرا بما لا يستطيع له رفضا فيقول فيها:

حمامتنا البيضاء

يا شهدة عسليّة سمراء

يا أنشودة الصّباح و المساء

يا كلّ الكياسة و اللّباقة

أعشق فيك الجمال و الأناقة

و أدفع فيك لو رجع الزّمان

ألف ناقة و ناقة

عفراء يا أذكى النّساء

يا سرّ الأمان

يا وطنا من الأوطان

نهاجر إليه كلّما مسّنا الظلم

يا رمزا من رموز العلم

يا ألوان الغسق و الغروب

يا سماء الرّبيع

يا صفاء الصّيف البديع

يا أيقونة الطبّ... حماك المولى والربّ

كان واضحا شفّافا معها، بينما كانت الدّكتورة في صراع داخلي، متقلّب، متواصل، لا يعرف أحد كنهه ومدى قوّته. تتصارع الأمواج في قاع محيطها بلا هوادة دون أن تظهر على السّطح الهادئ المريح. لا أحد يعرف ما بداخلها غيرها. هي كتومة، ذكيّة غامضة وبحرها عميق جدّا مظلم كظلمات أعماق المحيطات. لا اهتمام ظاهري لها الاّ عملها ولا شيء غير ذلك. تسعدها اللقاءات ضمن المجموعة الّتي ترأسها وتتفاعل معها في كلّ المناسبات وتبدو سعادتها في تلك الصّور التي تحاول دائما إنزالها على صفحتها لتسعد أيضا من يتابعها حتّى وإن بدا على بعضهم شيء من عدم الاهتمام والاكتراث..

يكتب لها في كلّ وقت وآن فتبدي له الإعجاب والامتنان، لا يلتزم بظرف من الظّروف بل كلّما عنّ له ذلك وجاءه شيطان الشّعر بالجديد وألهمته بشيء ما وكانت تعلّق ضاحكة كلّما أرسل لها شعرا أو نثرا أو موسيقى أو صورة جميلة لمنظر رومانسي:

. إنّي أشتمّ رائحة شيء ما، هل هي فعلا حكاية " الصّيدلي الشّاعر المتيّم والطبيبة الجميلة السّاحرة أم علاقة الطبّ بالدّواء والصّيدلة بالاستشفاء أم غير ذلك؟"

فيضحكان ضحكة طفلين معا قرب جدار الفايسبوك الّذي جمعهما دون سابق معرفة...

الفصل الثّالث

ما أروع البدايات، تلك اللّحظات الّتي تعلق بالنّفس وتسجّل بالذاكرة ولا تنسى... سحر النّظرة الأولى و جاذبيتها والكلمة الأولي وقوّة وقعها... مسموعة أو مقروءة...

كان يتمنّى أن يقع في الحبّ ولم يقع، لم يكن مولعا بالنّساء بقدر ذلك الفضول الجارف الذي يمدّد نكهة الحياة ويبهجها، فانتظار الأشياء أكثر شهوة من امتلاكها تقول صديقته... ومتعة الطّريق تفوق متعة الوصول أحيانا... فاختار متعة الطّريق وتمنّى أن تطول...

آل على نفسه أن يشعل حطب حبّه بعود ثقاب واحد وأن يتركه مشتعلا. يظلّ يحركه من حين لآخر، بطريقة خفيّة عن الآخر، لتبقى شعلته مضيئة وجذوته تنير أركان جوانحه لا تخبو ولا تخفت. لعلّه يوما ما يفرح والدته وأهله و عشيرته..

***

مدينة سوسة، مدينة جميلة عملاقة ولكنها تبدو لا شيء بلا سياحة ولا سياح! تبدو باهتة الملامح بلا زينة وجهها.. إذ تتَّصف المدينة بجمالِ ساحلها المُميَّز، وبمبانيها الأثريّة التاريخيّة[3]؛ فقد أُدرِجت ضمن قائمة مُنظَّمة اليونسكو للمُدن التراثيّة العالَميّة، وذلك عام 1988م، وهيَ مدينةٌ سياحيّةٌ مُهمّة تستقبل أكثر من مليون ونصف المليون من السيّاح سنويّاً؛ وهيَ تعطي للسائحِ خياراتٍ مُتنوِّعةٍ ما بينَ

3 وصف جمال مدينة سوسة – موضوع (mawdoo3.com) بتصرف

السّياحة العلاجيّة، والسّياحة الترفيهيّة، والسّياحة التسويقيّة، وغيرها. ويمكن تلخيص أهمّ المَعالِم الجميلة العتيقة في مدينة سوسة على النّحو الآتي:

يقع متحف سوسة الأثريّ في منطقة القصبة، ويعود تاريخ بنائه إلى القرن 11م، حيث تُعرَض فيه فسيفساء رومانيّة يعود تاريخها إلى القرن 2 م، و3 م، تحكي عن الحياة اليوميّة في مدينة سوسة، كصيد السّمك على شواطئها، ومن أشهر اللوحات الفسيفسائيّة: لوحة نبتون المُلوَّنة، وفسيفساء رأس إله المحيط، كما يُعرَض في المتحف عمود معماريّ مُغطّىً بالفسيفساء التي يعود تاريخها إلى العصر البيزنطيّ.

أمّا المدينة الأثريّة فهيَ منطقة تضمُّ مبانٍ أثريّةٍ قديمة أُنشِئت في القرن 9م، إذ تتَّخذ هذه المباني تصميماً معماريّاً ينصبغ بطابعِ عمارة الأغالبةِ السّاحليّةِ، ويمكن الدخول إلى المدينة من المدخل الرّئيسيّ الواقعِ في الجهةِ الشّماليّةِ الشّرقيّةِ؛ فالمدينة مُحاطة بأسوارٍ ضخمةٍ تمتدُّ على مسافةِ 2.25كم، وبارتفاعٍ يصلُ إلى 8 أمتار، كما أنّ هذه الأسوار مُعزَّزةٌ بسلسلة من الأبراج ذاتِ الشكلِ المُربَّع، والتي أسَّسها البيزنطيّونَ قديماً، ثمّ جدَّدتها دولة الأغالبة سنة 859 م، بالإضافة إلى أنّه يُوجَد داخل المدينة 24 مسجداً، أشهرها الجامع الكبير، ومجموعة من الأسواق الكبيرة، كسوق الربع، وسوق الڤايد، وقد صُمِّمت المدينة استناداً إلى محور خطّ الطول الذي يمتدُّ من باب القبليّ إلى الربع، والميناء الداخليّ القديم ، وصُمِّم محوره باتِّجاه ينطلق من الشرق إلى الغرب، من باب الجديد، إلى باب الغربيّ. الرباط: هو حِصن أُنشِئ في القرن 8 م، وهو الآن نُصبٌ تذكاريّ شامخٌ في مدينة سوسة، حيث استُخدِمَ هذا الحِصن من قِبَل المُحاربين المسلمين، وهو يحتوي على فناء داخليّ مُحاط بأروقة، وقاعة للصلاة بسَقف مُقبَّب أنيق، وفيها نوافذ مُحصَّنة، ومحراب

ذو تصميمٍ بسيط، ودرج حلزونيّ ضيّق أضافه الأغالبة إلى البناء سنة 821 م، وهو يقود إلى منطقةٍ مُطِلّةٍ على المدينة.

وعن "شاطئ بوجعفر" فحدّث ولا حرج إذ هو شاطئ رمليّ شعبيّ، جميل مُطِلّ على واجهةٍ بحريّة، تتوزَّع فيه فنادقُ، وشاليهات للعائلاتِ، والسيّاح، وقد أُطلِقَ عليه اسم (شاطئ بوجعفر) نسبةً "للعالم و العلاّمه أبي جعفر القمّودي" ويكنّى أيضا بالأربسي الذي دفن قريبا منه 936/845 م.

أمّا الجامع الكبير فيقع في المدينة الأثريّة العتيقة، ويعود تاريخ تشييده إلى عام 851 م، وهو مسجدٌ ذو أبراج، وأسوار تحتوي فتحاتٍ عديدة؛ إذ إنّه كانَ قديماً يُستخدَم كقلعةٍ، بالإضافةِ إلى كونه مكاناً للصلاةِ، والعبادة، أمّا قاعة الصلاةِ، فهيَ ذات سَقفٍ مُقَنطَرٍ مُميَّزٍ، إلّا أنّ المسجدُ يفتقر إلى المِئذنةِ على غير العادة.

أمّا عن المنتزهات والفنادق وأماكن اللّهو والسّباحة والرّياضة فحدّث ولا حرج... داهمتها جائحة الكورونا فأصبحت خالية قفراء يتوارى بعضهم عن الآخر...

***

علاقات مجد وطيدة بشغله ومشاغله، تكاد تكون سطحيّة مع محيطه، يسكن في قلب المدينة على بعد أمتار من البحر. يقتني أشياءه من الفضاءات الكبرى ونادرا من عطّار الحيّ في الشّارع الذي توجد به شقّته. لا وقت لديه للمقاهي والملاهي إلا في مناسبات معدودة. يحبّذ القراءة و الكتابة والهدوء. يحبّذ أيضا التّجوال والموسيقى والسّفر من حين لآخر والمشاركة بالرّأي والكلمة وان اقتضى الأمر بالحضور في مختلف التظاهرات المدافعة عن الحرّيات و المناهضة للعنف والتّمييز العنصري و

المنادية بحريّة تقرير المصير للشّعوب المحتلة والمقهورة والمضطهدة والمداسة فيدلي بدلوه. تأخذه حياة اليوم السّريعة بكلّ هذا ويعمل على تحقيق أهدافه المهنيّة وبنائه للمستقبل كما يصبو ويتمنّى أن يكون...

أما صديقته فقد عاشت قصّة حبّ قويّة تهدّ الجبال. عاشتها في فترة دراستها الجامعيّة الطّويلة، لكنّها أزهرت ولم تثمر بل سقطت أزهارها قبل أن تثمر بفعل عواصف السّياسة التي أخذت صديقها بعيدا عنها. أخفت عنه ذلك، في مرحلة التعارف هذه، ككلّ أنثى تصبو إلى الهناء والاستقرار وهي مثخنة بالجراح ومثقلة بالهموم. وهل توجد شجرة لم تحرّكها الرياح، يقول دوما صديقه فهمي ؟!

الفصل الرّابع

منذ مدّة، تعطلت دواليب الدولة وتقلّصت مشاريعها وضعفت خدماتها. فلا فسفاط الجنوب الغربي ولا بترول الجنوب ولا سيّاح المناطق السّاحلية ولا خيرات الشمال ولا غلال الوسط وزيتونه وخضره وبقوله. أصبح ما يستورد من مواد غذائية محلّ شكّ وريبة ومناكفة من قمح وأرز ومواد غذائيّة أخرى. نتج عن ذلك فقاقيع كثيرة وبؤر احتياج وفقرا مدقعا وحيتانا كبيرة لا ترحم ولا تبقي ولا تذر.

.أين الزيت ؟ يقول صديقه و رفيق السّكنى.

.بل أين السّميد والأرز والسّكر والحليب والقهوة وأين الأدوية يقول عامة النّاس؟

.إننا نعيش ما عاشه آباؤنا وأجدادنا ما بين الحربين العالميتين و ما بعدها.. المواطن العادي حرم حتى من التين والزيتون وغلال كثيرة أخرى، ننتجها ولا نستوردها، لغلاء أسعارها. ونشطت حركة التهريب والأسواق السوداء...

يقول صديقه فهمي، هذا الذي سمّاه بـ" الناقوبه"، والذي هو دائم البحث والتنقيب والحديث والنقاش: "فيما يتعلق بمستوى الفقر في فترة الجائحة، يقول رمضان بن عمر، النّاطق باسم منتدى الحقوق الاقتصاديّة والاجتماعيّة بتونس [4]"أن نسبة الفقر على المستوى الوطني في حدود 15 في المائة، بينما تصل في الجهات الداخليّة إلى أكثر من أربعين في المائة، مشيراً إلى أنّ هذه الأرقام ستتضخّم، بسبب الأزمة الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي تعيشها تونس اليوم.

4 independentarabia.com/node/176051

مضيفاً "المواطن اليوم لم يعد همّه العدوى بالفيروس، بل إنّ شغله الشّاغل هو كيفيّة تحصيل قوت أبنائه، وهو ما يفسّر تنامي الاحتجاجات الاجتماعيّة، حيث سجّل أكثر من ألف احتجاج خلال شهر واحد.

وتابع "كما أن الجائحة خلعت ورقة التّوت عن المنظومة الصحيّة، ولم يعد التونسيون مطمئنين إلى سياسة الدّولة في التّعاطي مع هذه الأزمة، أمام تزايد أعداد الضّحايا، وعدم قدرة المستشفيّات على استيعاب جميع المرضى. ومن ثمّ زاد الإحباط الدّاخلي وتنامت ظاهرة الهجرة غير الشّرعية الّتي أصبحت تشمل عائلات بأكملها، حيث غادر خلال شهر واحد أكثر من أربعة آلاف تونسي البلاد".

الواقع الاجتماعي الهشّ لفئات واسعة من التّونسيين كان نتيجة طبيعيّة لنسيج رخو من المؤسّسات الصّغيرة والمتوسّطة التّي يعتمد عليها الاقتصاد التّونسي. لذلك كانت للجائحة تأثيرات مباشرة على الاقتصاد. وهي في تقدير المتخصّص الاقتصادي عزالدّين سعيدان ناتجة عن "عدم التّعاطي بجدّيّة مع الأزمة"، عبر حماية المؤسّسات الاقتصاديّة وتقديم السّيولة اللاّزمة لها لمواجهة الوضع الطارئ. مشيراً إلى أنّ "عدداً من التّجارب المقارنة التي نجحت نسبيّاً في تقليص تداعيات كورونا بالاعتماد على البنوك المركزيّة التي وفّرت السّيولة للشّركات المتضرّرة".

ويضيف جليس آخر: "حسب المعهد الوطني للإحصاء، فإنّ تونس خسرت أكثر من مائة وستين ألف موطن شغل خلال ثلاثة أشهر، معتبراً أن البلاد مقبلة على سنة صعبة، في ظلّ وضع عالميّ حسّاس وصعب هو الآخر، وعدم استقرار سياسي داخلي، فضلاً عن الالتزامات الماليّة الخارجيّة."

.فعلا، يجيب مجد، البلاد مقبلة على سنوات صعبة بل على المجهول وأهواله وردّد حزينا متشائما: "ليت الجائحة تتركني حيّا و لا تصيبني بسوء لأقف على النهاية الحتميّة لهذه المرحلة؟" إنّها لن تتواصل طويلا. سيهزّ بركان قويّ كل أركانها سياسيّا واجتماعيا واقتصاديّا. سيتغير كل شيء... نعم سيتغيّر كلّ شيء !

ولا أحد يدري ما تخبّؤه له الأقدار أو يمتلك إمكانية المعرفة والاختيار !

في الأسواق، التجّار يشتكون من فقدان بعض المواد الاستهلاكيّة الأساسيّة مع ما يتهامس به النّاس بأنّ بعض أصحاب النّفوذ "الواصلين" يتزعّمون عصابات تهريب لهذه المواد بالأقطار الشّقيقة ممّا يزيد في التهاب نار الأسعار هنا وهناك في كل أجزاء البلاد وتزداد اللّهفة ويزداد الاحتكار.. ثراء فاحش لقلّة وفقر مدقع لأغلبيّة ساحقة.

خضّار الحيّ يقول مندّدا .منذ مدّة لم يعد لنا هامش ربح فيما نبيعه نحن نبيع للناس برأس المال تقريبا فهم غير قادرين على مجابهة هذه الأسعار التي تشتعل يوما بعد يوم ويشعلها الوسطاء وكبار "البارونات" ونحن نتحمّل ذلك محبّة فيهم.. متحسّسا ذقنه الأبيض الكثيف...

أما العطّار، الذي حلّ محلّ " الجربي"، بطاقيته البيضاء وجلبابه الواسع فيلعن أحزاب الوسط واليسار، فهي التي تقف سدّا منيعا أمام نجاح الثّورة و هي، حسب رأيه، السّبب في المضاربة والتّهريب وخزن ما يوجد من مواد.. وتكاد توجد في كلّ تاجر، تقريبا، نفس المواصفات ونفس الفكرة و التوجّه.. المضاربة والاحتكار واستغلال الفرص والرّبح الوفير.. واتّهام المنافس السّياسي إلاّ من رحم ربّك..

وإنّك لا تستطيع أن تتمشّى على راحتك في شوارع المدينة فهناك "كشك الثورة" و"برّاكة الحرّيّة" و"كسكروت الكرامة" ناهيك عن "جزّار الأحباب" وأنواع لا تحصى

من السّلع المهرّبة الموازية و"نصب الفريب الغريب" والملابس القديمة والسّلع المجهولة المصادر وكلّ يسترزق كما يريد كما لو أنّهم وضعوا أياديهم على الموانئ ومنافذ العبور. بعضهم من أقوياء البنية والعضلات استولوا على أماكن في الشّوارع بهراواتهم الغليظة يفرضون "مكس" الوقوف والتوقّف على أصحاب السيّارات عوضا عن مصالح البلديّة التي ذابت كغيرها في الخضم...

وعلى مسرح الحياة يتصارع أقطاب السّياسة والمصالح من اليمين إلى اليسار مرورا بالوسط المشتّت المنهار يسابقون الريح و " كلّ يعزّز دينه، ليت شعري ما الصّحيح!"

أمّا مجد فيناضل من أجل الكلمة الحرّة والرّأي الحرّ والشّعوب الحرّة والتّعايش السّلمي بين الجميع بمختلف ألوانهم وأطيافهم وتوجّهاتهم ومعتقداتهم...

***

في اتّصال له مع الدّكتورة نون، أعلمته بأنّ كل الخلايا المختصّة التّابعة لوزارة الصحّة جاهزة للتطعيم وشاهدا معا، كلّ في مكانه، " فيديو " معدّا للغرض. حول التلقيح النّاجع والمفيد، تناقشا وتحاورا معا، وتمنّيا ذلك، فما في الفيديو له من القوّة ما يجعله ليس في متناول كل النّاس ولا كل الدّول. بعضهم محروم من ذلك لكن الأمل كبير في تدارك كلّ العراقيل الماديّة وكما يقال في التفاؤل، قوله تعالى: " لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمرا. " ولعلّ الدول الغنيّة الكبيرة ترأف بمن لا حول ولا قوّة لهم من دول العالم الثالث والرّبيع العربي بالخصوص. تمنّت ذلك فالميدان ميدانها و هي على بيّنة منه...

ما يسعد أبناء البلد أنّ في وطنهم كفاءات لا يستهان بها في الطبّ والهندسة والإدارة والاستشراف ومختلف أوجه الحياة، وإن هاجر بعضهم لنحت مستقبل أفضل

كالدّكتور ناصر صديق مجد، ابن بلدته وزميل دراسته، أو هروبا من واقع مرّ كالدّكتور شهاب زميل الدكتورة ورفيق دراستها. وهي وحدها الكفيلة بتذليل الصّعوبات والإبقاء على منسوب الأمل والتفاؤل كبيرا. ولعلّ ما تعلنه الدّكتورة أنصاف بن عليّه أو الدّكتورة سنيا بن الشّيخ، وغيرهما من الأطبّاء ومن ذوي الاختصاص في هذا الشأن، من خلال أجهزة البثّ المرئي والمسموع والمكتوب يدخل ضمن هذه الخانة.

.اطمئن لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، كتبت له.

.ومع ذلك فالاحتياط واجب ردّ ضاحكا مازحا. " نحن تعلّمنا اقرأ سورة يس وهز حجره في يدك"..

."توكّل ع العالي وامشي طوّالي"، ردّت ضاحكة..

اغتنم الفرصة ليضيف مازحا تلطيفا لمزاجها واستدراجها لمعرفة ميولاتها الفنية: أنا كل صباح أحاول قراءة ما كتب على جبيني وأنا أنظر في المرآة وإن تعذّر ذلك و لم أر شيئا تخيلت الأجمل والأفضل... تفاءلت وتوكّلت على الله...

ثم أضاف، أنا أذوب في اللّغة العربيّة وحبّ القصيد وأستمع منتشيا للمطربة نجاة الصّغيرة الملقّبة بسيّدة القصائد، وأنا أعمل، وأنا أكتب، وأنا أطالع، وأنا أتجوّل في الحدائق الغنّاء وعلى شواطئ البحر الهادئ اللاّمع. هي مطربتي المفضّلة التي تلهمني، أيضا، بصوتها الدّافئ الحنون العذب خاصّة عندما تشدو قصائد نزار قبّاني أو سعاد الصبّاح أو ألحان محمّد عبد الوهاب أو بليغ حمدي. أدمنت على صوت نجاة والاستماع لها منذ أيّام البكالوريا ثم فيما بعد بالجامعة. ناهيك عن تلك القصائد الرّائعة التي تشدو بها وأحبّ كل من يحمل اسمها وكدت أن أقع في شراك جامعيّة

لا لشيء فقط لأنّها تحمل اسمها وملامحها وعذب صوتها كلّما قلدتها..." وعقّب أنا أيضا من هواة فيروز الصّباحات وأمّ كلثوم اللّيالي... أعشق جيل والدي في أغلب الأشياء منها الآداب والفنون والتّربية والأخلاق والاحترام والتقدير... إنّه فعلا جيل العمالقة..."

فهمت صديقته الدّكتورة مغزاه وأرسلت له على الفور هذه الرائعة من روائع مطربته المفضّلة، وهي تعلم عشقه لصوتها فمنذ تعارفهما أرسل لها مقاطع من أغانيها عربون ودّ ومحبّة. أرسلتها له كإجابة ذكية شافية من امرأة واعيّة مثقّفة عن بعض تساؤلاته:

لا تنتقد خجلي الشّديد فإنّني
بسيطة جدّاً.. وأنت خبير
يا سيّد الكلمات هب لي فرصةً
حتّى يذاكر درسه العصفور
خذني بكلّ بساطتي وطفولتي
أنا لم أزل أحبو وأنت قدير
من أين تأتي بالفصاحة كلّها
وأنا يتوه على فمي التّعبير؟
أنا في الهوى لا حول لي أو قوّة
إن المحبّ بطبعه مكسور
يا هادئ الأعصاب إنّك ثابت
وأنا على ذاتي أدور.. أدور
الأرض تحتي دائماً محروقة

والأرض تحتك مخمل وحرير
فرق كبير بيننا يا سيّدي
فأنا محافظة وأنت جسور
وأنا مقيّدة.. وأنت تطير
وأنا مجهولة جدّاً.. وأنت شهير

ردّد " وأنا مقيّدة وأنت تطير" وقال، بينه وبين نفسه، حقّا إنّه وضعنا والله!

الفصل الخامس

ذات أمسيّة رائقة حدّثه صديقه فهمي، الملمّ بكلّ شيء، عن قصّة الأغنيّة المتداولة لدى أغلب محبّيها. أنّ الشّاعرة الكويتيّة سعاد الصّباح حضرت لمهرجان الشّعر العربي في مصر.. والذي كان فيه بالصفّ الأوّل الشّاعر السّوري نزار قباني.. وعندما رأت سعاد الصبّاح نزار قباني ارتبكت جدا ولم تستطع أن تلقي الشّعر بشكل جيد.

فقال نزار: انزلي وتعلّمي العربيّة قبل الشّعر..

كتبت سعاد الصبّاح هذه الأغنية وغنتها نجاة الصّغيرة وأهدتها لنزار قباني الذي اعتذر منها بدوره وحضر لها في مصر قصائدها الجديدة واستمرّ على صداقته بها حتى مات.. ولعلّ الحكاية غير ذلك حسب روايات أخرى... [5] إذ " أوضحت الشّاعرة الكبيرة، الشيخة الدّكتورة سعاد محمّد الصبّاح حقيقة القصّة المتداولة حول مناسبة كتابة قصيدتها الشهيرة «لا تنتقد خجلي الشّديد»، مؤكّدة أنه لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالشّاعر نزار قباني.

وقالت الصبّاح في توضيحها "القصائدُ بحكاياتها ورموزها... فللشّعر بُعْدٌ أكبرُ من وجهه المباشر، وله ذكرى أعمقُ من ذلك المنظر الذي يبدو للوهلة الأولى، وكم كتبني الشّعرُ وقرأني ونثرني ولملمني... حتّى سار في دمي مثلَ الأكسجين، وفي ذاكرتي مثل أشعّة الشّمس."

5 https://www.alraimedia.com/article/895335

وتابعت " القصائد هنَّ بناتي اللاّتي نمَتْ بين يدي وتبرعمَت واشتدّت، إذ سقيتُها بدمعي وأعصابي، فكان أجملَها تلك التي نثرتُها شموساً بين يدي أستاذي ومعلّمي، زوجي وصديقي صديق الزّمن الجميل عبد الله المبارك. وأذكر تماماً عندما أهديتُه قصيدة (لا تنتقد) ... وأنا تلميذتُه التي ظلّت تتهجّى حروف شفتيه... وتترجمُ لغة عينيه وإشارات يديه."

وكذلك تمنّت الدّكتورة نون لو تدوم صداقتها مع مجد، إلى آخر لحظة في حياتها بكلّ ما فيها من ودّ صادق ومشاعر نبيلة وأحاسيس سحريّة عذبة، واضحة شفّافة لم تعهد مثلها من قبل، بل بلسم لجراح روحها ولا تحبط كما أحبطت فقد دمّرتها ثنايا الحياة ومساربها. فهي تعشق الصّدق والوفاء والشّخصيّة المتّزنة والعقليّة النظيفة وتتمنّى أن يكون صديقها صديقا صادقا واضحا، به تلوّن حياتها وتنسى ما تعانيه في مهنتها الإنسانيّة هذه من أتعاب ومشاغل. وتنسى ما عانته من عذابات الحبّ وسهره ووجده وأوهامه...

***

على مسرح الحياة، كلّ يتعلق بأهدابها ليعيش. الظروف صعبة لكن الأمل كفيل بأن يضيء الطريق وإن تشعّبت مسالكه وأظلمت التواءاته... و ما الحبّ إلا أمل جميل... ولكنّه كما يقول جبران خليل جبران: " الحبّ في الأرض أشكال وأكثرها كالعشب في الحقل، لا زهر ولا ثمر." وهذا ما يخيفه...

***

في ركن آخر من هذه الكرة الأرضيّة يجتهد طبيب تونسي في فكّ رموز هذه الآفة، هذا الكوفيد اللّعين. لقد هاجر الدّكتور شهاب قسرا من البلاد، بل طلب اللّجوء السّياسي هروبا من تتبّعات أزعجته ظلما نظرا لتوجّهات سياسيّة لم ترق للحاكم آنذاك. وهو "البورقيبي" المتيّم بـ"البورقيبيّة" منهجا وأسلوبا. بل يعشقها عشقا. هو يناضل علميّا في بلاد أخرى يجدّ ويجتهد ويذكر فيشكر في كل المحافل. طبيبنا هذا هو الصّديق القديم لدكتورتنا صديقة مجد الحالية. هو منستيري الأصل والمدينة ناضل جدّه مع الزّعيم بورقيبه وقد تعرفت عليه ودرست معه هناك لسنوات. هو مفخرة علميّة لتونس في قلب العاصمة الفرنسية باريس.

***

ذات تواصل مريح سأل مجد الدّكتورة عن أغنيّة تحبّها ليتعرّف على ميولاتها الفنيّة ويسمعانها معا في متعة متقاسمة وانسجام روحيّ رائع، فأجابته على الفور بكلمات لأغنية من أغاني العراقي كاظم السّاهر وكلمات السّوري نزار قبّاني، فهي تؤمن أيضا، أن الموسيقى الرّاقية غذاء جيّد للرّوح والعقل معا، وتميل مثله إلى القصائد المغنّاة... ومن لا يميل إلى الشّعر والموسيقى والفنون فهو " فاسد المزاج ليس له علاج على راي أبو حامد الغزالي."

. أنا أعشق بعض أغاني كاظم السّاهر ونجوى كرم وشيرين... وأحب الشعرأجابته منتشيه.

.لك إحداها فلنستمع فالسّعادة، على رأي بعضهم، تتضاعف كلما تقاسمها الناس! وفي بعض الأحيان تختفي كالشّمس في الشتاء ونظل نبحث عن دفئها من مكان إلى آخر.

لا تهتمّي في ايقاع الوقت وأسماء السّنوات

أنت امرأة تبقى امرأة في كلّ الأوقات

أنت امرأة لا أحسبها بالسّاعات و بالأيّام

انت امرأة تسكن جسدي قبل ملايين الأعوام

أنت امرأةُ صنعت من فاكهة الحبّ ومن ذهب الأحلام

يا سيّدتي ليس هنالك شيء يملئ عيني

لا الأضواء ولا الزّينات

ولا أجراس العيد ولا شجر الميلاد

لا أتذكّر الّا وجهك انت لا أتذكّر الّا صوتك انت

تعالي هاتي يدكِ اليمنى كي أتخّبى فيها

تعالي هاتي يدكِ اليسرى كي استوطن فيها

قولي أيّ عبارة حبّ حتّى تبتدأ الأعياد

أَنَت امرأة لا أَحْسُبها بِالسّاعات وبِالأَيّام

أَنْتِ امرأة تُسْكَن جَسَدِي قِبَل ملاين الأَعْوام

أنت امرأةُ صنعت من فاكهه الحبّ ومن ذهب الأحلام

بحث عن الأغنيّة في حاسوبه وأرسلها لها وذابا في الاستماع إليها معا مؤانسة وإمتاعا تداعبهما الأشواق وتطير بهما في أجواء سحريّة لا يعرفها إلاّ العشّاق. فلا مدخل ولا مخرج إلا بأغنيّة أو موسيقى هادئة، فهي تعوّض نقاشاتهما وتزيل أتعابهما بعد الأعمال اليوميّة المتعبة وتلطّف أجواءهما. هكذا تعوّدا بها...

يتساءل مجد في كثير من الأحيان، نحن كأنّنا من جيل قديم نقتفي أثره، نقلّده أو نقتدي به، فهل ما زال في جيلنا من يدمن الأغاني الكلاسيكيّة هذه ويستعملها كالحمام الزّاجل، رسائل لحبيبة بعيدة؟! أم الحبّ يخلق الأسباب والمسبّبات ويزيل الأعذار! فإنّك لا تكاد تفتح جهاز راديو، وقد كثرت محطاته، أو تخطو خطوتين في الشارع إلاّ وتستمع إلى مزيج من هذه الأغاني الرائجة الآن من ريقي وراب وهيب هوب وجاز وصلام وغيرها مما جادت به خاصة قارة أمريكا منبع هذه الأغاني التي أولدتها ضغوطات السياسات المتعاقبة ومشاكل الحياة المعقّدة منذ الستينات خاصة. انتشرت هذه الأغاني في جل أقطار المعمورة لدى طبقات بعينها. فالراب هو أحد فروع الهيب هوب الرئيسية وموسيقى الجاز تعتبر من الأعمدة التي قام عليها الراب، كما يوضح له ذلك صديقه فهمي العارف بكل شيء، أما الريقي فهو نوع من أنواع الأغاني الشعبية التي عرفت في جمايكا بأمريكا اللاتينية وانتشرت في كل أنحاء العالم ومن اشهر من غناها بوب مارلي. تطرح أغاني الريقي المواضيع السياسية في كل حدث يحدث بالبلاد. أما الصلام فهو فن كلامي ظهر في أواخر الثمانينات بالولايات المتحدة الأمريكية ومنها انتشر ويطرح مواضيع مختلفة معتمدا على المهارة الكلامية والخطابية وقوة الكلمة وتأثيرها بما تحمله من معاني المراد إبلاغها...

الفصل السّادس

كم هي ممتعة تلك اللّحظات التي سرقاها من الزّمن وكم هي ملأى بأكسير الحياة. عزم مجد على البحث والتّنقيب وبدأ في قراءة بعض ما كتب عن الحبّ والمحبّين في علم النفس " ليعرف في أيّ بحر يسبح" وكيف له أن يخرج سالما من الغرق " إنّ من الضروري فهم طبيعة المشاعر من أجل التّعامل معها بطريقة صحيحة، حيث إنّ هناك علامات كثيرة تدلّ على الوقوع في الحبّ، ومنها ما يأتي[6]:

. الشعور بالسّعادة عند القيام بتقديم المساعدة للمحبوب دون انتظار مقابل لذلك، حيث إنّ المحبّ يعتبر سعادته من سعادة من يحب، لذلك يحاول دائماً تقديم المساعدة حتّى وإن لم يكن الأمر يحتاج إلى ذلك.

. التفكير الزائد وباستمرار بالمحبوب وماذا يفعل طوال الوقت، رغم الانشغال عنه إلّا أن العقل يفكّر به دائماً. الاهتمام بآراء المحبوب، والأخذ بنصائحه دائماً. محاولة تغيير النفس للأفضل وتطويرها ومعالجة العيوب وذلك فقط من أجل إرضاء المحبوب والبقاء حوله لإسعاده.

. العطاء دون انتظار مقابل، حيث إنّ الحبّ هو العطاء، فمن يحبّ يعطي دون حدود. العفويّة وإظهار الشّخصيّة الحقيقيّة، حيث يُظهر الشّخص شخصيّته الحقيقيّة أمام من يحب من غير الحاجة إلى التصنّع والمحادثات المزيّفة، ويشعر بالرّاحة ويعبّر عن مشاعره وأفكاره بحريّة.

6 https://mawdoo3.com/ رانيا سنجق 2021/01/18

.عند الوقوع في الحبّ يبدأ الشّخص برؤية محبوبه على أنّه شخص لا مثيل له وأنّه فريد من نوعه، بالإضافة إلى عدم الشّعور بالشّغف والعاطفة تجاه أيّ شخصٍ آخر، فينحصر الشّعور الرّومانسي تجاه المحبوب فقط. ويبدأ التخطيط للمستقبل، حيث يميل الأشخاص الذين دخلوا في علاقة عاطفيّة أيضاً لنسج وتخيل المستقبل وأحداثه، إذ يتوق الشّخص المُحبّ إلى الاتّحاد عاطفياً مع من يحبّ، فيتمّ قضاء الكثير من الوقت بالتفكير أو حتّى بأحلام اليقظة المتعلّقة بالبقاء مع المحبوب، ومن الجدير بالذّكر أيضاً أنّ دافع البقاء مع الشّريك من الممكن أن يوازي حاجات البقاء عند الإنسان، مثل: الحاجة للطّعام، والشّراب، والنّوم.

.و قد يخرج الشّخص عمّا اعتاد عليه لإسعاد الشّخص الذّي يحبّه أو لمحاولة خلق الفرصة للقائه أو الحديث معه، وقد يتمّ تغيير الخطّة اليوميّة بلحظة لمجرّد التمكّن من رؤية المحبوب لنصف ساعة مثلاً، وقد يتمّ استغلال الظّروف واختلاق الفرص لمفاجأة المحبوب وإسعاده. وتزداد الرّغبة في قضاء الوقت مع المحبوب، حيث تُعدّ رغبة الشّخص في قضاء الوقت مع الطّرف الآخر من العوامل الأساسية التي تُحدّد إذا ما كان يحبه أم لا، كما يدلّ على نجاح العلاقة على المدى البعيد؛ وبالرغم من أنّ المحبّ قد يكون مرتبطاً بالعمل، وبالعائلة، وبالتزامات أخرى، إلّا أنّ ذلك لا يمنعه من تخصيص الوقت لقضائه مع الشّخص الذي يحبّه.

. أمّا عن احترام اختلاف الآراء، فقد أظهرت الأبحاث الحديثة أنّه من الممكن أن تتكون علاقة محبة طويلة الأمد بين شخصين يختلفان في وجهات النّظر، حيث إنّ الحبّ يجعل المحبّ قادراً على احترام آراء محبوبه."

وهكذا بدأ يوجّه اختصاصه بل مجال معارفه إلى ما يقوله علم النّفس وحتّى ما يكتب عن الأبراج ومواليدها وتأثيرات الكواكب ويحاول معرفة أيّ موج يحيط به. وإنّ من الحبّ لعجبا و حكمة !

الحبّ لا يعلن عن نفسه، تقول مستغانمي، لكن تشي به موسيقاه، شيء شبيه بالضربات الأولى في السّمفونية الخامسة لموزارت... و صديقته لم تكن نجمة ساطعة في السّماء بل كانت كائنا ضوئيّا مشعّا في محيطه الافتراضي... يتذكّر فترة زمنيّة معيّنة فيبتسم ويحمد الله على أنّه يلتقيها افتراضيّا دون رقيب أو نذير .

إنّه يذكر في فترة ما من بداية شبابه وهو طالب جامعيّ، كان الاختلاء بفتاة في مكان عامّ وفي حديقة من هذه الحدائق القليلة يكلّفه الكثير وربّما السّجن. مجرّد الجلوس مع أنثى فضيحة لا تغتفر سرعان ما تنتشر في الأوساط كـ"خبر عاجل" من هذه الأخبار العاجلة. وقبلة مراهقة تكلّف أشهرا من الحبس. يحدث أن تقوم قوات الأمن أو المسمّاة بشرطة الأخلاق بمداهمة الحدائق والتّحقيق مع كلّ اثنين يجلسان متجاورين. كثر المجانين في جلّ هذه الأماكن أو المتظاهرن بذلك. تقول آخر الإحصائيّات أنّ نسبة الذين يعانون من اضطرابات نفسيّة أو عقليّة في تزايد وصل إلى حدود 27 في المائة ولعلّ مجانيننا أكثر من عقلائنا و عباقرتنا.

.فما الذي يخرج العاقل من عقله في يوم النّاس هذا؟

يقول مجد مستنتجا :

. إنها أوضاع الحاضر المزري الّذي لوّن بأمراض العصر، أن يرى مجرمين خارج السّجن وأبرياء داخله ولصوصا فوق المحاسبة ينهبون ولا يشبعون ويضعون أيديهم في جيبه ويخطفون اللّقمة من فمه ولا يستحون، إنّه القهر والظلم و "الحقرة" يبجّل

الرّديء والمحتال والمتحيّل والمهرّب وأصحاب الشهائد المدلّسة ويهمّش الدكاترة وأصحاب الشهائد العليا السّليمة، فإن فقد الإنسان كرامته وإنسانيته واهتزّت ثقته بنفسه وبمحيطه، فقد صوابه وخرج من عقله واعتراه العته و الجنون...

إنّه يتذكّر ما كتبه أحد أصحاب الشّهائد العليا الحارقين والعالقين هناك في أرض صقليّة على صفحته الفايسبوكيّة: " ليلة مانسيتهاش وما ننساهاش طول عمري، المكان شطّ سيدي علي المكي، الزّمان الثّانية بعد نصّ اللّيل، متخبيّن في الجبل وعينينا على البحر نستنّو و قتاش الشقّف يقرب للحجر باش نهبطو في اسرع وقت نركبو في رحلة يعلم بيها كان ربيّ تنجح وإلا تفشل... كل حد سارح في خيالو و قلبو يضرب، النفّس بشْويّا و الكلام ممنوع كان بالهمس، و أحنا أكاكا شفنا الشّقف قرب بلاش ضوء، كان ضوء القمره، ليلة هادئة برشا و الماء كيف الزيّت، بدينا هابطين من الجبل بشوّيا، كنت من أول النّاس اللي هبطو و مخلّي ورايا قلب حزين علي فراق امّي و غصّة كبيرة بعد ماتخرجت ملقيتش حل كان الهروب من بلادي، وصلت قدام الشقّف قالي يلاّ اطلع و قدّم القدّام، طلعت و بدات الناس طالعة كنّا 22 واحد كل حد و قصتو و كل حدّ و احلامو شقف صغير 6 متر و موتور يامها 40 و 8 بادن ايسانس بو 20 لتر مع ستايك ماء و شويّا ڤوفرات و شوكوطوم لا حد يطيحلو السّكر. لا جيلي سوفتاج و لا شيء، كنت لابس شورط و خلعة كحلة و شلاك قصيتلها جنبها بسكينة و لفيت 150 أورو في شكارة بلاستيك متع فارينة و غلفتهم بسكوتش و حطيتهم في التّقطيعة متاع الشلاكة قلت حتّى كان شدنا الحاكم متاع تونس بالك ميفقوش بيهم.... بعد ما ركب آخر واحد، الرايس نزل علي الموطور طشني الماء بحكم كنت راكب من قدّام بالكل قلت يا ربي لعمال عليك اول موجة تبليت و الماء دخل للشقف ... متفاهمين حدّ ما يشعّل حتي سيڤارو لا يرانا الحاكم،

كّل ما نقدمو نقول ربّي يسهل و ذكر ربّي في قلبي و صورة امّي المسكينة في بالها بايت ساهر في رفراف كيف العاده... طفل صاحبي قالّي ياسين كان نغرقو هنا انا و أنت انّجمو نخرجو بحكم عملنا مع بعضنا قبل زاد شويّا قالي ياسين كان نغرقو لنّا حتي حد فينا ما ينجّم يخرج قتلو بربّي ابعدني من التوسويس توّه صار اللي صار.....بعد خمسه سوايع قال الرايس توه تهنينا من حاكم تونس فرحنا و اللي يتكيّف شّعل الدخّان و ناس جبدت تليفونتها تعمل في فديوهات و فارحين.....في وسط البحر ترا كان سماء و ماء منظر صعيب و يهزّ القلب بالرّغم آنا ولد بحر أما العمق هذا أول مرة نوصلّو تعدّا علينا نهار سخون برشا في البحر نحسّ بالتعّب، تضربني موجة تفيّقني كل ما ينزل علي الموطور الشقف يتهزّ و يتنفض نحّسو باش يتقسم علي أثنين و طاح علينا الليلّ و مازلنا ما وصلناش... معندناش ضوء كان القمرة بحكم أحنا متفاهمين نهبطو في مدزارا في سيسيليا جنوب ايطاليا باش ما نتشدّوش من حاكم ايطاليا و الرّحلة هاذي طويلة برشا بقينا 27 ساعة في البحر مع الثلاثه متاع الصباح وصلنا لجزيرة كبيرة و موحشة برشا و علي اليمين متاعها فما ضوء كبير الضوء هذا مدزارا لازم نكملو طريقنا، وصلنا لشطّ كان كلّو حشيش ... الأولاد نحّو الموطور و غرّقوه في الماء و نقّزنا من شقف، شدّيت شلاكتي في يدي باش عمت و تلّفتّ ورايا شفت الشقف هازّو الريح راجع لتونس منظر بقا في مخّي كان نلقي نقلّو سلّم علي أمّي .... بعد تفرقنا انا كنت تاعب برشا و ما نّجمش نفكر في شي ...جاء معايا صاحبي قالّي نبقو مع بعضنا قتلو لازم نرتاحو مشينا لقينا سانية متاع عنب تخّبينا و رقدنا قمت جيعان و أفكاري مشتته، صاحبي عندو تلفون قتلو نكلّم أمّي جاب ربّي منع تلفونو من الماء و عمل البيس دوليّة كلمت نومرو أمّي الو انا في ايطاليا اتو نزيد نفهّمك بعداش و هي تقلّي لا موش صحيح علّقت عليها .....و الرحلة ما زالت

طويلة من مدزارا لبالارمو و بعد لروما وبعد لجنوة وبعد فنتميليا وبعد فرنسا كلها مشّقة و برشا تعب و زهر وكل واحد وحظو... اللي كمّل قراها يدعيلي دعوة خيرعن ظهر غيب لعلّ ربّي يسهّل ونرجع يوم نشوف الوالده ونرضّيها"

الفصل السّابع

كثيرا ما تجاذب أطراف الحديث مع بعض زملائه أو أصدقائه في المطاعم أو المقاهي المحيطة بمركز عمله أو في فسحاته المسائيّة قبل أن يأوي إلى شقّته في وسط المدينة، قبل حلول الأزمة، حول مواضيع السّاعة أو ما تهمّ حياتهم، حاضرها ومستقبلها، أو هذه المواضيع الشّبابية المستحدثة التي أولدتها التّكنولوجيا الحديثة ولم تكن متوفّرة للآباء والأجداد. شيء مضحك أن يقرأ عن الحبّ في الستينات وما قبلها. كانت الرّسائل ترسل عبر الوسيط أو ما يسمّى بـ"المرسول" ومناجاة القمر وسهد اللّيالي وأرقه والشّوق للحبيب وجمر الانتظار لرؤيته من بعيد وذاك التّواصل المحتشم وكلمة "عيب" الّتي عاشوا بها ولوّثت عقولهم وجعلت الحبّ غريبا بينهم فلا يتجرّأ أحدهم قولها حتّى لأمّه وأخيه ولم يسمعها قط من أبيه وقد ترادف كلمة "عيب". لفترة تذكّر رواية الطيب الجوّادي " الطيّب ولد هنيّه" وكيف أنّبته أمّه لذكره كلمة " لا أحبها " إذ يقول:

" – الطيب وليدي إنت كبرت، وتبارك الله خذيت الباك، وانّجم نقول ضمنت مستقبلك، وافقتها بحركة من رأسي، فواصلت :

- شوف من لِخَرْ، لقيتلك طفلة ذراع وباع، حرّة الحرايز، عاونتني النهارات كيما نحب ونشتهي، قلت علاش ما تقدحش عليها، وتعرّس بيها الصيف هذا؟

اندهشت للخبر المفاجئ، ولم أحرّك ساكنا، فواصلت هنيّة حديثها وهي ترمقني بعينيها الخبيرتين.

- والله وليدي، ذراع وباع ، تعرف تحلب، وتنحّي العبانة والكليم، واطيّب في الأعراس، صحيح مشّي قارية، أما هاك إنت قاري يزّي !

حاولت الاستنجاد بالوالد فوجدته يتابع النشرة الجويّة غير آبه بشيء، تلمظت وحوقلتُ، وكدت أشرق في ريقي وبدا عليّ الارتباك من أثر المفاجأة، ولكنّي استجمعت شجاعتي وأجبتها :

- يمة، هكاكة تجي الماخذة، طفلة، لا نعرفها لا نحبّها،،؟

ولو أنّي أنكرت المعلوم من الدين ولو أنّي ضُبطت بجرم مشهود ولو أنّي أجرمت في حقّ السماء والأرض، ما كان كلّ ذلك ليغضب أمّي ويخرجها من طورها، كما أغضبتها لفظة " نحبّها"

- يعطك كْلّبْ، أجابتني بعد أن "لعجتني" بكفّ لا يقرأ ولا يكتب، فز، لعنة الله عليك ما تحشمش! واش من حب؟ أخي نحنا طلاين وإلا قورّا باش نحكو على اللي ما يتسماش؟ تي نايا قتلك خوذها وإلا حبّها؟ يا ولد الحرام؟ هذا واش تعلمت في الليسي؟

عند هذا الحدّ أطفأ الوالد التلفاز وسأل الوالدة عما يحصل؟ أجابته وهي تكاد تتميز غيظا :

- سي الطيب ولدك قْلّك ما ناخذش الطفلة خاطر ما نحبّهاش !!

تكلّف الوالد الغضب ,ورماني بأقرب شيء قريب منه وهو يصيح ونصف ابتسامة تضيء وجهه :

- واش من حبّ وليدي؟ تي نا حبّيت أمّك كي خذيتها؟ ماهو أبيْ فرضها عليّ فرضان! وبقدرة قادرة، تغيّر اتّجاه الرّيح، واندلعت معركة رهيبة بين الوالد والوالدة، وأقسم أنّها لم تغفر أبدا للوالد إقراره بأنّه تمّ "فرضها عليه ."

لقد تغيّر كلّ شيء وأصبحت الرّسائل والصّور الصّامتة والنّاطقة تصل بسرعة الضّوء دون رقيب أو وسيط بشري، والرّسائل الّتي كانت تقرأ مئات المرّات وتوضع في المخدة أو تحتها وربّما يعاش بعطرها العمر كلّه، أصبحت تمسح صورة وصوتا في الحال وتستوعب بنصف ثانية وإن دامت لن تبيت ليلة كاملة بالمسّنجر أو غيره من الوسائل. ذهب سحر الأنوثة واغتالته الصّور المنتشرة في كل الوسائط الاجتماعيّة. أصبح كلّ شيء يأتي ويذهب بنفس سرعة العصر. بين الأمس واليوم بون شاسع في العلاقات، كنهها ونكهتها وديمومتها وعطرها وسترها وسحر بقائها...

إنه يتذكّر من قصص القدامى أشياء كثيره مثيرة للضّحك وبعضهم بقي حكاية يتندّر بها الجميع. فأحدهم أرسلت له صديقته رسالة خلال إحدى العطل المدرسيّة وسلّم ساعي البريد الرّسالة لأحد الكبار من يتقاسم معه نفس الاسم، لأنه مازال صغيرا مجهولا، وبما أنّها لم تكتب اسم المرسل ارتأى الرّجل التثبت بفتح الرّسالة وقراءتها وسلّمها لأبيه في اليوم الموالي ومنذ ذلك الحين هجر الفتاة وهجر من يحمل اسمه واعتزل النّاس جرّاء الفضيحة الّتي لحقته.. في خبر عاجل ولد فلان يحبّ يا للعجب!

وقصّة صديقه الذي كتب رسالة لأخته ورسالة لصديقته وهو في المبيت وأخطأ في وضع الرّسالتين فوصلت رسالته لحبيبته إلى أخته... ورسالة أخته إلى حبيبته و لا تسل عن منسوب الأسى والأسف والحياء والنّدم الذي أثّر حتّى في مردود نتائجه...

يقول صديقه فهمي الذي يعمل ضمن شركة للتّسويق الشّبكي والذي خبر بعض نساء الفايسبوك اللاّتي كان يستقطبهنّ للعمل ضمن الشّبكة أو لاشتراء منتوجاتها واللاّتي وثقن به وكان بذكائه ولباقته وطيب معشره، متنفّسا لهنّ يحادثنه عن همومهنّ الحياتيّة بعيدا عن الأنظار وحواجز المجتمع وكنّ متنفّسا له، إحداهنّ انفجرت ذات ليلة فايسبوكيّة عطرة وحكت له عمّن خدعها طوال سنتين عبر هذا الفضاء، قالت له:

." أنا موظّفة، جميلة هادئة، كنت أنام باكرا وأقوم باكرا على رأي المثل، ليس لي في السّهر نصيب ولا في الحياة حبيب إلى أن تعرّفت عليه ذات ليلة أحد طويلة جميلة، تحادثنا إلى ساعة متأخّرة من اللّيل، كنت "أفضفض عن همومي" أو ما أعتبره كذلك، منذ تلك اللّيلة علّمني السّهر، أدمنت على ذلك، وطيلة عامين لذيذين علّمني متعة أن تسهر مع من تحبّ وتتحدّث وتفتح قلبك وتتواصل وتبدي رأيك في الحياة وفي متاهاتها والمستقبل ودواليبه. ظننت أنني وجدت الرّجل الذي أبحث عنه طوال سنوات، أحببته فعلا، أحببته بعمق واعتقدت أنه حبّ نظيف متبادل، لكنّه كان يروم النّذالة، أن أنحدر معه للحضيض وأكون له "عشيقة" لا غير، وتصوّر صدمتي وانهيار ذاك الصّرح الذي بنيته في خيالي طوال أشهر، دمّرني وحطّم قلبي الشجيّ الصّادق. طلب منّي أن ألتقيه بمنزله وأشياء أخرى، هكذا قالها، أطلقها كالرّصاصة وكشّر عن أنيابه وإذا به شخص آخر لم أعرفه. في لحظة انهار كلّ شيء ولمّا أنّبته وشرحت له ما أريده منه " بلوكاني" بلا أدنى رحمة وأنا التي كنت له حبيبة وصديقة وتمنّيت أن أبني معه حياتي... بقي جرحا غائرا بداخلي ولم أعثر بعد على من يعوّضه. و رغم عيوبه التي لم ترها عيون أغمضها الحبّ انسجمت معه طوال تلك المدة وعشقته تدريجيّا وسكن في أعماق روحي. كنّا نتواصل لسّاعات حتّى تعلّقت به

وصرت أنتظر مواعيده بفارغ الصّبر. كان مثقّفا بارعا في استعمال لغة موليار، متمكّنا منها كما تمكّن من أعماق روحي. لعب بمشاعري و ترك قلبي رمادا وذهب في سبيل حاله. هذه بعض مساوئ التّواصل الاجتماعي في ثوبه العصري وأخريات غيرها ممّا دمّر عديد العائلات وشرّد متحابين وأضاع بين دفّته الأبرياء... كل الصّفات البشريّة بلا استثناء توجد في أعماق هذه الشّبكة العنكبوتية..

آه لو تعرفين ما آلت إليه الأوضاع و ما آل إليه الحبّ يا "أم الطيّب ولد هنية !" يا هنيّه، يقول صديقه فهمي.

وهو يطالع معه ما كُتب عن الجائحة وعن الأوضاع السّياسيّة في محيطه وقعت عيناه على مقال له من الأهميّة ما يتجاوزأهوال الجائحة وكلّ الأوضاع فهو نتيجة من نتائج هذا الزّمن الرديء ويساهم في مزيد رداءته وهبوطه وحضيضه. . يقول كاتب المقال محمّد عبد المؤمن:[7] "باتت بلادنا تعاني من ظاهرة الجرائم الفظيعة التي ترتكب حتى لأتفه الأسباب.

هذه الوضعيّة جديدة لا من ناحيّة الجرائم في حدّ ذاتها فأي مجتمع تحصل فيه التجاوزات بل المعضلة في التصاعد الخطير كميّا وأيضا في ظهور أصناف من الاعتداءات والجريمة القاتلة.

7 تونس . جرأة الأسبوعية، محمّد عبد المؤمن

قد يفسّر الأمر كونه مرتبط بتدهور الأوضاع المادّية في المجتمع وانتشار البطالة والفقر لكنّه ليس سببا وحيدا بل هناك تفسير آخر وهو المخدّرات. .السّؤال المهمّ الذي نطرحه هنا هو ما يلي يقول مجد :

كيف انتشرت تجارة الموت في بلادنا بهذه الكيفيّة المخيفة ؟

.يواصل فهمي القراءة : "هذه أهمّ معضلة فالمسألة تتجاوز الأرقام والنسب حول التعاطي وانتشار المخدرات وأنواعها وتحليل الأمر بتدهور الظّروف الاجتماعيّة فكلّها تفاصيل والأساس أنّ المخدرات تنتشر بل ويزداد انتشارها ووصلت الى المؤسّسات التربويّة بل وصار هناك أنواع خطيرة جدا وهي الحبوب وكوكايين مغشوش يكون خطره أكثر فتكا من الحقيقي" .

.ويواصل: "وفق الأرقام التي نشرت من مراكز بحثيّة فإنّ عدد متعاطي المخدّرات من فئة "الزطلة" تجاوز المائتي ألف شخص وأن تعاطيها تصاعدت وتيرته في المعاهد والمدارس الإعداديّة وفي المجتمع بصورة عامّة.

بالتوازي مع هذا فإن معضلة المخدرات تعاطيا وأيضا ترويجا لم تقف عند "الزطلة" بل تعدتها إلى معضلة جديدة انتشرت أكثر فأكثر وهي تعاطي بعض الأنواع من الحبوب التي هي في الأصل أدويّة لأمراض نفسية وعصبية عصيّة أو أمراض السّرطان المتفشي عافانا و عافاكم الله ."

.يتدخّل مجد: "هذه الحبوب يطلق عليها تسميّة "حبوب الهلوسة" والسّبب أن من يتعاطاها يفقد شخصيّته تماما ويتحوّل إلى شخص يعيش في عالم خيالي إضافة إلى إصابته بتحوّل في شخصيّته وسلوكه وهو تحوّل يجعل منه شخصا عدوانيّا بلا ضوابط ولا خوف. "

هذا الخروج عن الواقع وتنامي الإحساس بالرّغبة في العنف لأتفه الأسباب، يواصل مجد، بات يمثل خطرا كبيرا على المجتمع حيث انّ معدّل ارتكاب الجرائم تحت تأثير حبوب الهلوسة تصاعد بشكل كبير وخطير. و حيث أننا كثيرا ما نسمع عن جرائم ترتكب لسبب تافه لكن كثيرا منها لو عدنا إلى ظروف ارتكابها لوجدنا أن ذاك الشّخص كان تحت تأثير حبوب الهلوسة."

. يقول كاتب المقال: "سنعتمد على مصدرين للمعطيات مبدئيّا و هما تقرير إدارة الطبّ الجامعي والمدرسي ووزارة العدل. .

وفق ذلك فإنّ القنب الهندي أيّ "الزّطلة" هو الأكثر استخداما لسببين الأول رخص ثمنه مقارنة بالأنواع الأخرى والثاني الاعتقاد كونه اقلّ ضررا..

.ويواصل: "الأرقام تؤكّد أيضا ان نسبة التّعاطي او من جرّبوه من الشّباب بلغت 57 بالمائة يمثل الذكور 60 بالمائة منهم والإناث 40 بالمائة .

المعطيات نفسها تؤكد ان الشّريحة العمريّة الأكثر استهلاكا هي بين 13و 18 سنة وتقل تدريجيا مع التّقدم في العمر لكنّها تبقى مرتفعة في فترة الشّباب عموما. لو أخذنا رقما مهما هنا وهي الشّريحة الأكثر تعاطيا بين 13 و 18 سنة لوجدنا أنها مرتبطة بالتلاميذ أساسا لينتقل التقسيم الى فترة بين 18 و 25 سنة وهي اقلّ لكنّها تبقى مرتفعة وهم أمّا الطّلبة او الذين بدأوا حياتهم المهنيّة حديثا."

. يواصل فهمي: "هذا المعطى يؤشّر على أمر خطير جدّا وهو انّ المخدّرات انتشرت وتنتشر بين صفوف الشّباب بشكل سريع وخطير بل وكارثي وعلى الحاكم إيجاد الحلول الآنية السّريعة وإلا هلك شبابنا واندثر مجتمعنا.

وتبقى الوقاية أقلّ كلفة وأفضل من العلاج .

.لكن من أين تأتي هذه المخدرات وما هي أنواعها يتساءل مجد؟

. يواصل فهمي: "كلّ ما قيل حول هذا الأمر يؤكّد ان مصدر جلبها معلوم وهو من ليبيا والجزائر أي عبرهما وجزء آخر يأتي من أوروبا مباشرة عبر البحر بما انّ الانتشار كبير للمخدّرات فهذا يعني أنّها تدخل بكمّيات كبيرة وما يضبط منها نسبة بسيطة. وقد تفرّجت في ملفّ حول هذا الأمر لحمزه البلّومي، في الحقائق الأربعة، أضاف فهمي، أدهشني وحيّرني وأطار النّوم من عيوني وسبّب لي أرقا مزعجا لساعات وخوفا مزمنا ترهقني تبعاته .

. النّوع الأوّل هو القنب الهندي او الزّطلة وهو منتشر بكثرة بل نكاد نقول كونه صار يباع على قارعة الطّريق والحصول عليه بات سهلا جدّا مع أسعار تعتبر منخفضة . . النّوع الثّاني هو الحبوب. وهي نوعان الأوّل هي في الأصل أدويّة لأمراض عصبيّة ونفسيّة وأخرى خطيرة لكن المعضلة الحقيقيّة كيف تخرج من مكانها الطبيعي في الصّيدليات او المستشفيّات لتصل الى مروّجي المخدّرات؟

. ثم يواصل: "النّوع الثاني هي حبوب مجهولة المصدر والتّركيبة بل وحتّى التأثير اشهرها ما يعرف بـ"الزّمبي" وهي تؤثّر على الشّخص وتفقده الإدراك والعقل فيتحوّل الى ذات إجراميّة متنقّلة بل وحتّى قاتلة بدون وعي.

. النّوع الموالي هو الكوكايّين ويوزّع بكميّات تعتبر قليلة مقارنة بالأنواع السّابقة نظرا لارتفاع سعره وهذا يروّج في المناطق الّتي تصنّف كونها راقية وفي العلب الليليّة." . يواصل مجد مشدوها: "هناك أيضا أنواع تسمّى كونها كوكايين لكنّها مادّة مجهولة

ومنها ما يصنع او يخلط في الدّاخل لكن أين ومتى فهو امر غير معلوم."
. بالنّسبة للأسعار فهي تتراوح بين المنخفض بالنّسبة "للرّطلة" فهي تباع بعشرة دنانير للقطعة الصّغيرة والحبوب التي هي في الأصل أدوية وهذه لا تتجاوز هذا السّعر للحبّة او حتّى أقلّ .

.الثّمن يبدأ في الارتفاع في الأنواع الأخرى مثل حبوب الهلوسة مثل "الاكستازي" التي تصل الى 50 دينارا واكثر .

وهناك أنواع سعرها اكثر ارتفاعا حيث تباع بين 70 و 120 دينارا..." وعلى الآباء معرفة هذه الأشياء وعلى شبابنا النّأي بنفسه، ممّا تسبّبه له، بمعرفة كنهها ومصادرها وفواجعها الآنيّة والبعيدة، يضيف فهمي.

لم يجد مجد ما يعلّق به ما عدا " لا حول ولا قوة إلا بالله، حسبنا الله ونعم الوكيل"، ألهذه الدّرجة وصلنا فلا يخلو حيّ من أحيائنا الباذخة أو الفقيرة من هذه الآفة وصلت حتّى مراهقي التّلاميذ في حرم المؤسّسات التّربويّة. إذ قصّ عليه رفيقه العارف بكلّ شيء وهو يحادثه حول الموضوع ويعلّق على ما جاء فيه، حكايات أغرب من الخيال حول تفشّي هذه الظاهرة في كلّ الأوساط تقريبا نساء ورجالا مع تباين النّسب والمآسي.

. في عصر الأنترنات والمعلومات أصبح كلّ شيء مكشوفا ظاهرا للعيان ولا تخفي خافية. الكلّ يعرف المروّج و المساهم والمسالك و الحامي... والكلّ لا ينبس ببنت شفة حتّى وإن تكلّم فمن سيسمعه؟ الكلّ يحلب بقرة الثّورة أو ينتظر دوره، والقاعدة التي يعتمدها هؤلاء، مثلنا الشّعبي " كول ووكّل. ومن لا يأكل ولا يوكّل ضاع تحت أحذية

القساة." يعلّق فهمي ضاحكا بسخريته المعهودة.. إنّه جيل مسلسلات أولاد مفيده وبنات فضيله وفلوجه ومن لفّ لفّهم...

الفصل الثّامن

الدّكتورة نون، صديقته، لا أحد من معارفه يعرفها وليس له من يسأله عنها، لا أصدقاء مشتركين "ولا شي" كما يقول الكاتب الصافي سعيد. هو يريد أن يزيح عنها غطاء الافتراضي ويراها أمامه بشرا كالبشر. سكنت عقله وأجزاء من روحه وحيّرت أمره وجروحه رغم إلهامها المتجدّد في الغياب والحضور ورغم ما فيها من غموض الأنثى كالأكمة تخفي وراءها ما تخفيه !

وهي تعيش مشتّتة الأفكار بينه وبين من كان بالأمس حبيبا وأخذته الأيّام بعيدا عنها، ولم تستطع نسيانه لطول المدّة التي قضياها معا في الجامعة ولجمال تلك العلاقة وتلك الفترة من حياة الطّلبة المشوبة بالعاطفة والنّضج وتسلّق مدارج العلم وأحلام المستقبل الزّاهر.

لم يمكث الدّكتور شهاب طويلا بعد أوّل حكومة للتّرويكا، حمل زاده وزوّاده وسافر إلى فرنسا ومنها طلب اللّجوء السّياسي لغايات منها أن يتجنّب الصّراع مع أجنحة الحكم في تونس وفي المنستير بالذّات. خاصّة بعد أن ظهر بعض التحرّش و العداء "للدّساترة" ولأتباع الزّعيم بورقيبة وحتى تجمّعي بن علي ومن كان في دفّة الحكم وركبه طيلة العقود الماضيّة. كذلك ليواصل بحوثه ودراساته الطبيّة المعمّقة وتخصّصه بأعرق جامعات باريس بعيدا عن صراعات العالم الثّالث السّخيفة المتخلّفة التي لن تفيد. سيربح الوقت ليفيد ويستفيد. اهتمّ بمشاغله العلميّة

وأخذته أيّام باريس ولياليها الرّاقية ولعلّ الآفاق المستقبليّة أخذته بعيدا ونسي بعض من ورائه...

***

إنّه يوم ربيعيّ مشمس تتخلّل أشعّة شمسه النّوافذ وتدخل إلى حيث تريد فتغمر القلوب بشرا و اطمئنانا. محرّكات السّيّارات تئنّ وأزيزها لا يهدأ وقد أعلن عن التّخفيض من الإجراءات المشدّدة وتركها فقط في البؤر والأماكن الموبوءة. أصبح بإمكان النّاس التنقّل من ولاية إلى أخرى فهناك عائلات لم تلتق منذ الصّيف الماضي. لا صديقنا تنقّل إلى والديه حيث هما ولا صديقته الطّبيبة استقبلت والدها ووالدتها أو تنقّلت إليهما أيضا، ولولا هذا التّواصل الاجتماعي الذي يربط العائلات بعضها البعض لحدث ما لم يكن في الحسبان وانفجر ما في الأذهان. ابتهج صديقنا بهذا الانفراج علّه يسافر إلى والديه ثم يلتقي لاحقا بصديقته الدّكتورة إن سمحت لها ظروف العمل بذلك. سيتعرّف عليها عن كثب، وستمده بكتاب نادر، بل مرجع ثمين نفيس عثرت عليه ذات يوم وهي تبحث عن كتب طبّية قديمة وقد يكون في حاجة ماسّة لهذا المرجع في بحوثه ودراساته حول مواضيع تاريخيّة شتّى كانتشار الجوائح والطّواعين في بلادنا خلال القرون الأخيرة.

كان يلتقي بها، حسب ما تسمح به ظروفهما، عبر شبكات التّواصل الاجتماعي وكأنه يلتقي بها وجها لوجه بإحدى هذه المقاهي المختلطة أو قاعات الشّاي المنتشرة هنا وهناك. يتناقشان حول مواضيع السّاعة الحارقة التي تشغل بال المواطنين من جميع الطّبقات الاجتماعيّة كالتّربية والتّعليم والصّحة والغلاء الفاحش وفقدان الأدويّة وارتفاع ثمن الموجود منها وندرة بعض المواد الغذائيّة. بطالة أهل الثقافة

المفروضة من مسرحيّين وموسيقيّين وأهل الفنّ والطّرب وكذا أهل السّياحة وشرائح كثيرة من المجتمع المهدّد بالتوتّر والانفجار إن طالت الأزمة واستفحلت... وأدمن على لقائها اليومي والكتابة لها وتبادل الآراء والأفكار والنّصائح... نعم أدمن !

.كم هي مريحة هذه اللقاءات معك، تكتب له فيردّ:

.كلّ المتعة معك فبين الأدبي و العلمي والفنّي تمازجت الأشياء...

ولعلّ مثل هذه اللّقاءات هي الّتي جعلته يتوق لطول الطّريق فانتظار الأشياء أكثر متعة من امتلاكها ومتعة الطّريق تفوق متعة الوصول بعض الأحيان ويبقى عطرها في الأذهان ولا يتلاشى... ولا يعلم الغيب إلاّ اللّه...

كان يقرأ بنهم ويكتب ولا يرتوي من الكتابة أبدا. تؤنسه مطربته المفضّلة وتلهمه في الآن نفسه. فصوتها الحنون العذب ينعشه وكلمات نزار قباني المنتقاة تؤجّج في داخله ما تراكم طوال أيّامه من عواطف جيّاشة ومشاعر رقيقة. يدندن في بعض أوقات مسرّاته بكلمات مشاعره ووجدانه نحو صديقته التي أخذت من حياته وتفكيره مساحة لا يستهان بها وشاركت أمّه، التي أنجبته وسهرت على تربيته وإيصاله إلى ما هو عليه، في وجدانه وقلبه وعقله. يقول نزار.

سأقولُ لكِ "أحبّك"..

وتضيقُ المسافةُ بين عينيكِ وبين دفاتري

ويصبحُ الهواءُ الذي تتنفَّسينه يمرُّ برئتيَّ أنا

وتصبحُ اليدُ التي تضعينَها على مقعد السيّارة هي يدي أنا..

سأقولها، عندما أصبح قادراً، على استحضار طفولتي،

وخُيُولي، وعَسَاكري، ومراكبي الورقيَّهْ..

كان يتغنّى بها رغما عنه ويقول فيها ما تجود به قريحته وما يشعر به نحوها، صدقا، فقد سكنت البال والقلب وصادقت روحه فتآلفت معها وانصهرت فيها في زمن التّباعد هذا... حتّى في سيّارته وهو ذاهب إلى مقرّ العمل أو عائد منه لا تفارقه نجاة الصّغيرة والأغاني الّتي استمعا إليها معا: موكب حبّ، عيون القلب، عيش معايا، أسألك الرّحيل... أغدا ألقاك، هذه ليلتي، سيرة الحبّ، سلوا كؤوس الطّلى لأم كلثوم، كن صديقي لماجده، وكثير من هذه القصائد التي أثّثت سهراتهما وغمرتهما بسعادة منشودة ولامتناهية يظلّ طعمها في البال ولا يزول... وكثيرا ما أرسل لها مقتطفات من قصائد الشّاعر محّمد علي جلاصي التي أعجب بها :

أحبّك دوما كما لم يحبّك يوما أحد

أحبّك، روحي تنادي عليك، كأنك للروح أنت الجسد

و لو سال حبري على ورقي

و قلت كلاما كثير العدد

فحُسنك فاتنتي أروع من الكلمات التي لا تُرد

فهمت إذَا يا حياتي لماذا أخاف عليك عيون الحسد.

كان يردّد بينه وبين نفسه: " حين تحبّها، لا تحسب كم خطوة عليك خطوها نحوها... فلا أحد يمشي في الحبّ... الجميع يطير..."

أمّا الأوضاع العامّة طيلة هذه الأشهر فقد دفعت بالبلاد إلى كساد اقتصادي شبيه بذلك الذي فرض نفسه عقب كل حرب عالمية. تضرّر أصحاب الصّناعة والتّجارة و الخدمات كما تضرّرت قطاعات اقتصاديّة أخرى كثيرة. بقيت ثمار الأشجار في أغصانها وأغلقت النّزل وتشرّد عمّالها و تفرّقوا. أصبحت أوضاع البلاد ترزح تحت كلاكل الفقر والتّهميش و " لوبيّات " السّياسة ومستغلّي الظّروف القاهرة ومافيات التّهريب والتّسريب في كلّ المجالات، تقريبا، وشملت حتّى الأدويّة والمواد الغذائيّة والقطاعات الحيويّة الحسّاسة.

مجد، تستهويه الثّقافة بكلّ فنونها وأبوابها ونوافذها، لا يملّ القراءة والمطالعة عندما يكون في غرفته، فتراه من جريدة إلى أخرى، محليّة أو عالميّة، ومن مجلّة إلى مجلّة باحثا عن بصيص من أمل لما يراه حوله يوميّا من مزاج متعكّر وأخلاق هابطة ومشاكسات متنوّعة ومناكفات لا تنتهي ممّا انعكس سلبا حتّى على الحياة الأدبيّة والأغاني و المسلسلات وفضاءات التّواصل الاجتماعي وكتابة الرّوايات

والسّيناريوهات التي أصبحت تكتب هي الأخرى بدارجة ركيكة تنتشر بكثافة ويسر بين الشّباب المراهق وتجد بينهم لإقبال والإعجاب.

هو كذلك من شباب هذا اليوم، مسيّس لكنّه مثقّف منفتح على كلّ الثّقافات والسّياسات التي قد تنجح في رفع أطنان الجهل والتخلّف عن العالم الذي يعيش ضمنه ومنها دول العالم الثّالث وما يسمّى بالرّبيع العربي خاصّة. لا يتعصّب إلا للحقوق الكونيّة وما يراه حقّا ويقتنع به. يدافع عنه بكلّ ما أوتي من حجج. خاصّة ما له علاقة بالحرّيات الخاصّة والعامّة ومناهضة الظّلم والعنف والعنصريّة في كلّ مجالاتها وساحاتها...

الفصل التّاسع

إنّها السّاعات الأكثر توتّرا وجمالا في أيّة قصّة حبّ، ينظر مجد بين الآونة والأخرى إلى لوحته الإلكترونية علّه يرى رسالة منها ولو لم تصله رنّتها، فقد تعوّد بذلك بل أدمن، ثم يواصل التهام ما يجده من أخبار" منصّتي تويتر وڤوڤل" أو أخبار الفايسبوك والتي جادت بها بعض الصّفحات المأجورة بغية الإثارة وتبييض بعض الوجوه السّياسيّة التي تصول وتجول على السّاحة. يغوص في جهازه كغوّاص اللؤلؤ علّه يعثر على شيء ما يلهيه حتّى لا تطول ساعاته فترهقه وتؤذيه، مع أنّه يضع دائما حدّا لانتظارا ته من أيّ شخص عرفه أو ربطته به علاقة. يضع نصب عينيه سقفا وسطا وفي المتناول حتّى لا يصاب بالإحباط. هذه النّفس البشريّة متقلّبة غريبة في تركيبتها وأطوارها، معقّدة ولا يعرف كنهها إلّا خالقها جلّ وعلا. وهو ينتظر أخبارها عنّ له أن يكتب ما يجول في خاطره ليرسله لها فيما بعد:

لأنكِ النّور الوحيد في ديجور ظلمتي وصروحه

لأنكِ الفكرة الآمنة التي تتوغل في عقلي وتريحه

لأنك البلسم كلما انتاب قلبي الألم وصرخت جروحه

أحبّك

أحبّك وطنا يأويني

يشبعني ويرويني

أحبّك فكرة خلاقة تسكنني

ترفعني إلى الأعلى وتنعشني

أحبّك نورا يلهمني

ونهى وهوى

يحييني ويسعدني

أحبّك عاصفة تزلزل كياني

وتزيح ما تكلسّ من أشجاني

أحبّك نسمة بحر هادي

أحبّك تاريخا لميلادي

أحبّك مجدا أحبّك سندا... لا تخافي

أحبّك كما أنت... فكوني البلسم الشّافي

أمّا هي فها هي تعيش صراعا داخليّا، يفقدها أحيانا توازنها، بين ماض مضى وتولّى بغموضه وفشله وإحباطاته وبين مستقبل تتقّدم نحوه بحذر حتّى لا تنزلق فيحدث شرخا وجرحا آخر وجرحها الغائر مازال لم يندمل بعد.

انفرجت أسارير وجهه بغتة، فلوحته ترنّ رنّة إرساليّة، استعجل النّظر إليها كانت آتية منها، إنّها ترشده إلى مشاهدة نشرة الأخبار و ما يشغل بالها خاصّة.

.سيتحدّثون عن تحضيرات الخلايا واجتماعاتهم التي لا تنتهي والعمليّات البيضاء التي قاموا بها بقبّة لمنزه حول الاستعداد للتلقيح ضدّ فيروس كورونا والكثير من المعطيات الإيجابيّة. كن أمام الجهاز ! كتبت له.

كانت الدّكتورة نون سعيدة منشرحة، ستعمل كلّ ما في جهدها لتحافظ على حياة النّاس كما أقسمت على ذلك يوم تسلّمت شهادتها ودخلت معترك الحياة. فصحّة البشر أولويّة سواء أكان ذلك في المستشفيات أو المصحّات أو المراكز الأساسيّة أو على الميادين التي تفرضها الحروب والجوائح وستعمل بكلّ ما في استطاعتها على القيام بواجبها الإنساني...

.ستجدني معهم في الصّفوف الأولى لمحاربة الكوفيد!

.وأنا أيضا ستجدينني معك، دكتوره، في كل مكان أشجّعك وأصفّق لك وأعلمك بكلّ ما يجدّ من جديد الأدويّة والتّلاقيح وغيرها!

إنّها تحاول أن تخفي مشاعرها وبأسلوب الأنثى تجعله يتعلّق بها حدّ النّخاع ثمّ تروّضه على اتباعها صامتا أو تدفنه حيّا تحت ركام حائطه الفايسبوكي بكبسة زرّ. جفّ حنان قلبها وسكنته قسوة لا تدري كنهها. يقال في داخل كلّ امرأة قطّة شرسة

شرّيرة يقتلها الفضول ويقوّي عودها الكتمان والغموض وقد تبدو مكابرة عنيدة لكن جدران قلبها أوهن من بيت العنكبوت.

فتح بسرعة جهاز التلفزيون وتابع معها هذه البرامج الصحيّة العلميّة التي تبشّر بكل خير إذ هم يتفانون في التدرّب على حماية حياة المجموعة الوطنيّة غير مبالين بأيّ شيء في سبيل رسالتهم الإنسانيّة النّبيلة. ما أروعها يقول في نفسه، طوال مسيرته في فترات هذه الحياة وشعابها لم يعثر على مثل هذه الطّبيبة المكافحة، المناضلة والطيّبة إجمالا لكنّه آل على نفسه وهو الذي بدأ يحسّ بدبيب حبّها يسري مع دمائه في عروقه، آل على نفسه أن يستعمل معها في أوج قوّتها وترفّعها بعض اللاّمبالاة ليكسّر غرورها فلا شيء غير اللاّمبالاة يكسّر غرور الأنثى يقول صديقه فهمي.

عاد صاحبنا إلى المقال الذي أمرته صديقته بالرجوع إليه ينقّب فيه عمّا يفيده حول التلقيح الذي يتحدّث عنه العالم ويحاورها. يقول المقال[8]:

." يعتبر مرض كوفيد.19 الذي يسبّبه فيروس كورونا المستجدّ أحد أسباب الإصابة بمرض تسمّم الدّم. يعتبر ذلك سببا إضافيا للسّعي إلى تفادي الإصابة بفيروس كورونا المستجد، كما جاء في بيان لمؤسّسة مكافحة تسمّم الدّم في ألمانيا، نشرته على موقعها الإلكتروني.

. تقول صديقته: "أوصت المؤسّسة المتعافين من تسمّم الدّم بالتّلقيح ضدّ كورونا لتفادي الإصابة مرّة أخرى بالتسمّم. وجاء في بيان المؤسّسة الألمانيّة "مجموعة من

8 . www.dw.com/ar/ /02/25 2021بتاريخ

الدّراسات أظهرت أن المصابين بمرض كوفيد.19 الحاد أصيبوا بتسمّم الدّم. ولذلك يعتبر المصابون السّابقون بمرض تسمّم الدّم أكثر عرضة للخطر.

.وتواصل: "ويجهل الكثير من النّاس أن تعفّن الدّم لا يحدث فقط بسبب البكتيريا، بل أيضا بسبب الفطريّات والطفيليّات والفيروسات مثل فيروسات الأنفلونزا وإيبولا وأيضا فيروس كورونا المستجدّ المسبّب لمرض كوفيد. 19، والذي يعتبر الخبراء تسبّبه في تسمّم الدّم هو الأكثر فتكا...

.يعلق مجد: "وهذا ينطبق أيضا على التّطعيم ضدّ فيروس كورونا".

. تضيف الدّكتورة : "وبحسب البيانات المتوفّرة، فإنّ مخاوف بعض مرضى تسمّم الدّم السّابقين من أنّ جهاز المناعة لديهم قد يبدي ردّ فعل مبالغ فيه بعد التّطعيم ضدّ كورونا غير مبرّرة، حيث أكّد البروفيسّور "راينهارت" أنّه "لا يوجد أيّ دليل على أنّ خطر الإصابة بالحساسيّة تجاه التّطعيم أعلى لدى مرضى تسمّم الدّم مقارنة بغيرهم ".

. وتواصل: "وبشكل عام يمكن التّطعيم ضدّ فيروس كورونا بعد أسبوعين وحتّى أربعة أسابيع من التّعرّض لإصابة حادّة بتسمّم الدّم. وتنصح مؤسّسة مكافحة تسمّم الدّم المصابين السّابقين بهذا المرض بشكل عاجل بالحصول على التّطعيم ضدّ كورونا باعتبارهم أكثر عرضة للعدوى التي يمكن أن تؤدّي إلى تعفّن الدّم."

. ويختم مجد المقال: "يقول البروفيسّور "كونراد راينهارت" رئيس مؤسّسة مكافحة الإصابة بتسمّم الدّم "إنّ التّطعيمات توفّر حماية فعّالة ضدّ مسبّبات العدوى التي يمكن أن تؤدّي إلى تعفّن الدّم." ولذلك علينا أن نقوم بها ونشجّع أقاربنا ومعارفنا على ذلك.

تحدث معها وناقشها وشكرها على هذا المقال، قالت له:

.الوضع صعب وعلينا أن ننهل ونستأنس ممّا يكتبه ويقوله المختصّون.

.أجابها شاكرا ممتنّا وقلبه يودّ حديثا آخر غير هذا...

أنهكته ضغوطات الحياة ويريد التّنفيس عن ذلك بقربها الافتراضي وحديثها الحنون...

ثم سافر معها عبر عربة التّاريخ إلى الوراء في أعماق ما غبر. كيف قضت الجوائح والطّواعين على ملايين البشر خلال حقبات متعدّدة عبر القرون الماضية حيث الحياة البدائيّة سائدة يعيش من يعيش ويموت من يموت، وقد قرأ عن الشّوارع التي تصبح ملآى بالأموات إذ لا مستوصفات ولا مستشفيات ولا أطباء خاصة في الأعماق وحتى إن وجد الأطبّاء والمستشفيات في المدينة فلم تكن هناك أدوية ولا تلاقيح ولا وسائل للغرض واتّقاء المرض. أوبئة لم تبق ولم تذر اتّخذها بعضهم للتأريخ بها فيقال: " عام الوباء أو عام الطّاعون" مثلا...

يكتب فريق التّحرير بموقع "الترا تونس" عن تاريخ الأوبئة الأكثر فتكا بالتونسيين[9] في القرون الأخيرة يقرأه مجد كما يلي :

."لا حديث هذه الأيام إلا عن فيروس" كورونا " الذي يجتاح العالم منذ أسابيع وبلغ درجة انتشار بوتيرة متسارعة بالخصوص في الجارة الشمالية إيطاليا، ليصل تونس تباعًا عبر حالات مستوردة، ما دفع السلطات الرسمية لتعزيز الإجراءات الوقائية لكبح جماح انتشار هذا الفيروس الذي بات يهدّد العالم.

9 الترا تونس في 10 مارس 2020

وعرفت تونس على مدى تاريخها انتشارًا للأوبئة، وبالخصوص الطاعون والكوليرا، سواء ما انتشر منها في جهات محدّدة أو ما شمل كل مناطق البلاد، حاصدة، هذه الأمراض الوبائيّة، أرواح أعداد كبيرة من التّونسيين.

. تكتب "الترا تونس" في عرض للأوبئة الأكثر فتكًا بحياة التونسيين طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فتقول:

. أرّخ المؤرّخون عن طاعون 1702- 1705 فكتبوا :

. يقرأ مجد: " كانت تونس مهدّدة بانتشار وباء الطّاعون عام 1701 من السّفن التّركية القادمة إلى غار الملح وأيضًا انطلاقًا من طرابلس اللّيبية، ولكن ظلت البلاد آمنة إلى غاية بدء انتشار الوباء في جزيرة جربة من ماي/آيار إلى سبتمبر/أيلول 1702، ليضرب مدنًا أخرى مثل صفاقس من ماي/آيار إلى جويلية/يوليو 1703، ثم اجتاح شمال البلاد ومنطقة السّاحل عام 1704. ودام الوباء في العاصمة تونس مدة 6 أشهر.

. تكمل الدّكتورة : " كانت تونس بين 1702 و1705آخر محطة لانتشار وباء الطاعون الذي دام 6 سنوات في مدينة طرابلس الليبية، كما انتشر في مصر حيث كان يظهر بقوة كل عام خلال تلك الفترة. لا يوجد تحديد لعدد الوفيّات بسبب موجة الطاعون ولكنّه حصد أرواح عديد التّونسيين طيلة تلك الثلاث سنوات."

. يكمل مجد وعقله في أعماق التاريخ مستحضرا أجداده في شعاب أعماق البلاد: " أمّا عن طاعون 1784 – 1785 فكتبوا :

شهدت مدينة الإسكندرية وباء الطاعون عام 1783 الذي وصل إلى تونس في أفريل/ نيسان 1784 حينما قدمت سفينة فرنسيّة من ميناء هذه المدينة المصرية حاملة 150 حاجًا تونسيًا مات منهم 10 في السّفينة التي حطّت في ميناء تونس ومنها انتشر الوباء القاتل في البلاد.

حصد الوباء أرواح التونسيين بداية بمعدّل 90 حالة وفاة يوميًا في العاصمة، وارتفع المعدل لـ300 حالة وفاة في سوسة والمنستير وجمّال، وأغلقت البعثات الدبلوماسية أبوابها."

. يستدرك مجد: " لكن موجة انتشار الوباء لم تنخفض إلا في فصل الصيف بتسجيل معدل بين 12 و18 وفاة يوميًا في شهر جويلية / يوليو 1784 ثم لم تُسجّل أي حالة وفاة في جميع جهات البلاد في شهر أوت / أغسطس الموالي.

انخفض انتشار الوباء بشكل كبير في سبتمبر/ أيلول وأكتوبر/ تشرين الأول في تونس العاصمة ولكن سرعان ما عاد للانتشار في الكاف الذي حصد أرواح ثلث سكانها وأيضًا في السّاحل، ولم ينته شهر أكتوبر حتّى عاد الوباء للانتشار بقوّة مجددًا بما في ذلك في تونس العاصمة حاصدًا أرواح 18 ألف من سكّانها منذ بدء انتشاره.

.تكمل الدّكتورة : "حلّت سنة 1785 وانتشر الطاعون بقوّة خاصّة في الشّمال الغربي والعاصمة التي سجّلت معدل وفيات بين 200 و250 حالة يوميًا طيلة شهري جانفي/ كانون الثاني وفيفري/ شباط 1785 وواصل الوباء اجتياحه بشكل مهول في فصل الربيع ليصل لمعدل 500 حالة وفاة يوميًا في شهر ماي/ آيار من نفس السّنة."

وتضيف: " لم تنخفض وتيرة انتشار الوباء إلا انطلاقًا من شهر جوان/يونيو وانخفض معدل الوفيّات في الشّهر الموالي إلى 10 حالات يوميًا، واندثر الوباء أخيرًا في شهر أوت/أغسطس 1785."

. يقطع مجد كلامها قائلا: "عانت تونس من وباء الطاعون بالنهاية 17 شهرًا بالتمام والكمال حاصدًا أرواح جموع كبيرة من التونسيين، إذ تتحدث الإحصائيات أن الوباء حصد أرواح ثلث سكان تونس، وأخرى تقول سدس السكّان، ومثلًا من أصل 450 شخص في قصر طبرقة، بقي 30 منهم فقط على قيد الحياة بحلول شهر أفريل/نيسان 1785."

. يكمل مجد: "وحول وتيرة انتشار الوباء، كتب باحثون أوروبيون وقتها أن عدد الوفيات يرتفع حسب الشهر القمري، إذ يموت بين 200 و250 شخص يوميًا في النصف الأول من الشهر، ثم يتضاعف عدد الموتى في النصف الثاني، فيما لاحظ آخرون أن وباء الطاعون ينخفض انتشاره في حالة الحرارة الشديدة أو البرد الشّديد."

. يا لها من كوارث تقول الدّكتورة ، لم تبق ولم تذر ففي بداية القرن الثامن عشر كان السكان بضعة آلاف منتشرين في كل أصقاع البلاد، كل في بوتقته منقطع عن الآخر خوف كل الجوائح والفواجع والمصائب...

ثم تواصل: " انتشر طاعون 1794- 1800 فكتب المؤرخون :

" بعد نحو عشر سنوات، عاد وباء الطاعون ليجتاح تونس لكن هذه المرة دام فقط 6 أشهر ولم يكن قاتلًا كما كان قبل عقد من الزمن. انتقل الوباء من الجزائر هذه المرّة ليصل تونس في مارس/آذار 1794، ولكن ظلت مناطق شرق البلاد وجنوبها

آمنة مقابل انتشار الوباء في العاصمة وقيل إنّه لا توجد عائلة في شهر جويلية/يوليو من ذلك العام لم تذرف الدّموع على أحد أفراد عائلتها، قبل أن يتراجع انتشاره في شهر أوت/أغسطس.

وواصل الوباء يظهر كل عام ويضرب في كل مرة جهة من جهات الإيالة التونسية، كما كانت تُسمى وقتها، حتى عام 1798 ثم عاد بشكل محدود عام 1799 وتكرر انتشار الطاعون عام 1800 دون أن يصل المدى الذي بلغ إليه في وباء 1784 – 1785.

.ثم انتشر طاعون 1818 – 1820، يقول مجد فعمّت الفوضى إذ:

" شهدت تونس موجة جديدة لوباء الطاعون عام 1818 تحديدًا انطلاقًا من شهر أكتوبر/تشرين الأول ليستمرّ انتشاره طيلة عام كامل إلى غاية سبتمبر/أيلول 1819 ولكن دون اندثاره، لننتظر عام آخر حتى أعلن الأطبّاء بصفة رسميّة من قصر باردو في سبتمبر/أيلول 1820 خمود وباء الطاعون الذي اجتاح البلاد طيلة سنتين بعد عدم تسجيل أي حالة وفاة منذ أوت/أغسطس 1820."

. تقول الدّكتورة : " خلّف الوباء خلال السنتين آثارًا موجعة على التونسيين لأنه انتشر في كامل أنحاء البلاد وتزامن مع ضعف المحاصيل الفلاحية.

فحسب إحصائيات لقنصلية توسكانا الإيطالية في تونس، وإحصائيات لجدول الوفيات اليهود، حصد الوباء مثلًا في ظرف 40 يومًا فقط بين 11 نوفمبر/تشرين الثاني و21 ديسمبر/كانون الأول 1818 حياة نحو 9 آلاف شخص في تونس العاصمة فقط. إن كانت العاصمة تضم 120 ألف ساكن قبل الوباء حسب إحصائيات عامة

وقتها، فقد حصد الطاعون في ظرف سنتين حياة ربع السكان، 30 ألف حالة وفاة في واحدة من أكبر الكوارث البشرية في تاريخ تونس."

.ثم ظهرت كوليرا 1849 – 1850فأيقظت ما تناساه النّاس من مآسي.

يقول مجد: "شهدت تونس نهاية عام 1849 انتشارًا للكوليرا في جهة باجة ما أدى لمئات حالات الوفاة في المدينة، وهرب النّاس للأرياف في الجهة هربًا من الوباء الذي واصل انتشاره عام 1850 في تونس العاصمة وارتفعت حالات الوفاة بمعدل 100 وفاة كل يوم.

اضطر الباي لعزل نفسه في قرطاج ثم في قصر المحّمدية، وهربت أفواج من الجالية اليهودية إلى الجزائر وفرنسا، وتواصل انتشار الوباء في الربيع ثم بداية الصيف لينتهي في أوت/أغسطس 1850."

.وأخيرا كوليرا 1856تقول الدّكتورة :

"عاد وباء الكوليرا بعد 6 سنوات لكن هذه المرة بدأ من طرابلس في صيف 1856 ليجتاح جزيرة جربة ثم منطقة الساحل ووصل في منتصف شهر جويلية/يوليو تونس العاصمة. وحسب الديبلوماسي الفرنسي ليون روش، ضرب الوباء في البداية يهود تونس ثم انتقل للمسلمين والمسيحيين، وقد بلغ أشدّ درجات انتشاره في نهاية أوت/أغسطس ليندثر تباعًا بعدما حصد أرواح 6 آلاف تونسي."

.كم عانى أجدادنا من ويلات وأهوال وها إننا نعيش بعضها الآن ولعلّه في زمن أفضل من زمنهم يقول مجد.

. تعقب الدّكتورة : " الحمد لله كثيرا فلا مقارنة بين ما نحن عليه وما كان عليه أجدادنا... لا مجال لذلك طبيّا وإعلاميّا وتدخّلا وإنقاذا ومستوى عيش ومواصلات واتصالات وتواصل...

بحث في كل ما كتب عن جوائح القرون الماضية وتمنّى لو أسعفته الظروف بلقاء الدّكتورة ليتسلّم منها ذلك المرجع إلهام الذي حدّثته عنه ذات يوم وهما يتحاوران حول الكوفيد 19 وخصوصياته ومخاطره.

الفصل العاشر

لقد ملأت جداول أوقاته، فلا فراغ لديه، واستفاد من معلوماتها كثيرا وبدت له رفيقة درب لا يمكن الاستغناء عنها رغم بعد المسافة وتوسّل إلى خالقه الذي أرسلها له وكافأه بها أن يحفظها ويكرمها ويعينه على تدوين جميلها وإهدائه لها في كتاب يوما ما ولما لا يسعى للزّواج منها إن قبلت ذلك إذ يبدو أنّها تبادله نفس الاهتمام والله وحده أعلم بالمشاعر والأحاسيس والخفايا والسّرائر وقد بدا له هذا الشّعور ليلة عيد الحبّ إذ سهرا إلى ساعة متأخّرة من الليل يتعارفان فتنطلق أحاسيسهما في فلتات ما يكتبان.

ولن ينسى تلك الليلة الشّاعريّة الجميلة، حجر الزّاوية في علاقته الوطيدة بها مهما حدث ولن تنساها هي أيضا وإن حاولت... وهناك ليالي جميله أخرى حدّثته فيها عن التلاقيح في الدّول المتقدمة وأنواعها وشاهدا تسجيلات لا مثيل لها في الغرض واستفاد كثيرا من أشياء لم يكن ليعرفها، وهو الصّيدلي، لولا تلك الفيديوهات. بل كانت سببا رئيسيّا من أسباب تعلّقه بها وعشقه لها " وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا..." إنّها معلومات ضروريّة في فترة دقيقة وهامّة كهذه وهي فعلا طبيبة من الكفاءات المتميّزة ومتمرّسة في ميدانها هذا.

ورغم أن عيد الحبّ لا يصنعه ذاك الدبّ المرصّع بكلمات "أحبّك" وبكل اللّغات، ولا يؤمن به، إذ يؤمن أن الحبّ مشاعر تلقائيّة تتجدّد مع طلوع كلّ شمس. وتتجسّم قولا وفعلا وسلوكا وممارسة. وإن أصابها الفتور أو ماتت تلك المشاعر، مات كلّ شيء فينا ودفن داخلنا في مقبرة الأعماق. وأن الحبّ تماما كالماء والهواء والحريّة،

ضروري للحياة وجزء هام منها وإن غاب بهتت ألوانها وخمد بريقها وأصبحت بلا نكهة وكأنّ الوجود قد انطفأ بغتة وغربت شمسه...

فيوم عيد الحبّ، كتب لها شعرا ملحونا، فكها مثيرا من أجمل ما كتب في حياته، موضّحا لها أن أجمل الهدايا التي يحبّها، شيء منها على حين غفلة. صورة لها أو مكالمة هاتفية أو شيء يخصّها. فأجمل الهدايا التي يعشقها هي المعنويّة تلك التي تلوّن لحظاته وأيّامه ولا يقتلها الزّمن أو ينال منها وأن أعياد حبّه لها هي تلك اليوميّة الجديدة المتجدّدة، قصيد ملهم أو مقطوعة إبداع موسيقي أو أخبار هامّة مفيدة عن اكتشافات علميّة... ثم أرسل لها الجزء الأخير من أغنية "أسألك الرحيل" التي تغنّيها نجاة الصّغيرة من كلمات نزار قبّاني وألحان الموسيقار محمّد عبد الوهاب، عربون ودّ ومحبّة...

.كلّ أيّامك أعياد دكتوره والحبّ الحقيقي هو الّذي لا تنال منه الأيّام...

ضحكت و ردّت:

.هذه الأيّام حبلى ليس يدرى ما تلد، فقط لنبتسم ونتفاءل صديقي...

كان يتمنّى كلمة أخرى تعوّض" صديقي" تطير به في أفق رحب في إحدى السّماوات السّبع ولكنّه أرادها تلقائيّة دون أن يطلبها. ثم انهمك معها في الاستماع إلى الأغنيّة.

انزع حبيبي معطف السّفر

وابق معي حتى نهايات العمر

.....

ماذا انا لو انت لا تحبّني

ما الليل ما النّهار ما النّجوم ما السّهر

ستصبح الأيّام لا طعم لها

وتصبح الحقول لا لون لها

وتصبح الأشكال لا شكل لها

ويصبح الرّبيع مستحيلا

والعمر مستحيلا

ابق حبيبي دائما كي يورق الشّجر

ابق حبيبي دائما كي يهطل المطر

ابق حبيبي دائما كي تطلع الوردة من قلب حجر

لا تكترث بكل ما أقول يا حبيبي

في زمن الوحدة او وقت الضّجر

وابق معي إذا انا سألتك الرّحيلاَ

وردّد بتأثّر واضح آخر الأبيات "لا تكترث بكلّ ما أقول يا حبيبي، في زمن الوحدة أو وقت الضّجر، وابقي معي حتّى نهايات العمر"

أمّا الدّكتورة ففقدت الثّقة بهذه الأحلام، في انتظار ما تخبّؤه لها الأيّام، إذ طالما قالت وردّدت وتمنّت أن يبقى معها الدّكتور شهاب إلى نهايات العمر...

ومن الغد أرسل لها عبر مبيعات الشّبكة الافتراضيّة قارورة عطر باريسيّة شهيرة تعشقها وقد فهم ذلك من أوّل حوار للتّعارف معها، حين عدّدت له ما تحبّ وما لا تحبّ، وعلبة من الشوكولاتة الفاخرة " باتشي" سليلة الثّقافة السّويسريّة وباقة ورد جميلة منتقاة عربون ودّ بمناسبة أوّل عيد حبّ جمعهما لعلّه يسترسل إلى زمن طويل في حياة قصيرة مهما طالت... ثم أرسل لها ممّا اختاره من قصائد محمّد علي جلاصي.

أحبّك لا تسأليني لماذا وكيف، و منذ متى، لست أذكر

أحبّك أنشودة للصّباح و بعد الصّباح أحبّك أكثر

كحبّ " كُثَيْر" لعَزّته و قبل كُثَيْر "جَميلُ" و " عنتر"

وقد هام قبلي قيس بليلى و هِمتُ بكِ مثل قيس و أكثر

وليس على الأرض مثلي محبّ فقد مات قيس وقد مات عنتر

أرسلت له صورها الجميلة الجذّابة وكلماتها السّحرية وباقاتها الافتراضيّة و هذه القصيدة الرائعة المختارة من كلمات الشّاعرة سعاد الصبّاح وتغنّيها ماجدة الرّومي،

وهي تتذوّق كثيرا مثل هذه الأشعار التي لا تكاد نفرّق فيها بين ما هي لسعاد وما هي لنزار:

كن صديقي
فأنا محتاجة جدّاً لميناء سلام
وأنا متعبة من قصص العشق، وأخبار الغرام
وأنا متعبة من ذلك العصر الذي
يعتبر المرأة تمثال رخام
فتكلّم حين تلقاني
لماذا الرّجل الشّرقيّ ينسى،
حين يلقى المرأة، نصف الكلام؟
ولماذا لا يرى فيها سوى قطعة حلوى
وزغاليل حمام
ولماذا يقطف التفّاح من أشجارها؟
ثمّ ينام"

فهم الرّسالة وهو المهتمّ بهذا وأعجبه منها هذا الردّ الدّال على النّضج الفكري وهذا الجانب الثّقافي الواعي الّذي نبّهته إليه. ما يرجوه منها، أن تكون بحقّ صديقة قريبة إلى قلبه ووجدانه، تشاركه حبّ الفنون والشّعر والأدب ويأخذها معه إلى أرحب الآفاق، يحاور عقلها ويترك شكلها وكحلها وسوارها. من يومها ازداد إعجابا بها، بفكرها وذوقها واختياراتها وخلفيّة ثقافتها وعقليّتها وتكوينها...

.شكرها على حسن الاختيار ووعدها بأن يكون كذلك وإن لم يتقدّم لن يتراجع أبدا إلى الوراء..

.قالت له بدهاء الأنثى تقدّم إن استطعت، فما المانع؟

.أذهلته المفاجأة فبهت وغابت عنه الرّدود...

فعلا بدأ تفكيرها يتّجه نحو الاستقرار ونسيان الماضي وإن كانت الظّروف غير مناسبة لذلك. كلّ الفرسان الّذين مرّوا في حياتها يمتطون خيولا مزيّفة لم تلفت انتباهها كما لفته ذاك الذي ذهب وهذا الصّيدلي الشّاب الذي حرّك في قلبها شيئا لم تعهده. هذا ما اكتشفته أخيرا. هذا الرّجل لا يشبههم ومواصفاته ليست مواصفاتهم وها هي تلتقي بالزّملاء وغيرهم كلّ يوم ولكن لا أحد حرّك سواكنها أو نبض قلبها له... إنّه وسيم، مهذّب، شاعر وأديب، صيدلانيّ ومتمكّن من علمه وعمله، شابّ يتقد حيويّة تتمنّاه كلّ امرأة لكن عليها أن تضعه على محكّ الدّرس فلا تقترب كثيرا فتحترق ولا تبتعد كثيرا فتختطفه أخرى. أعجبها وضوحه وجانب "الرّجلة " فيه، طريقته الفنّية المبتكرة في ملاحقتها دون إحراج أو ملل ومع ذلك فقد قرّرت أن تحافظ على مسافة الأمان بينهما فما أسرعت أنثى الخطى نحو رجل إلاّ وخذلها أو رمى بها في غياهب النّسيان أو فهمت خطأ... والماضي ليس بعيدا وما زالت آثاره في جدران وغرف القلب..

الفصل الحادي عشر

في حيّه بالكرنيش حدّثه العطّار عن تخوّفات النّاس من هذا الكابوس، من فقدان الأدويّة والمواد الغذائيّة التي بدأ فقدانها في السّوق ينبئ عن زيادة أسعارها وعن الحيتان الّتي تكبر من ورائها... اختفى زيت الحاكم، فقد الأرز والكثير من المواد الاستهلاكيّة الأخرى التي فتحت لها أسواق التّهريب بالأقطار المجاورة وبدأت تظهر سحب مدلهمّة، تخيفه و تغطّي سماء المستقبل... هؤلاء "المستكرشين" الجوعى لا تهمّهم بلادهم بقدر ما تهمّهم جيوبهم وبطونهم ونهمهم وشهواتهم الأخرى...

وحتى قطاع الأدويّة فقد تسرّب إليه هؤلاء، مع أنّ تصنيع الأدويّة في تونس يعود إلى أواخر الثّمانينيات بدعم من الدّولة الّتي كانت سياساتها الصحّية آنذاك تركز على تطوير القطاع وتوفير الطبابة المجانية للمواطنين. وتعتبر شركة الصناعات الصيدلية من أوائل الشّركات في صناعة الأدوية في تونس، تأسّست في عام 1989 وهي تعمل في قطاع معدّات وخدمات الرعايّة الصحيّة مع التّركيز على تطوير الأبحاث الأساسيّة المتعلّقة بالطبّ، وتطوير وتصنيع الدّواء. في حين تتحكّم الصيدليّة المركزيّة بمهمّة توريد المستحضرات الصيدليّة بكلّ أصنافها وأوكلت إليها مهامّ اللفّ والتغليف وتصنيع الأدوية وتحضيرها إضافة إلى توريد اللقاحات والأمصال. إن أصيب هذا القطاع، يقول في نفسه، تعطّل كل شيء...

أما الدّكتورة ، فبعد أن قامت بكل واجباتها المنزليّة الضّروريّة لمساعدة أختها، حدثته عن تخوّفات من لها بهم صلة من التطعيم المزمع القيام به فبعضهم عبّر عن مخاوفه من مضاعفاته الجانبيّة التي يتحدث عنها بعض النّاس وخاصّة من النّخبة، القريبة من مجال الصحّة، في المجتمعات الغربية. لكنها أبدت تشجيعها للقيام به خاصّة من إطارات الصحّة المباشرة والمعرّضة للاحتكاك بالمرضى وكل من لهم احتكاك مباشر بعموم النّاس ورجال التربية والتعليم وكذلك لكبار السنّ والمصابين بأمراض مزمنة تؤثّر على مناعتهم وتقلّص من مفعولها أو من أصيبوا سابقا بهذا الفيروس وتخلّصوا من تبعاته... ورغم أنّ لها حساسيّة لذلك فستقوم بها، " فالتّطعيم قوّة داعمة مفيدة كما تردّد دائما..."

كانت تحدّثه وكلّها شوق لبداية حملة التلقيح، المزمع القيام بها في غضون الأسابيع القادمة، كطبيبة مباشرة وكوطنيّة غيورة على أبناء جلدتها، حتّى يخفّفوا على النّاس ما بهم من خوف ووجل بلغ أقصاه بمرور سنة بأيامها وأشهرها على انتشار هذه الجائحة بنفس القوّة ونفس المآسي التي تتركها وراءها وتخلفها بكل مكان مرّت به كإعصار قويّ لا سلطة لنا عليه.

.ستبدأ حملات التّلقيح على بركة الله وسنكون في الموعد. قالت له..

.ليس لي إلا أن أشدّ على يديك متمنيا لك التّوفيق.. ردّ متفائلا ممتنّا..

وهو المسؤول في أحد مصانع الأدويّة يعرف أنّ ما لا يقل عن خمسمائة نوع من أدوية الأمراض المزمنة مفقودة في البلاد بفعل التّهريب وأشياء كثيرة أخرى... وعن أنواع الأدويّة التي من الضّروري وجودها في صيدليّة البيت، خلال فترة انتشار الجائحة

وضرورة استشارة الطبيب عند الشّعور بوعكة صحيّة تقول صديقته نقلا عن الدّكتورة لود ميلا لابا:.

." يجب خلال فترة خطر الإصابة بعدوى فيروسيّة، أن توجد في صيدليّة البيت أدويّة معيّنة تفيد في مساعدة الشّخص المريض لحين وصول الطّبيب. لأنّ استدعاء الطّبيب أمر ضروري جدّا".

. تضيف: " فمثلا عند ارتفاع درجة حرارة الجسم تنصح بتناول أدويّة مخفّضة للحرارة. كما تنصح بضرورة الاحتفاظ بالمضادّات الحيويّة في صيدليّة البيت، لأنّها أكثر أمانا، ومع ذلك يجب تناولها بعد استشارة الطّبيب فقط."

.كما تؤكّد الدّكتورة على ضرورة وجود أدويّة مضادّة للفيروسات في صيدليّة البيت، وكذلك أدويّة لتعزيز منظومة المناعة، وأدويّة أساسها البكتيريا اللبنية...

أما صديقه فهمي فاستغلّ الظّروف الصحيّة التي تخيّم على البلاد واندمج ضمن مجموعة من الرّجال والنّساء في صلب شركة عالميّة للتّسويق الشّبكي لمواد تجميليّة وأغذيّة تكميليّة وعطور لا توجد الا ضمن مبيعات الشّركة. تعرّف على نساء ورجال عديدين فالعمليّة تتطلّب الاستقطاب لتزداد المداخيل، فله نسبة مئوية من مداخيل كل من يستقطبه ومن يستقطبه مستقطبوه زيادة على النّسبة المئويّة التي يتحصّل عليها ممّا يبيعه من هذا المنتوج. وفي ظروف كهذه يتحاشى النّاس الاختلاط والتسوّق المزدحم تلقى هذه السّلع رواجها الميسّر.

ف" سهير" من الحيّ الذي يسكنه و"سرور" من مدينة ساحليّة و" صلاح" من أصدقاء المقهى و" عبد الوهاب" من أصدقاء الفايسبوك وإلهام من الصّديقات المقرّبات. مع هذه المجموعة وغيرهم من المتفاعلين يتحاور يوميّا ويطمح إلى الأحسن و الأفضل.

والتّسويق الشّبكي عرفته بلادنا بقوّة في العشريّة الأخيرة وعمّ الشبكة العنكبوتية في الدّاخل والخارج وتهافت عليه جلّ العاطلين كما تهافت عليه الموظّفون وخاصّة الموظفات فهو يدعّم ميزانيّة العائلة ويحدّ من تداينها زد على الطلبة وجوّ المغامرة في كسب جديد بأيسر السّبل بل بأيسر الطّرق العصريّة ولا تخلو حلقة اجتماعيّة تقريبا من هذا المنتوج أو الحديث عنه ناهيك عن المتقاعدين وأمراض الرّوماتيزم وهشاشة العظام التي ترهقهم.. وفي المساء لا يزيل أتعابه إلا بـ"دوش سخون" وبعض المزح مع صديقه ومؤنسه ورفيق السكنى...

في المساء بحث مجد عن أغنية رقيقة جميلة وأرسلها لصديقته الدّكتورة فليس له إلا الفنّ رسولا وقديما قيل "إذا كنت في حاجة مرسلا، فأرسل حكيما ولا توصه..." و لا يوجد لديه أحكم من الفنّ الرّاقي الّذي يدغدغ خلجات النّفس البشريّة ويحرّك الوجدان... إذ ليس لديه ما يقدّمه لها عربون شكر وتقدير وامتنان غير تلك المشاعر الرّقيقة النّبيلة الّتي، ربّما، تدفعها إلى الأمام في مجال اهتمامها إن كانت فعلا قد تحرّكت مشاعرها نحوه وتفتّحت براعم قلبها له وهي الطّبيبة الجميلة، الواقعيّة، النّاضجة والرّومانسية الحالمة الّتي ارتاح لها وفتح لها قلبه بكلّ ما فيه من خزائن حياته وأسرار مراحلها. فهو كآلة موسيقيّة جميلة مغلقة على موسيقاها، مغلق هو على أسراره لكنّها استطاعت بسحر الأنثى ومواهبها ودغدغتها لقلبه سبر أغواره وفكّ طلاسمه...

أغنية جميلة معبّرة من كلمات الشّاعر المتميز عبد الرّحمان الأبنودي وألحان كمال الطويل وغناء صاحبة الصّوت الحنون نجاة الصّغيرة.

عيش معايا يا حبيبي عيش معايا.. إنت والحبّ وهنايا
مهما عشنا يا حبيبي.. عمر واحد مش كفاية

يا حبيبي مين أنا... انا مين.. ولاّ انت مين ولا احنا فين؟
إحنا روح بتحبّ روح.. للحبّ يا روح الرّوح للشّوق للحنين
عيش معايا بعيد عن الدّنيا.. عيش معايا بعيد عن كلّ عين
ده الهوى والحبّ والأشواق.. علشانا مخلوقين
عايزة أعيش ويّاك.. سنين موصولة طويلة

.يا له من اختيار رائع، ردّت عليه

.عمر واحد موش كفايه، أجابها سعيدا..

فعلا، أغنية رائعة لحنا وكلمات استمتع بها صاحبنا وصديقته كلّ في غرفته ومكانه فسهراتهما تؤثّثها تقريبا مثل هذه الأغاني التي اشتهرت في الجزء الأوّل من القرن العشرين وما زالت صامدة منتشرة رغم موجات الأغنية الجديدة الملتزمة منها خاصّة. وجدا في مثل هذه الأغاني الكلمة الذكيّة والصّوت العذب واللّحن الجميل

والعبقريّة والإبداع والإمتاع كذلك، يستمعان ويستمتعان ومنها ينطلقان في حوار شامل مفيد قد لا ينتهي يجدّدان طاقتهما ويشحنان ما هما في حاجة إليه من طاقة.

كانت تذكر له دائما ميولاتها الفنيّة، أفكارها العابرة، ولا تذكر له صديقاتها ورفيقاتها، ولا أين وكيف ترفّه عن نفسها وتقضي أوقات فراغها. فهي رومانسية حدّ النّخاع، لكنّها سبّورة سوداء لا ترى ولا تقرأ، تعشق أغاني كاظم ونجوى كرم وشيرين وأغاني أخرى أجنبيّة أدمنت على الاستماع لها عندما كانت طالبة بإحدى كليات الطب. منها هذه الأغنية الرقيقة:

هل عندك شكّ
أنّك أحلى وأغلى امرأة في الدّنيا
هل عندك شكّ؟

وأهمّ امرأة في الدّنيا
هل عندك شكّ؟

هل عندك شكّ أن دخولك في قلبي
هو أعظم يوم في التّاريخ
وأجمل خبر في الدّنيا
هل عندك شكّ أنك عمري وحياتي

وبأني من عينيك سرقت النار
وقمت بأخطر ثوراتي

كان يرسل لها هذه الأغنية لترطيب مزاجها وتلطيفه كلّما أحسّ بضيق نفسها وتبرّمها من شيء ما فقد لاحظ أنّها سلبيّة المزاج متقلّبة ولا تستقرّ على حال بل متبرّمة إلى أبعد الحدود، متشائمة وكأنّها تصارع هموم الدّنيا ومشاكلها. فكانت هذه الأغنيّة بابا واسعا يدخل منه إليها. أصبح، هو نفسه، مدمنا عليها ومن لا يعشق كلمات نزار قباني وفي قلبه ترقص امرأة لا ككلّ النّساء، مثقّفة واعية، جميلة المظهر، عطرة الكلمات، رصينة القول والفعل، خفيفة الرّوح والظل وحافية القدمين لأجله فقط.

سألته يوما:

.هل يمكن لعاشق متيّم أن يكره؟

أجابها، يقول أحدهم ممّن قرأت لهم:

. يعتقد فرويد أنّه من الوارد جدّا أن يشعر المرء بالحبّ والكره لشخص واحد في الوقت نفسه، وهو ما أسماه بـ "التجاذب الوجداني" و تعني تذبذب الإنسان بين ميلين متعارضين متواجدين معاً، كل منهما يشدّه في اتّجاهه، وهو مصطلح يستخدم في وصف الحياة العاطفيّة للإنسان، حيث يعني تواجد متآن لميول أو اتجاهات أو عواطف متعارضة في علاقتنا خصوصاً عواطف الحبّ والحقد. والتّجاذب الوجداني هو الخاصّية الأساسيّة للحياة العاطفيّة، فليس هناك مطلقاً في علاقتنا بكائن ما عواطف صافية، كل عاطفة لابدّ أن تتضمّن نقيضها في آن معاً، ولو أنّه في الحالات العاديّة لا يبرز إلا وجه واحد: الحبّ، أو الحقد، إلا أنّ الوجه الآخر كامن وضمني قد يتفجّر في ظروف معيّنة، ومن هنا نفهم تحوّل الحبّ الى حقد أو تحوّل النّفور الى حبّ. التّجاذب الوجداني، يتخذ شكلاً صريحاً في بعض حالات الصّراع أو الاضطراب النّفسي، فيتذبذب الإنسان ما بين الحبّ والحقد يتجاذبانه

في الوقت نفسه، في حالات السّواء عواطف المراهق تشكّل نموذجاً ممتازاً للتّجاذب الوجداني، حيث يتذبذب هذا بين الرّغبة والنّفور، بين الحبّ والحقد بشكل واضح".

وأضاف: وضّح دوستويفسكي في رواية الإخوة كارمازوف ذلك قائلاً:

"إن العشق شيء آخر غير الحبّ، فمن الممكن أن يكون المرءُ عاشقًا مع شعوره بالكره."

أي يمكنك أن تعشق شخصا وتكرهه في آن واحد، لكن لا يمكنك أن تحبّه. إن العشق كالإدمان، أنت تكره ما أدمنت عليه لكنّك لا تستطيع هجره.

الحبّ شيء والعشق شيء آخر.

وأنا أحبّك إلى مدى الحبّ وسأظلّ أحبّك طالما الوفاء أهمّ رباط بيننا !

فقط سأكرهك وأقتصّ منك لو لعبت بمشاعري ورحلت... وأعتقد أنّك ستفعلين ذلك لو كنت أنا البادئ !

الفصل الثّاني عشر

في خضمّ تذمّر كلّ النّاس بسبب تأخّر بدء عمليات التّلقيح ضدّ فيروس كورونا، أعلنت الرئاسة[10]كما أعلمته صديقته: " أنّها تلقّت ألف جرعة لقاح من دولة الإمارات العربيّة المتّحدة ممّا أثار زوبعة وجدلا جديدا في البلاد. وكان أحد النواب أوّل من أعلن عن وصول هذه اللّقاحات على صفحته في فيس بوك، وانتشرت لاحقا شائعات على مواقع التواصل الاجتماعي تؤكّد أنّ هذه الهبة وصلت منذ شهر وتمّ تلقيح عدد من نوّاب البرلمان والمسؤولين السّياسيين. من جانبها نفت رئاسة الحكومة علمها بهذه الهبة وأعلنت فتح تحقيق حول ملابسات وصولها وكيفيّة التصرّف فيها وتوزيعها، ممّا يزيد في تعميق الأزمة السّياسيّة التي تعيشها البلاد ...

يجيبها مجد: "يتمّ تداول إشاعات على مواقع التّواصل الاجتماعي تؤكّد أنّ هذه الهبة وصلت منذ شهر وتمّ تطعيم عدد من نوّاب البرلمان. غير أنّ البرلمان نفى ذلك وشدّد في بيان له على أن "رئاسة المجلس تنفي نفيا قطعيّا تلقّيها أيّ نوع من اللقاحات من أيّ جهة كانت".

أما فهمي فأمضى ليلته يحدّثه عن أوضاع النّاس في الشّارع وفي الأحياء الشعبيّة، شيء من الملل والخوف يسري في أجسامهم ولا يعلم الغيب الا الله... أمّا بالنّسبة لمبيعاته فقد ازداد الطّلب على المكمّلات الغذائية توقّيا من هذه الآفة التي تصول وتجول في أنحاء البلاد... ثم يمر إلى "دوش سخون" وينام قرير العين.

---

10 https://www.france24.com/ar

صديقه أبو بكر المتعلّق بالسّلفيّة العلميّة قلبا وقالبا والمعتنق لها يقول له كلّما رآه: . إنّ الله يعاقبكم بتسليط الجوائح عليكم لأنّكم تركتم طريقه المستقيم وعبدتم الطّواغيت، وتركتم شريعته وسنّة رسوله فذوقوا بعضا من عذابه !

يضحك فهمي ملأ شدقيه ويجيبه:

.زواجك على غير الصّيغ القانونيّة سيرمي بك في قاع السّجون..

يجيبه أبو بكر معتدّا ومنفعلا:

. أنا لا اعترف بأيّ من القوانين الوضعيّة فقانوني الوحيد ما شرّعه الله وحلّله ووضّحه رسوله واتّبعه المسلمون. أنا لا أرمي بنفسي مع أبي لهب في نار موقدة.

تعال صديقي أوضّح لك الأمر:

.فالسّلفيّة، تقول عنها بعض الدّراسات ومنها موقع ويكيبيديا، "هي اسم لمنهجٍ يدعو إلى فهم الكتاب والسنّة بفهم سلف الأمة، والأخذ بنهج وعمل النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلم وصحابته والتّابعين وتابعي التابعين باعتباره يمثّل نهج الإسلام، والتمسّك بأخذ الأحكام من كتاب الله، وممّا صحّ من حديث النّبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم ، ويبتعد عن كلّ المدخلات الغريبة عن روح الإسلام وتعاليمه، والتمسّك بما نقل عن السّلف. وهي تمثل في إحدى جوانبها إحدى التيّارات الإسلاميّة العقائديّة في مقابلة الفرق الإسلاميّة الأخرى. وفي جانبها الآخر المعاصر تمثل مدرسة من المدارس السنيّة التي تستهدف إصلاح أنظمة الحكم والمجتمع والحياة عمومًا إلى ما يتوافق مع النّظام الشّرعي الإسلامي. برزت بمصطلحها هذا على يد أحمد بن تيميّة في القرن الثّامن الهجري وقام محمّد بن عبد الوهاب بإحياء هذا المصطلح

من جديد في منطقة نجد في القرن الثاني عشر الهجري والتي كانت الحركة الإصلاحيّة التي أسّسها من أبرز ممثّلي هذه المدرسة في العصر الحديث."

.ويقول موقع آخر[11] إن أنت لست على دراية بذلك" تنظيم الإخوان المسلمين، الذي أسّسه الشّيخ حسن البنّا، هو تنظيم حركي، غالبيّة المنتمين إليه سلفيون في الاعتقاد، وقبلوا في نفس الوقت أشاعرة و"ماتريديين" وصوفيين، كشكل من أشكال التّسامح التّنظيمي، الذي يمثل في الواقع تشكيلة المجتمعات العربيّة والإسلامية في أبسط حالاتها الحضاريّة، وهذا مفهوم متّفق عليه في صفوف المنتمين إلى تنظيم الإخوان المسلمين ولم تخرق قاعدته لحدِّ الآن.

مضيفا : "يبقى أن التفسير المبسّط للتّيّار السّلفي القائل بأنّه يدعو إلى "العودة بالأمّة إلى اعتقاد سلفها الصّالح واتِّباع الكِتاب والسُنّة، كما فهمهما النّبي عليه الصّلاة والسّلام وصحابته"، ويتكفّل بتأصيل هذا الفهم عبر القرون، علماء يتفاهم السّلفيون بشأنهم ويصنفونهم على أنّهم هم الذين يؤخذ عنهم شرح الكتاب والسُنّة "على منهج السّلف"، وبذلك، يصل هذا الفهم إلى القرن الحادي والعشرين مبسَّطا واضحا، ولو كُتِب على الأنترنات أو تكفّلت الهواتف النقّالة بالباقي." أو كما أمرّره أنا لك ومتّبعو المنهج السّلفي إلى مختلف عباد الله..

تحاشى فهمي المجادلة، لأنّه لا مخرج له منها، في غياب حججه وبراهينه على انحراف السّلفيّة وإشكالياتها وملابساتها حسب ما يراه ويعتقده أخذا ممّا ينشر عنها. أنهى

11 Swissiinfo.ch

الحوار شاكرا لصديقه قناعته بصحّة ما يعتنقه ودفاعه عنه دون هوادة... وهو ما يسجله له !

أمّا الدّكتورة فلا علاقة لها مع صديقها الدّكتور الّذي تركها في حيرة وخرج ولم يعد بل لم يقترح عليها أو يدفعها للخروج معه بل يودّعها وتناساها ولم يسأل مرّة عنها مع أنّها تتسقّط أخباره ولم تستطع نسيانه وربّما ما زال يراودها أمل الارتباط به. لقد شغلها كثيرا لولا ظهور مجد في حياتها فأنساها جانبا مهمّا من تفكيرها وماضيها وشغلها بشعره وأغانيه وملأ فراغا هي في أشدّ الحاجة لملئه.. كما ملأ المتنبّي في زمانه الدّنيا وشغل النّاس، ولذلك انساقت معه تردم ما بينها وبين شهاب من خنادق وأنفاق بذكاء و توأدة وصبر...

انتظر اتّصالها الصّباحي كعادتها لكنّه لم يتلقّ أي شيء يطمئنه عنها مع أنّه لا يرغب في إحراجها بالأسئلة أو يتّصل بها. وقد أوصاها مرارا وتكرارا بضرورة طمأنته ولو بكلمة. لكنّه إلى حدود الظّهر أو ما بعده لم يتلقّ أيّ إشعار منها وهو الذي تعوّد بغير ذلك. صمتها المتكرّر العميق زاد في اضطرابه ومنسوب حيرته وتشتّت أفكاره. وذلك أكثر ما يقلقه ويضجره ويسبّب له ضغوطا لا تنتهي فتستيقظ كلّ آلامه وتساوره الوساوس و الظّنون وتنال منه لأنّه يخاف عليها ويتمنّى سعادتها وراحتها المهنيّة والخاصّة. فلقد أصبحت جزءا منه ومن حياته وساعات يومه ورفيقة قهوته وجريدته ومذياعه وشاشة حاسوبه وكلّ لحظاته وثوانيه. منها يستمدّ القوّة والتفاؤل والنّجاح في عمله وبها يبدع ويمتع في كتاباته... إنّه الصّمت القاتل... فكما

يأكل القطّ صغاره وتأكل الثّورة أبناءها يأكل الحبّ عشّاقه، يلتهمهم وهم جالسون إلى مائدته العامرة تقول مستغانمي... ولم يكن يعرف صمتها وهواجسها وصراعاتها وخوفها من علاقة ربّما لن تصل إلى الآخر ولعلّها كالأولى أو على رأي جبران " كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثمر" ولذلك لم تحاول الذّهاب بعيدا رغم ما أحسّته من مشاعر حقيقيّة جارفة نحوه.

كلّ هذا التوتّر لا يساعده على الكتابة ويلوّن بالسّواد آراءه وهو المتفائل الضحوك المبتسم دائما. أوقف سيل أفكاره وبدأ في انتظارها قلقا وجلا، وفي داخله يردّد الكلمة التي تردّد في مثل هذه الحالات " ان شاء الله المانع خير" ...

بحث للدّكتورة عن أغنيّة مصطفى كامل " اشتقت لك " التي تحبّها وراح يستمع اليها مرارا وتكرارا في انتظار الجديد ولسان حاله يردّد " اللهمّ اجعله خيرا" ارتبط بها ارتباطا مرضيّا عميقا سوف لن يشفى منه الا بارتباط أبديّ تؤثّثه وتدعّمه وتحقّقه أقداره ومشيئة الرّحمان وإلاّ فعلى الدّنيا السّلام...

ثم بعد ملل لم يعهده غيّر اتّجاهه إلى أمّ كلثوم " من أجل عينيك عشقت الهوى" وراح يردّد معها الكلمات والحيرة متربّصة به، تغتال مزاجه بصمت...

فالحبّ سلطان فوق الشّبهات وهو رجل باذخ الألم يتحمّل ولا يئنّ...

"هذا فؤادي فامتلك أمره، فاظلمه إن أحببت أو فاعدل
من بريق الوجد في عينيك، أشعلت حنيني ...
وعلى دربك أنّى رحت، أرسلت عيوني

والرّؤى حولي غامت بين شكّي ويقيني ..
والمني ترقص في قلبي على لحن شجوني"

أرسل لها إرسالية ثم أردفها بأخرى، وهو بين شكّ ويقين، فردّت أخيرا منشرحة كعادتها عندما تمسك جهازها بعد فترة انشغال وهي تعتذر:

إنه يوم الأحد وارتباطاتها كثيرة ومشاغلها أيضا. عاتبها بلطف وشرح لها ما مرّ به هذا الصّباح من انزعاج ذهب بشهيّة الكتابة لديه وسيعود لها متى عاد الإلهام والتوهّج. شرحت له الأمر بإطناب لتنجلي من عقله الظّنون، المتراكمة كسحب الشّتاء، وأنّ تصرفاتها عاديّة وتلقائيّة وتلك طبيعتها لا غير وأنّ جهاز هاتفها نادرا ما يكون بيدها إلا إذا استقبلت مكالمة هاتفيّة وسمعت رناته أمّا أغلب الأوقات فهو في حقيبة يدها نظرا لكثرة شؤونها المنزليّة ومشاغلها الشّخصيّة...

. يوم الأحد يوم مقلق مضجر بأشغاله الكثيرة على عكس ما يعتقده الرّجال! أحد واحد ويوم واحد لا يناسب تراكمات ما في منازلنا والله ! كتبت له.

. أصدّقك والله لكن القلق أخذ منّي وذاك الطّفل في داخلي بعثرني ولملمني! أجابها سعيدا.

أراحه ما كتبته له واطمأنّ لها ولذاته وبدأ يعرف أشياء عن طبيعتها وتصرّفاتها ووضعها وأوقاتها، فكلّ البدايات غامضة صعبة مهما كانت درجة وضوحها وواصل قراءة ما أشارت له به. إنّه وضع السّاعة:

" التلاقيح تصل في موفّى الأسبوع القادم وستتحصّل تونس على 300 ألف جرعة من الصّين في شكل هبة، كما كتبت جريدة المغرب،[12] لئن تميّز هذا الوضع بتراجع عدد الإصابات وعدد الوفيّات مع تقلّص الضّغط على المستشفيّات إلا أنّه مازال يتّسم بعدم الاستقرار خاصّة مع تصاعد المخاوف مع وجود السّلالة البريطانيّة في البلاد وهو ما يحتّم مواصلة العمل بنفس الإجراءات الوقائيّة مع التّخفيف في البعض منها إلى حين وصول التّلاقيح رسميّا. وقد يكون الموعد القادم حسب تأكيدات لجنة القيادة في موفّي الأسبوع ...

فتحسّن الوضع الوبائي يبقى مؤشّرا إيجابيا لمراجعة بعض القرارات لكنّ المسألة التي تثير المخاوف هي السّلالة البريطانيّة التي باتت موجودة في البلاد وتمّ تسجيل حالات قليلة مع وجود شكوك في عدة عينات أخرى.

البلاد سجّلت إلى حدّ الآن أربع حالات متأكدة بالسّلالة البريطانية لفيروس كورونا ويتمّ حاليا التأكّد من خمس حالات أخرى يشتبه في إصابتها بهذه السّلالة بالاعتماد على التّقطيع الجيني، وأوضح أنّ عشر عيّنات أثبتت وجود تغيّرات وليست كلها منسوبة إلى السّلالة البريطانيّة، مشدّدا على أن العدد ليس مهمّا يقدر المخاوف من سرعة الانتشار.

الجائحة تغتال المئات والوضع الاقتصادي كذلك وكل يتشبّث بحياته مهما كانت علاقته معها وهو يتشبث بالدّكتورة ، بصدق مشاعره، فهي حياته والهواء الذي يتنفسّه.

12 جريدة المغرب بتاريخ 5 مارس 2021

اهتمامات صديقته هي أيضا من اهتماماته زيادة عن الشّعر والأدب فهما من نفس الميدان تقريبا وها هو يهتمّ بالمجال الصّحّي ويطالع ما يكتب حول الجائحة وآفاق فتورها أو تطوّرها وسبل مقاومتها. وأصبحت تثيره تلك " البلوزة" التي يرتديها الأطبّاء ويرتديها هو أيضا ، ذلك الرّداء الأبيض، حتّى وإن رأى مرتديها في الشارع، أتراها قد أثّرت فيه إلى هذا الحد؟! وها هو يمازحها من حين لآخر بكلمات عسليّة الطّعم قد تتذوقها وتدفعها إلى الأمام:

يقول فاروق جويدة

لو أستطيع حبيبتي لنثرت شيئا

من عبيرك بين أنياب الزمان

فلعله يوما يفيق

ويمنح النّاس الأمان

لو أستطيع حبيبتي

لجعلت من عينيك صبحا

في غدير من حنان

ونسجت أفراح الحياة حديقة

لا يدرك الإنسان شطآن لها

فتردّ بكلمات يغلب عليها الحياء أو بذلك القلب النّقي الأحمر القاني لا غير.. لم يستغرب يوما لكنّه كان يرجع مردّ ذلك إلى حيائها و انشغالها الدّائم.

وفي غالب الأحيان ينسى أنّها بشر كبقيّة البشر لها مشاغلها واهتماماتها، أفراحها وهمومها، لها مشاعرها وعواطفها ولها من تتفاعل معه في الافتراضي والواقع، تحبّ وتكره. لكنّها سكنت في أعماقه كملاك قد نزل لتوّه من السّماء. أسبل عليها كل الإيجابيات والصّفات الملائكيّة الحميدة ونفى عنها كل صفات البشر وكل ما يكدّر صفو نفسه التي ارتاحت لها وسكنت عندها.

فلذلك اليوم اليوم الذي تعرف فيه عليها نكهته وعطره و شذى ذكراه الّتي لا ولن تنسى، نسجها القدر وخاطتها الأيّام وها هو يسعد بوجودها ويتمنّى المزيد. وليس لنا أمر مع القدر حتّى وإن غدر !

كتبت له يوما هل تراقبني ؟ أتقرأ ما أكتب ؟ ربّما لتعرف مدى تعلّقه بها...

ردّ بكل جوارحه، من قال إنّي لا أراقبك سرّا ؟ من أسرّ لك بذلك سيدتي! !

أراقبك وأحلّل ما تحت سطورك وأحرفك وما وراءه !

أقلّب صورك ذات اليمين وذات الشّمال وأنفضها ولو استطعت لأدخلت يدي في جيوبك... ولاشتممت رائحة عطرك فيها....

أتعلمين انّني أراقبك و أغار عليك بقسوة.. أحمّل سطورك ما لا تتحمّل واقلّبها على كل الأوجه المحتملة وأرتاح لما أريده منها فقط.. وأرفع حاجب الاستياء بدون تفكير

كلّما استربت في معنى يحتمل التّأويل... أو كلّما وجدت أداة تأكيد، تؤكّد ما لا اعلم ! هل تعلمين ذلك، سيدتي، أم انت كأبي الطيّب المتنبي تنامين ملء جفونك عن شواردها... وأسهر انا في معناها واحتدم ...بل وأشتعل اشتعالا.

أنت نصفي الثاني الذي بحثت عنه طويلا... انت الرّوح الّتي تفهمني وافهمها... انت الكائن الّذي اعشقه...

نعم من راقب النّاس مات همّا وغمّا وكمدا إلاّ أنت... فأنت الاستثناء في كلّ شيء...

من راقبك مات حيّا ومات حبّا !

الفصل الثالث عشر

في لقاءات صديقه فهمي مع السّلفي أبي بكر كثيرا ما يذكّره هذا الأخير بالماضي التليد يوم كانت كل العادات والتّقاليد والسّلوكيات والتصرّفات مستمدّة من ديننا الحنيف لا غير، من القرآن الكريم وسنّة الرّسول العظيم وخير خلف لخير سلف من بعده... يوم كنّا نحافظ على هويّتنا وتقاليدنا من التّلاشي...

وها هو يطالع ما يقع تحت يديه إذ وقعت عيناه على مقال يتحدّث عن بعض عادات القدامى، وهي ممّا حدّثه عنها صديقه، عادات تثير الاهتمام وحلو الكلام، وتكاد تتلاشى، وتجلب لصاحبها الكثير من التقدير والاحترام...

.فما هي حكاية الماء والقهوة مثلا ؟ [13]

.كانت التقاليد تقتضي أن يُقدم فنجان القهوة للضيوف مع كاس ماء وفي حين قام الضيف بشرب الماء قبل القهوة كان يُعلم بأنه جائع وكان يتم إعداد وجبة طعام له، وفي حين شرب القهوة قبل الماء فكان هذا يعني بأنه شبعان.

.أما حكاية الوردة الحمراء والوردة الصفراء فتعني الكثير :

.كانت توضع الوردة الصفراء أمام البيت الذي فيه يرقد فيه مريض لإعلام المارة والجيران بضرورة التزام الهدوء وتجنب إزعاجه، أما إذا وُضعت الوردة الحمراء فكان هذا يعني بأن هناك شابة وصلت إلى سن الزواج موجودة داخل البيت يمكن

13 /www.aljarida.com.tn/article/12882

التقدم لخطبتها ويُحذر النطق بالأقوال البذيئة بجانب البيت حرمة لعواطفها. يا لها من أخلاق ردد مجد ؟

.أما مطرقة الباب في ذلك العهد :

. كانت توضع في العهد العثماني على أبواب المنازل مطرقتان، واحدة صغيرة، و الأخرى كبيرة.

فعندما يطرق الباب بالصغيرة، يُفهم أن الذي يطرق الباب امرأة، فكانت تذهب سيدة البيت، وتفتح الباب.

وعندما يطرق بالكبيرة، يُفهم أن على الباب رجل، فيذهب رجل البيت، ويفتح الباب لاستقبال ضيفه.

.أما الصّدقة وما أدراك ما الصّدقة فلها حديث آخر :

.كانت فئة الأغنياء العثمانيّة تحرص على تقديم الصّدقات دون التسبّب بأيّ إحراج للفقراء، فكانت تقوم بالذّهاب للبقّالة وبائعي الخضار وتطلب دفتر الدّين وتطلب حذف الدّيون وتقوم بتسديدها، دون ذكر اسمها، وكان الفقراء دومًا يجدون دينهم قد حُذف دون أن يعلموا من قام بذلك فكانوا لا يشعرون بمنّة الأغنياء.

.أما عن سن الثالثة والستين فحدث و لا حرج :

. عندما كان يُسأل كبار السنّ الذين هم فوق سن 63 عن سنّهم في زمن الدّولة العثمانيّة، كانوا يعدّون عاراً أن يقولوا إن سنّهم فوق سنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم، أدباً واحتراماً وتعظيماً له فكانوا يجيبون: "لقد تجاوزنا الحدّ يا بني!

" و من بعض العادات الّتي قضى عليها القانون المدني التّونسي ضمن مجلّة الأحوال الشّخصيّة تلك المتعلقة بما يعرف بـ" الزّواج العرفي و" يسمّى الزّواج العرفي، هذا الّذي انتشر بعد الثّورة مع دخول التيّارات الإسلاميّة في تونس أو انتعاشها، في القانون زواجاً على خلاف الصّيغ القانونيّة، ويعاقب عليه قانون البلاد، إذ يعدّ حسب الفصل 36 من قانون الحالة المدنيّة والفصل 31 باطلاً ويعاقب الزّوجان بالسّجن مدة 3 أشهر، بخاصّة وأن القانون التّونسي عدد 3 لسنة 1957 المؤرّخ في شهر أوت من السّنة نفسها، المتعلّق بتنظيم الحالة المدنيّة وتحديداً في فصله الـ 31، ينصّ على أن يبرم عقد الزّواج في تونس أمام عدلين، أو أمام ضابط الحالة المدنيّة بمحضر شاهدين من أهل الثقة، وهو ما يجعل من هذا الزّواج المسمّى بالعرفي ممنوعاً. لكن، صديق صديقه فهمي، أبا بكر تزوّج زواجا عرفيّا ومازال عليه حتى بعد التخرّج والعمل في ميدان حرّ وكثيرا ما نصحه بذلك رغم ذاك المدّ والجزر الذي تعرفه علاقته مع صديقته التي عيل صبرها فهي بحاجة للأمومة وإنجاب الأطفال التي لا تحرّك في نفسه ميولا.

وتشير بعض الإحصائيات أنه خلال السّنوات الخمس الأخيرة، أي بعد ما سمّيت بالثورة، سُجِّلت 1718 قضيّة زواج عرفي في تونس."

إنّها الحيرة، يقول فهمي دائما، أنطبّق القانون الوضعي أم الشّريعة السّماويّة، هذا يحاسبنا اليوم وذاك يحاسبنا غدا ؟! كما يردّد أبو بكر دائما... فيجيبه صوت داخلي "أطيعوا الله ورسوله وأولي الأمر منكم"... فيزداد حيرة...

يقول مجد: " يرى متخصّصون في علم الاجتماع أنّ انتشار الزّواج العرفي في بلادنا هو نتيجة لصعوبة الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة، ويرى آخرون أنّه شرعنة لممارسة الجنس، كما تكتب الصّحفية هدى الطرابلسي في مقال لها حول الموضوع[14]: "أظهرت دراسة أعدّتها مجموعة من الطلبة من 5 جامعات تونسيّة عام 2015، بأنّ ظاهرة الزّواج العرفي انتشرت بنسبة 37 في المائة في صفوف التيّار السّلفي بصفة عامة، وبنسبة 83 في المائة في صفوف الطلبة السلفيين، وبنسبة 23 في المائة في صفوف الطلبة المتعاطفين معهم.

وأشارت الدّراسة نفسها إلى أن 90 في المائة من المتزوّجين عرفياً ينحدرون من أوساط اجتماعية فقيرة، ومن أحياء شعبيّة أو جهات داخليّة محرومة، في حين ينتمي 10 في المائة منهم إلى عائلات من الطّبقة الوسطى."

فما مرد كل هذا يا ترى ؟

" لفهم الظاهرة توجهت "اندبندنت عربية" لبعض الشّباب، منهم مهاب (33 سنة)، صاحب شهادة علميّة في الاقتصاد وعاطل من العمل، الذي يرى أن الإسلام حلّل الزواج العرفي، معتقداً أن الزّواج المدني الّذي تفرضه الدّولة هو زواج مجحف لا يشجّع الشّباب على الارتباط بسبب المتطلّبات الماديّة والتّعقيدات الإجرائيّة."

14 انديبندنت عربيه بتاريخ 24 نوفمبر 2021

وهذا ما يراه ويعتنقه أبو بكر أيضا، يقول صديقه فهمي.

" من جهة أخرى تقول نور (22 سنة)، طالبة، بأن "عديد الفتيات، بخاصّة الطالبات، وقعن في غرام شبّان من التيّار السّلفي فجرّوهم إلى الزّواج العرفي، وبعد ذلك وجدن أنفسهنّ يصارعن مصيرهنّ مع مولود غير شرعي وعائلة رافضة لهذا الزّواج"، وتضيف نور "القانون التّونسي يحفظ حقّ المرأة في الزواج والذّهاب في طريق آخر غير قانوني على غرار الزّواج العرفي الذي نتائجه سيّئة في مجتمعنا على المرأة فقط بينما يهرب الرّجل من مسؤوليته".

وهذا ما ينصح به فهمي صديقه أبي بكر ويقول له دائما: " أنت تعيش في دولة مدنيّة عليك بالانضباط لقوانينها فيتّهمه مباشرة بالكفر والخروج عن ملّة نبيّنا محمّد وأنه طاغوت يعبد الطّواغيت ويتّبع ملّتهم، مآله نار جهنم وبئس المصير!.

استنتجت الصحفيّة "أن الزواج العرفي ظهر في المجتمع التّونسي بعد الثّورة كنتيجة مباشرة لعودة القوى الدّينية بمختلف أطيافها للنّشاط الدّعوي والسّياسي بعدما نامت واستكانت طيلة العقود السّابقة التي تعتبرها عهود دكتاتوريّة وحكم بما لم ينزله الله.

***

صديقه فهمي، دوما، في محادثات طويلة دقيقة مع الّذين استقطبهم أو مع من استقطبه هو بالذّات حول ما يجدّ من جديد على صعيد المنتوج أو أسعاره التي تتغيّر دائما كما يتغيّر صرف العملات الأجنبيّة وكثيرا ما كانت لهم ندوات مسائيّة عبر تطبيقة "الزوم" يلتقون خلالها بمختصي شركة التّسويق الشّبكي فيطالبونهم بتوفير أنترنات قوي التدفّق لضمان الجودة وبالحضور ضمن الأوائل والتركيز في

العرض وخاصّة الجدد المستقطبين الباحثين عن مداخيل إضافيّة وحريّة ماليّة وتطوير للذّات واكتساب للمهارات لعمل خاصّ وهو في منزله أمام حاسوبه...

هذه الجلسات تطول وتقصر حسب المنتوج المعروض وأهمّيته في السّوق فالتّسويق عمليّة دقيقة تتطلّب الذّكاء والصّبر والموهبة والحنكة في الميدان كما هي التّجارة والأسواق دائما وان تغيّرت الأساليب...

الفصل الرابع عشر

هي ليلة من أروع لياليه قضاها معها في حديث شيّق مفيد ينقّي النّفس من أدرانها ويزيدها أملا كيف لا وقد حدّثته عن مستقبل جميل لازوردي ينتظره كما ينتظر البشريّة بعد القضاء على هذا الفيروس واستكانة "الرّوح إلى نفسها" فهي تزرع في طريقه الأمل وتنير سبل دروبه وتزرع في أعماقه بذور التّفاؤل فتنمو وتكبر وتورق وتزهر ثم تثمر بين عشيّة وضحاها ... تنهّد ثم قال: " ما أروع الأمل حين يجتاح النّفس البشريّة المتهالكة المكدودة أو لعله حبّا سرمديّا تسلّل إلى أعماقه دون إذن منه." وتذكّر لتوه كلمات أغنية لأمّ كلثوم افتتن بها أيّام الجامعة تتغنى بالأمل:

بالأمل أسهر ليالي

في الخيال وابني علالي

وأجعلك فيها نديمي

وأملكك ليلي ويومي

أنا لو أطول ده اللّي بقول

يبقى المنى ولو يكون وهم وظنون

برضك أنا عندي أمل

انا انا عندي أمل

ابتسم وأطلق تنهيدة حرّى ثم أردف: "حتّى أنا عندي أمل... كلّي أمل"

أغلب العلاقات البشريّة التي رُبطت بأهداف معيّنة آنية أو طويلة المدى تنتهي مع نهاية المهمّة والوصول إلى الغاية أو تجاوزها ونسيانها وعلاقته معها لم تبن على أيّة غاية آنية وأهدافها طويلة، سامية نبيلة ولذلك فهو يأمل أن تتواصل ولا تنتهي، فهو يدفعها إلى النّجاح في عملها الإنساني وهي تلهمه وتدفعه إلى الكتابة والإبداع والإمتاع ولا يوجد أنبل من هذا ولعلّ للقدر رأي آخر فالكلمة الأخيرة دائما له.

هاجسه أن يخدم قطاع الأدويّة ويملأ أوقات فراغه إفادة ويكتب كتبا بها تجارب ما يقرأه ويعيشه وعصارة استنتاجاته ورحلاته وهاجسها أن تنجح في مهامّها الإنسانيّة وخاصّة الآنية منها والمتمثلة في مقاومة هذا الفيروس المستجدّ والقضاء عليه ومحو آثاره. تقاربت أفكارهما وانسجمت أرواحهما وخطّطا للنّجاح ولعلّه حبّ بطعم الشّهد في زمن الجائحة ومرارة مخلّفاتها يخيطه قدرهما ويبني به مستقبلهما ويمهّد ليوم لا يعلمه إلا الله.

كانت لديه كتب طبية من آخر ما ظهر جاءته من باريس يستوجب إرسالها كهدايا للدكتورة نون التي طلبت منه ذلك ذات يوم. ذهب إلى مركز البريد وهاله ما وجد عليه النّاس من "هرج ومرج" وازدحام على الأبواب رغم أن لديهم أرقاما تنظّم العمليّة في مثل هذه الظّروف وغيرها. الكورونا ما زالت تفرض قانونها ووزارة الصّحة بكل هياكلها على قدم وساق والمواطن مازال يغطّ في سباته رغم الآلاف الثّمانية الذين خسرناهم. وقد ذكرت له صديقته فيما ذكرت عن دراسة حديثة [15] " ما في النّقاط التالية:

https://gulf365.com/health-diet-news15

. أن بعض أعراض فيروس كورونا قد تستمرّ تسعة أشهر بعد اكتشافها، وفقًا لما نشرته دوريّة الجمعيّة الطبيّة الأمريكيّة، حيث تم الاتّصال بمجموعة من 234 مشاركًا مصابين بكورونا بين أغسطس ونوفمبر 2020 وطُلب منهم ملء استبيان واحد بين ثلاثة إلى تسعة أشهر بعد اكتشاف المرض، ومع ذلك وجدت الدراسة أن فيروس كورونا يمكن أن يسبّب أعراضًا أو مضاعفات طبيّة تستمر لأسابيع وشهور حتّى بعد الشّفاء.

كانت بعض الأعراض طويلة المدى الأكثر شيوعًا هي التّعب وفقدان حاسّة الشمّ والتذوّق وضباب الدّماغ أو التشوّش الذّهني وإيجاد صعوبة في أداء الأنشطة اليوميّة مثل الأعمال المنزليّة."

و رغم اهتمام الإطار الصحّي بكلّ هذه الأبحاث ومتابعتها فإنّ عامّة النّاس تركوا الحبل على الغارب مردّدين كلّما سئلوا عن ذلك:" توفى الحياة عندما يوفى العمر ويأتي الأجل"..

ويبدو أن الطّبيبة اقتنعت بصواب رأي صديقها عندما عاتبها بلطف ذاك اليوم فقد اتّصلت به مرّات عديدة ومتباعدة ممّا أعطاه شحنة قويّة من العزيمة والتفاؤل وحبّ الحياة وتساءل بينه وبين نفسه كم هي بسيطة هذه الحركات، إرساليات التواصل، لكن كم هي مهمّة في الحياة فلا شيء أهمّ من الاهتمام في علاقات النّاس ببعضهم، فهو يسعد المزاج ويقوي المودّة والثقة بالآخر والتعلّق به ولا شيء أجمل في الحياة من الأخذ بالخاطر وجبره. "عش بالشّعور وللشّعور فإنّما دنياك كون عواطف وشعور." يقول أبوا لقاسم الشابي.

أما الدّكتور شهاب فقد انغمس في أجواء أخرى راقية لا تدخل السّياسة أنفها فيها. أجواء علميّة بحتة. أجواء البحوث والدّراسات والتعمّق في اختصاص الأمراض الجرثوميّة والجراثيم وأنواعها وأسبابها ومسبّباتها، في مستشفى سان جوزيف بباريس، وأخذته السّاعات والأيّام وأنسته في الدّكتورة وسالف الأحلام وكأنّها لم تكن إلا زميلة كبقية الزّميلات. بل لعلّه كان يتشوّق لمفاجأتها وإهدائها جديده وشهاداته العلميّة وأروع أبحاثه واكتشافاته...

كلما مرّ مجد بالعطّار أو الخضّار في المناسبات التي يمرّ فيها بهما الاّ وأنصت لمحاضرة لا تفهم أهي سياسيّة أم دينيّة أم اقتصاديّة عن الأوضاع الحاليّة وكيف أن الله سبحانه يعاقب مخلوقاته الذين ابتعدوا عن الدّين وانحرفوا عن تعاليم الإسلام في سلوكهم ومعاشهم وتصرّفاتهم وها إنّه يعاقبهم " بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثّمرات " فيبسمل و يحوقل ويضرب كفّا بكفّ ما أكثر هذه المحاضرات فحيثما تجمهر الناس وجدت من يلقيها حتّى في الشّوارع ولعلّ نتائجها عكسيّة في هذا الزّمن الرديء...

اتّصلت به الدّكتورة ليلا وأعلمته أنّ التلاقيح ستصل يوم غد وسيكون يوما مرهقا للمسؤولين والمشرفين على ذلك وحدثا كبيرا على مستوى كل الطبقات وحدثته كثيرا عمّا ينتظرهم من عمل مرهق كما أوصته بمواصلة الكتابة وترك الآثار المفيدة للأجيال القادمة، كل وتكوينه ومواهبه، هذا بالبحث وهذا بالتنسيق وذاك

بالتطبيق "لنؤرخ لهذه الفترة التي ربما لن تعرفها الأجيال القادمة كما أرّخ السابقون لنا" على حدّ قولها. كما طالبته بعدم الانزعاج إن غابت في الخضمّ...

أما صديقه فهمي فقد سكن الشّبكة العنكبوتيّة، يتواصل ليله ونهاره مع كل من هبّ ودبّ، مثرثرا، مستقطبا، ناصحا وينسى نفسه في بعض الأحيان متحوّلا إلى طبيب نفساني يحلّل ويستحضر "فرويد" وكلّ من عرف من المحلّلين النّفسيين عارضا خدماته المجانيّة على بعض مستخدمي الشبكة ممّن هم في حاجة لذلك. وكلما حل بالمنزل سبقته قولته المشهورة، يلزمها" دوش سخون" !

وهو يستمع لآخر الأنباء عبر مذياعه الرّفيق منذ زمن الدّراسة، أنصت مجد بدقّة لنشرة الأخبار: "وصلت اليوم الثلاثاء 9 مارس أوّل شحنة من لقاحات فيروس كورونا من نوع "سبوتنيك 5 " من روسيا تضم 30 ألف جرعة وكان ذلك على متن طائرة مدنيّة من الخطوط الجويّة الفرنسيّة.

تنهّد وقال: سجّل يا تاريخ البشرية ..

ثم واصل الاستماع: وستنطلق أولى عمليّات التّلقيح ضد فيروس كورونا المستجدّ في تونس يوم السّبت 13 مارس، وفق ما كشفه وزير الصحّة ، خلال إشرافه بمطار تونس قرطاج على تسلّم أوّل دفعة تلقيح متكوّنة من 30 ألف جرعة من اللقاح الرّوسي " سبوتنيكV (SPOUTNIK VACCIN) وقادمة من روسيا" مع العلم أن " هذه الدفعة ستمكّن من تلقيح 15 ألف منتفع من العاملين في الخط الأوّل في منظومة كوفيد 19 وكبار السّن والمصابين بأمراض مزمنة على أن تقع عمليّة تذكير لهم بعد 3 أسابيع."

وبحسب تقديرات أوّلية، فإنّ معدّل عمليّات التّلقيح في اليوم يمكن أن يصل إلى 250 ألف تلقيح يوميّا في كامل جهات البلاد حسب توفير الموارد البشريّة والمراكز الجهوية للتلقيح، حسب وزير الصّحة، الّذي رجح تحديد معدّل التلاقيح في اليوم خلال أسبوعين.

هذه التّلاقيح ينتظرها أغلب المحتاجين لها من المرضى وكبار السّنّ والمهدّدين بمخاطر الفيروس، بفارغ الصّبر، ويرون فيها إنقاذا لهم، ولو إرضاء لأنفسهم الملتاعة، ممّا يوتّر أعصابهم وأمزجتهم في حياتهم العاديّة.

في طريقه لقضاء بعض الشّؤون، لفت انتباهه بعض الضّجيج، أوقف سيّارته وسأل أحدهم ما الّذي يحدث؟ قيل له مروّج حبوب هلوسه وقع ضبطه في كمين. كان دائم التّجوّل صحبة كلبه سليل "مالينو البلجيكي" تلك الفصيلة من الكلاب الذكيّة وكان يخبّئ الحبوب الفتّاكة داخل جيوب كمّامه إذ لا يستطيع أحد الاقتراب منه...

مثل هذه الأحداث صار عاديّا في زمن أصبح كلّ شيء فيه غير عادي وتذكّر قصصا واقعيّة قرأها في الصحف عن آفة المخدّرات التي تنخر مجتمعاتنا.

الفصل الخامس عشر

صديقته غاصت في روتين اجتماعاتها وملفّات مرضاها ومتابعة زملائها وزميلاتها في التّحضير للتّلاقيح وتوزيع روزنامتها على مختلف المناطق ولم تعد تملك من الوقت إلا "مساء الخير" أو" ليلتك سعيدة" ومع ذلك فهو سعيد بما يأتيه منها ومعتزّ بما تقدّمه للمجموعة الوطنيّة وعمّا قريب تبدأ التّلاقيح في كامل ولايات الجمهوريّة مع ما يتطلّب ذلك من مجهودات جبّارة تبذل خاصّة على الصّعيد المركزي.

في هذا الصّدد تكتب دنيا حفصة بجريدة المغرب:[16] "ستنطلق بداية من يوم السبت 13 مارس عمليّة التلقيح المضاد لفيروس كورونا في كامل أنحاء الجمهورية.

و سيكون أول المنتفعين بالدفعة الأولى من اللقاح الروسي 15 ألف تونسي وهم العاملون في الخط الأول لمنظومة كوفيد من أبناء الصحة وكبار السنّ وبالتّحديد المتواجدين في دور المسنّين والمصابين بأمراض مزمنة .

و قد تمّ اختيار مراكز التلقيح وفق كرّاس الشّروط المعتمد من قبل المنظّمة العالميّة للصحّة وكلّ المراكز جاهزة لانطلاق عمليّة التلقيح وقد تمّ ضبط أسماء المنتفعين. تقول صديقته الدّكتورة .

وفي تقييم للوضع الوبائي، تم التّأكيد على أن هناك استقرارا في عدد الإصابات والوفيّات ولكن هناك مخاوف من عودة الارتفاع من جديد في ظلّ وجود حالات تسيّب خلال هذه الأيّام من المظاهرات والتجمّعات، الّتي تسبّب في تسارع انتشار

16 دنيا حفصه جريدة المغرب بتاريخ 12 /2021/03

العدوى إضافة إلى السّلالات الجديدة وبيّن مسؤول أنّ عمليّات التّقطيع الجيني متواصلة وإلى حدّ الآن تمّ تسجيل 4 إصابات بالسّلالة البريطانيّة مع وجود حالات اشتباه وما يمكن التّأكيد عليه هو أنّ السّلالة البريطانيّة موجودة في تونس وهي معروفة بخصوصيّة سرعة الانتشار لذلك وجب اتّخاذ كل الاحتياطات مع ضرورة الحذر واليقظة لتفادي انتشارها في البلاد."

ولم تلبث صديقته أن غابت في أعماق العاصمة وبدأت أخبارها تأتيه مقتضبة لكثرة انشغالها وما يصاحب ذلك من إرهاق وأتعاب وبدأ يظهر عليها التشنّج والقلق بعد أيّام مضنية امتلأت فيها المصحّات والمستشفيات بالمصابين بالفيروس اللّعين... وبدأت تداعبه الهواجس والتخيّلات...

أكادُ أَشُكُّ في نَفْسِي لأَنّي

أَكَادُ أَشُكُّ فيكَ وأَنْتَ مِنّي

.....

وَأنْتَ مُنَايَ أَجْمَعُهَا مَشَتْ بِي

إلَيْكَ خُطَى الشَّبَابِ المُطْمَئِنّ

.....

وَكَمْ طَافَتْ عَلَيَّ ظِلاَلُ شَكٍّ

أَقَضَّتْ مَضْجَعِي وَاسْتَعْبَدَتْنِي

كَأَنِّي طَافَ بِي رَكْبُ اللَيَالِي

يُحَدِّثُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا وَعَنِّي

عَلَى أَنِّي أُغَالِطُ فِيكَ سَمْعِي

وَتُبْصِرُ فِيكَ غَيْرَ الشَّكِّ عَيْنِي

وَمَا أَنَا بِالْمُصَدِّقِ فِيكَ قَوْلاً

وَلَكِنِّي شَقِيتُ بِحُسْنِ ظَنِّي

وَبِي مَمَّا يُسَاوِرُنِي كَثِيرٌ

مِنَ الشَّجَنِ الْمُؤَرِّقِ لاَ تَدَعْنِي

تُعَذَّبُ فِي لَهِيبِ الشَّكِّ رُوحِي

وَتَشْقَى بِالظُّنُونِ وَبِالتَّمَنِّي

قصيد غنّته المطربة أمّ كلثوم للأمير عبد الله الفيصل كان يردّده كلّما شرد عقله بعيدا وضاع ذهنه فيما لا يعني وانكمش قلبه تحت وطأة الصّمت وحامت الهواجس حول صدق مشاعرها وهي الغامضة النّائيّة البعيدة...

غير أنّه لمعالجة كلّ همومه ووساوسه، فقد ملأ وقت فراغه بمراجعة مخطوطات كتبه وإضافة ما يضاف وحذف ما يحذف علّه يتمكّن من طبعها قريبا بعد استقرار

الوضع وجنوح هذه الجائحة إلى الاستسلام ولو أنّه كان يتمنّى إلهامه بالمزيد من الأفكار والطّمأنينة وراحة البال وهدوئه.

وهو يطالع رواية " على ضفاف الدّمعة " للكاتب محّمد القدومي أعجبته فقرة منها فأرسلها لها إذ تعبّر فعلا عمّا يعتمل في أعماقه وهي الّتي تقول:

" أحببتك بقلبي لأنّه آخر ما تبقّى لي على قيد الحياة، وشعرت أنّه لا يليق بأحد سواك...

أحببتك بطيبتي، بعفويتي، بفطرتي الّتي ولدت عليها، حبّا نقيّا خاليا من أيّة شوائب أو مصالح...

عشقك التهم قلبي بقضمة.. لم أستطع منع نفسي عنك..

جميع أمنياتي التي تمنّيتها يوما، تشكّلت على هيئتك..

لم أكن أعرف أنّ للحبّ ملامح إلا حين رأيت وجهك، فكيف أبتعد عنك؟ وكيف أتخلّص منك؟

وأنا أحملك بداخلي... فأين المهرب منك؟

أشياؤك، ذكرياتك، أنفاسك جميعها تحاصرني، وأنا لست مجبولا من طين، أنا مجبول من حنين، مهما ابتعدت، أعود إليك وأنا مشبّع بشوقي لرؤيتك، فأنت تسكنين بي، وأسكن بك، ولا نسكن سويّا.."

لم تنقطع المراسلة بينهما رغم ظروف الشّغل لديها، فزملاؤها ضمن فريق من مختصّي قطاع الصحّة والذين مرّوا بتربّصات الحملة الوطنيّة للتّلقيح ضد جائحة كوفيد 19ومختلف ورشاتها يتواصلون معها ويتمركزون في قبّة المنزه وفي أريانه ومنّوبه وبنعروس وتتواصل نشاطاتهم يوميّا من الثّامنة إلى الخامسة للذين يفدون للقيام بالتلقيح أمّا الإطار الصحّي فيرابط هناك من السّابعة صباحا إلى السّادسة مساء فللوطن جنوده في كل السّاحات والميادين كلّما أطلّ عدوّ برأسه على هذه البلاد الغالية الثمينة...

وكان الدّكتور سمير عبد المؤمن، عضو خلية مكافحة فيروس كورونا، قد أكد أنه: "مع إطلاق حملة التطعيم، نجتاز مرحلة مهمة للغاية في مكافحة هذا الوباء. أصبح بإمكاننا أخيرا رؤية نهاية النفق.

وأضاف "سنبعث رسالة أمل إلى التونسيين وسنشجعهم على أخذ اللقاح" معربا عن سعادته لكونه من أوائل المستفيدين من سبوتنيك. وقال إن ذلك "يطمئنني في عملي ومع عائلتي" لكنّه أقر أن رغبة التّونسيين بالتطعيم لا تزال ضعيفة.

وقالت جليلة خليل، رئيسة وحدة العناية المركّزة في مستشفى عبد الرحمان مامي في العاصمة، "سنكون، نحن الاطار الطبّي، أقلّ توتّرا عندما نقترب من مريض كوفيد، وحتّى إذا أصبنا بالفيروس ستكون الأعراض أقلّ حدّة . و أضافت "إذا أردنا استئناف الحياة في حدّها الطبيعي، فسيتعيّن علينا القضاء نوعا ما على هذا الفيروس ولا يمكننا ذلك بدون التّطعيم. إنّها حقيقة لا ينبغي إنكارها، لذا علينا أخذ اللقاح إذا أردنا استئناف نشاطنا "

وتقول صديقته أنه تم رصد نسخة متحوّرة للفيروس في البلاد، لكن التّحليلات الأولى أظهرت أنه ليس أكثر خطورة أو عدوى من النّسخة الأصليّة، وفقا لمعهد باستور.

وبعدما بلغ تفشّي الوباء ذروته في شهر جانفي، تواصل البلاد تسجيل عشرات الوفيّات النّاجمة عن كوفيد-19 يوميّا.

هذا وتنطلق عمليّات التّلقيح ضد كوفيد 19 لفائدة كبار السنّ من المسجّلين في منصة ايفاكس، بعد استكمال عملية التلقيح لفائدة مهني الصحّة ، حسب ما أكّدته مستشارة وزير الصحّة، ايناس عيادي.

إنّه سعيد بها وبتواصلها وبعلاقتها الوطيدة معه، يؤرّخ لهما وللبلاد ولهذه الجائحة.

تواترت الأيام وتباطأت وبينما كانت مشغولة طوال الوقت تتابع الأوضاع من السّابعة صباحا إلى السّادسة مساء لتعود منهكة متوتّرة الأعصاب، لا لتريح جسمها المكدود، المنتصب وقوفا طوال اليوم، على أقرب أريكة بل لتواصل مهمّتها من طبخ وغسيل والردّ على الهاتف لمن يطلبها من العائلة والردّ على تعاليق الفايسبوك لنشاطها اليومي في ساحات الوغى وحرب الكوفيد، لتنام في بعض الأحيان على أريكتها في غفوة طويلة من شدة التعب والإرهاق... هذه هي صديقته التي أعجب وانشغل بها أما هو فاهتمّ بأعماله الإداريّة وأهداف الشّركة ومتابعة أخبار وتطوّرات جائحة الكورونا ناهيك عن القراءة والكتابة والإبداع وبعض أنشطة المجتمع المدني المريحة لتطلّعاته.

وهو يتجوّل قرب منطقة " بوحسينه" تذكّر " الدّواميس" فقرّر زيارتها وقد قرأ عنها مرّة[17] واكتشف ما لا يعرف. "كلّما جبت طرقات مدينة سوسة وخاصّة المنطقة الشمالية الغربية منها في منطقة "بو حسينة" خلف "جامع الغزالي" أغرق في تفاصيل الحياة وبناءاتها المتراصّة، لا أرى في هذا المكان خصوصيّة عمرانيّة تذكر بل منازل وشقق ومدارس وطرقات معبدة وضوضاء الحركة المرورية، وأرى وجوهًا واجمة كل في حال سبيله. غير أنني أقف هناك على مبنى كتب عليه "دواميس الراعي الطيب" وأقف على علامات تشير إلى مدخل الداموس. حاولت أن أتطلع إلى ما يخفيه هذا المبنى ولكن لم أستطع لكونه مغلقًا منذ سنوات لأعمال صيانة داخله. وصادف يومًا أن دخلت هذا المبنى الصّغير المؤثّث بعلامات وصور وبيانات ومجسّمات ودلائل عن تاريخيّة المكان. اكتشفت أنّني على أعتاب مدافن لمدينة سوسة القديمة أو "حضرموت" كما كان يسمّيها القدامى، بيني وبين أهل "حضر موت" باب حديدي صغير وسلالم قليلة ستكون سبيلي للنّزول إليهم والمرور عبر مئات الأمتار من الأروقة تحت الأرض. أمسكت الأنفاس في أولى سلالم النّزول، وكلّما نزلت درجًا إلا وغصت في الصّمت وكنت أقاوم مخاوفي من رهبة الموت فيتقطّع النّفس كلّما رأيت الهياكل العظميّة.

عندما تعبر الأروقة ترى المدافن المحفورة في الصّخر في شكل تجاويف في الحائط ويصل عدد القبور إلى أربعة فوق بعضها البعض، وفي كلّ قبر كانت الجثث تغطّى بطبقة من الجير وتكفّن لمنعها التعفّن، ثم يقع غلقها بألواح فخارية." ودارت بخلد

17 ماهر جعيدان (التراتونس).

مجد أفكار كثيرة هل هذه الآلاف المؤلفة من قبور القدامى أثر من آثار الجوائح التي نعانيها ؟!

الفصل السادس عشر

في بعض أحيان المدّ والجزر بينهما، تلك الفترات المبهمة المشوبة بظلال رماديّة، حيث غموض النّفس البشريّة، فكلّ شيء متى بلغ حدّه انقلب إلى ضدّه، تراوده أطياف أخرى لا لون ولا طعم لها ولا سبيل لردّها ويلهبه الشّوق فيرسل لها شعرا، يقول بدر شاكر السياب:

فرّ النَّهارُ من البيوتِ النَّائياتِ، إلَى السَّحاب

من شُرفةٍ زرقاءَ تَحلم بالكواكب و الضباب

من مقلتين على الطريق، ومقلتين على كتاب

الدربُ تحرقه النوافذُ والنجوم المُستسرّة

سكرانُ تزحمه الظلالُ وتشرب الأوهام خَمره

هيهات، لا تأتِي. وتَهمس (فيم تأتِي؟) شبهُ فكرة

قد أذكرتنِي مقلتاكِ رؤىً رسبنَ إلَى الظلامِ

زرقاءَ تسبح فِي ضبابٍ من شحوبٍ وابتسامِ

الليلةَ القمراءَ تركض بين أشباح الغمامِ

أفق يذوبُ على الحنين، يكاد يَغرقُ فِي صفائه

يطويه ظلٌّ من جناحِ، ضاع فيه صدى غنائه

أهدابك السوداء تَحملنِي، فأومض فِي انطفائه

من أنت ؟ سوف تمر أيامي وأنسجها ستارا

مات الفضاءُ، سوى بقايا من مصابيح الطريقِ

مبهورةِ الأضواء، تنضبُ فِي جداولَ من بريقِ

صفراء تخنقها الظلالُ على فم الليل العميقِ

فيمَ انتظاريَ كالفراغ؟ وفيمَ يأسي كالرمادِ ؟

لن يسمع الدربُ الملولُ (وإن أصاخَ) سوى فؤادِ

أماد فؤادك.. ويح نفسي! أين أنت؟ ومن أنادي ؟

ثم لا يلبث أن يعود إلى تصفّح ما كتب عن الجائحة، أو الخروج للتّسوّق واستقصاء الأخبار التي أهملها قسم الأخبار من السّوق والخضّار والعطّار وخاصّة صديقه " الناقوبه" فهمي فأخباره دائما طازجة جديدة متجدّدة.

قال فهمي وهو يتصفّح هاتفه الذكيّ : [18] " تفشت جرائم اقتحام البنوك والمؤسّسات المصرفيّة في تونس بشكل غير مسبوق خلال الأشهر الأخيرة وصارت بمثابة الكابوس الذي يؤرّق السّلطات الأمنيّة والقضائيّة ويستنفر الجهات الحكوميّة التي تسعى

18 اقتحام البنوك والسطو في تونس "كابوس "يؤرق الأمن(transparencynews.com)

دون جدوى لوضع حد للظاهرة وتشديد المراقبة لحماية تلك المؤسسات من أن تطالها أيدي اللصوص وعصابات نهب أموال البنوك .

وخلال الأشهر الماضية شكّلت أخبار جرائم السّطو على البنوك إمّا عن طريق خلع أبوابها والاستيلاء على الأموال أو عبر مداهمات مكاتب البنوك وتهديد العاملين فيها بالسّلاح لنهب خزائنها، بمثابة المادّة الأسبوعيّة التي تتصدّر الصّفحات الأولى للصّحف التونسيّة والمواقع الإخباريّة حيث أصبحت عناوين مثل "اقتحام فرع بنكي وتهديد الموظّفين بسلاح ونهب عشرات الملايين" أمرا متواترا في البلاد.

وكشفت السّلطات الأمنيّة في ولاية قفصة (جنوب البلاد) عن تعرّض إحدى المؤسّسات البنكيّة في الجهة إلى عمليّة مداهمة وسطو على الأموال وذلك يوم الخميس 8 ديسمبر مضيفة أن شخصا ملثّما داهم مكتب البنك وهدّد الموظّفين والأعوان ببندقية صيد قبل أن يستولي بالقوّة على مبلغ مالي ثم يلوذ بالفرار.

ولم تكن تلك العمليّة هي الأولى من نوعها في سياق جرائم مداهمة البنوك والسّطو على الأموال ولكنها تبدو امتدادا لظاهرة استفحلت بشكل غير مسبوق، ففي شهر تشرين الأول الماضي تعرّض فرع بنكي بمنطقة الزّهروني بأحواز العاصمة تونس، إلى عملية مداهمة انتهت بخلع بابه الأمامي ونهب جزء من محتوياته، وبحسب الأبحاث التي كشفت عنها الأجهزة الأمنيّة، فإنّ مجهولين عمدوا ليلا إلى رشق فرع بنكي تابع

لمؤسّسة مصرفية خاصّة بالحجارة قبل أن يتمّ تهشيم بلّوره الخارجي وخلع الباب الأمامي والولوج إلى الدّاخل وتهشيم جزء من محتويات البنك ونهب جزء آخر.

لم يقطع حديثه مجد بل تركه مسترسلا مع أنّه قرأ الكثير عن جرائم السّطو و"البراكاجات" والخطف والنطر والحيلة والاحتيال هذه الأيّام..

واصل فهمي: وفي العام 2021، تعرّض فرع بنكي بولاية بن عروس، جنوب العاصمة تونس، إلى عمليّة سرقة لمبلغ مالي إثر اقتحامه من مجموعة من اللصوص.

وكشفت مصادر من وزارة الدّاخلية آنذاك أن عمليّة سرقة المبلغ المالي من الفرع البنكي تمت "بصفة منظمة"، مشيرا إلى أن مرتكبي عمليّة السّرقة قاموا بقطع الأسلاك الكهربائيّة لكاميرات المراقبة وجهاز الإنذار، كما تمكّن مرتكبو عملية السّرقة من التوغّل داخل مقرّ الفرع البنكي إثر ثقب جداره بعد أن قاموا بقطع الكهرباء ثم ثقبوا خزينة البنك واستولوا على المبلغ المالي الموجود بداخلها، حسب وزارة الداخليّة الّتي لم تكشف عن قيمة المبالغ الّتي تمّ السّطو عليها.

وكشف محمّد علي الرّزقي الكاتب العام لنقابة الأمن الجمهوري في تونس أن الظاهرة تعود أساسا لتفشّي ظاهرة البطالة والفقر والتّهميش التي يعيشها الكثير من التّونسيين.

وقال الرّزقي في حديثة لموقع سكاي نيوز عربيّة: "بات من الواضح أن ظاهرة السّطو المسلّح على البنوك وعمليّات المداهمة تنطلق عبر التّخطيط للجريمة أوّلا من خلال محاكاة بعض الأفلام الغربيّة، ثم يكون تنفيذ العمليّات بمداهمات جماعيّة بحسب قوله.

وتابع: "الحد من الظاهرة يستوجب تشديد المراقبة على سيّارات نقل أموال البنوك، مشيرا إلى أن كلّ الفروع المصرفّية في تونس مؤمنة من قبل أجهزة الشّرطة القريبة منها، لكن ذلك لم يمنع من حصول عمليّات مداهمة تصدّت لها الوحدات الأمنيّة بمجرّد إخطارها بالشّروع في الجريمة.

وتواصلت الظّاهرة بشكل لم يعد حكرا على مناطق دون أخرى، إذ تعرّض فرع بنكي بمنطقة أريانة (شمال العاصمة)، في شهر يوليو/تموز إلى عمليّة سطو من طرف شخص ملثّم تولى الاستيلاء على مبلغ مالي بواسطة التّهديد بمسدّس بلاستيكي، وقالت الجهات الأمنيّة آنذاك إنّها قامت بتعقّب المتّهم وإلقاء القبض عليه، فيما لم تحدّد أيضا قيمة المبالغ المستولى عليها.

وبجانب عمليّات الاقتحام، شهدت إحدى المؤسّسات المصرفيّة، عمليّة سطو نفذها عون مكلف بحراسة سيارة لنقل الأموال إلى أحد البنوك حين استولى على مبلغ 100 ألف دينار (30 ألف دولار) قبل أن يتم إلقاء القبض عليه بعد أسبوع من الحادثة وحجز الأموال المنهوبة. وفسّر الصّحفي والمحلّل السّياسي والاجتماعي مراد علالة تفشّي ظاهرة اقتحام البنوك والمصارف والسّطو المسلّح عليها بالرّغبة في الرّبح

اليسير والحصول على الأموال دون تقدير عواقب الطّريقة الّتي يعمد إليها البعض لذلك.

وقال مراد علاّلة في تصريحات لسكاي نيوز عربيّة: "اليوم أصبح الحصول على المال بقطع النّظر عن الطّريقة هو الدّافع وراء ارتكاب مثل هذه الجرائم، هو شكل مختلف عن بقيّة أشكال الرّبح المادّي والبحث عن الثّراء بأقصر الطّرق، ولكنّها طريقة لها تداعياتها ونتائجها المحفوفة بالتّبعات القضائيّة، هناك رغبة في الحصول على المال كيفما اتّفق ودون تقدير للعواقب القانونيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة لمثل هذه الأصناف من الجريمة."

وتابع المتحدّث: "الأسباب الّتي تدفع الشّباب أو حتّى الكهول لإتيان مثل هذه الجرائم تتمحور أساسا حول الحاجة الماسّة للمال، وانسداد الآفاق الاجتماعيّة والمهنيّة أمام هؤلاء، لا فرق اليوم بين من يقتحم بنكا للسّطو المسلّح على المال، وبين من يرمي بنفسه في قوارب الهجرة غير الشّرعيّة نحو أوروبا، ففي النّهاية العمليّة ناتجة عن حالة من اليأس وانسداد الآفاق يتخبّط فيها هؤلاء".

ويشير في حديثه للموقع إلى أنّ "هناك حالة من التّطبيع مع الجريمة والاستهانة بعواقبها، لا يمكن لهذه الظّاهرة إلا أن تفسّر بالتّطبيع مع الجريمة وهي ظاهرة أيضا تفشّت بكثرة في البلاد.."

وانطلقا في نقاش متواصل وكلّ يحدّث صاحبه بما قرأه أو سمعه عن هذه الجرائم في حين وصلت مجد إرساليّة من صديقته الدّكتورة قرأ فحواها على صاحبه:".

" أكّدت المديرة العامة للمرصد الوطني للأمراض الجديدة والمستجدّة نصاف بن عليّة، أنّ الوضع الوبائي في تونس خلال الأسابيع الماضيّة يتميّز باستقرار، حيث شهدت البلاد تراجع عدد الإصابات وعدد الوفيّات." وهو ما يبعث على التّفاؤل.

وأشارت بن عليّة في الآن ذاته إلى "أنّ السّلالة الجديدة انتشرت في العديد من المناطق، على غرار مدينة الكريب الّتي تعمل مصالح وزارة الصحة جاهدةً على تطويقها "، حسب قولها.

وأكّدت" أنّ الرّهان في تونس حاليّاً يتمثّل في السّيطرة على هذه السّلالة وتطويقها حتى لا تتسبّب في موجة ثالثة، مشدّدةً على ضرورة التّسريع في عمليّة التّلقيح خاصّة وأنّ مستوى انتشار الس لالة البريطانيّة مازال منخفضاً."

يضيف مجد، ورغم كلّ الصّعوبات يبقى قطاع الدّواء في تونس قطاعا مشغلا حيث فيه أكثر من خمسين ألف عامل ما بين صناعة وتوزيع بالجملة أو التّفصيل، كما أن هناك 11 ألف عامل في القطاع الصّناعي والباقي في المسالك الأخرى. وهو مشغل ليد عاملة مختصّة وذات كفاءة عالية مشهود بها عالميّا خاصّة وأنّ البلد يشكو من بطالة مرتفعة لدى أصحاب الشّهادات العليا يقول أهل الاختصاص.

وهو مع صديقه يطالع الصّحف اليوميّة لمزيد الإلمام بواقع البلاد لفت انتباهه مقال بجريدة المغرب يتحدّث عن كتاب الرّئيس السّابق لمجلس نوّاب الشّعب محمّد النّاصر، تحدث فيه عن سيرته الذّاتية ومذكّراته وأسرار المناصب الّتي مرّ بها في الدّولة، والصّادر تحت عنوان «جمهوريتان.. تونس واحدة. »

ونقلت صحيفة الشّارع المغاربي، المقتطف الّذي تحدّث فيه عن يوم 27 جوان 2019 والّذي شهدت خلاله تونس عمليّة إرهابيّة في قلب شارع الحبيب بورقيبة، ونقل فيه رئيس الجمهوريّة آنذاك الباجي قائد السّبسي إلى المستشفى العسكري بعد تعكّر حالته الصّحّيّة.

وهذا جدير بالتوثيق...

إذ قال رئيس البرلمان السّابق، "إنّه انتقل لجبل الوسط بمدينة زغوان، بعد حالة الإرهاق التي تعرّض لها بسبب ارتفاع نسق العمل بالبرلمان حينها، كما تعرّض إلى وعكة صحّيّة أثناء إقامته بزغوان، تطلبّت نقله إلى المصحّة، لكن تبيّن أنّه لا يشكو من أيّ مرض وبحاجة للرّاحة فقط، ما دفعه للعودة إلى عمله بعد نهاية الأسبوع أو ما يوافق يوم 1 جويلية 2019.

وكشف انّه يوم الخميس الأسود أي يوم 27 جوان تمّ إعلامه عن طريق أحد المكلّفين بتأمين حمايته من الأمن الرّئاسي بأنّ عمليّة إرهابيّة جدّت في العاصمة وأنّه علم قبلها عن طريق إرساليّة من وزير الدفاع الوطني انّه تمّ نقل رئيس الجمهوريّة الباجي قائد السّبسي إلى المستشفى العسكري..

وفي نفس اليوم، قال انّ مدير ديوانه اتّصل به هاتفيّا واعلمه بأنّه لاحظ تحرّكات غير عاديّة في صفوف النّواب وتجمّعا أمام مكتب النّائب الأوّل لرئيس البرلمان، وانّه

في نفس الوقت تقريبا ابلغه وزير الدّفاع الوطني آنذاك أبو بكر الزبيدي رسالة يطلب فيها منه العودة لمباشرة نشاطه في أقرب وقت ممكن كرئيس للبرلمان.

وأكّد النّاصر ان ذلك ما حصل فعلا وانّه لمّا كان في طريقه إلى قصر باردو هاتفه النّائب الأوّل لرئيس مجلس النّواب عبد الفتّاح مورو وانّه اعلمه بعد سؤاله عن حالته الصحّية، بأنّ بعض "الزّملاء النّواب" طلبوا عقد اجتماع عاجل لمكتب المجلس وانّ مورو لم يفصح عن أيّ شيء آخر لا عن موضوع الاجتماع ولا عن سببه.

وأبرز انّه رد على مورو بالتأكيد على أنّه في طريقه إلى مجلس نواب الشّعب وانّه دعاه بألّا يُقدموا على أيّ شيء قبل وصوله.

وكشف النّاصر انّه فوجئ لدى وصوله وتحديدا أمام بهو مكتبه بتجمّع غير مسبوق من نوّاب ينتمون في غالبيتهم لكتلتي النّهضة وتحيا تونس وانّه لم ير من قبل مثل ذلك التجمّع مشيرا إلى انّه لاحظ استغرابهم من قدومه ومن عودته متعافيا وفي صحّة جيّدة.

وقال ان ما زاد في استغرابه انّ عددا من النّواب كانوا مرفوقين بنسخ من الدّستور.

وأبرز أنّ عدّة تساؤلات جالت بخاطره وقتها حول سبب تجمّعهم غير العادي وعن نواياهم وعن سبب حملهم نسخ من الدّستور وعن سبب استغرابهم من مشاهدته في صحّة جيدة.

وأكّد انّ كلّ الأسئلة جالت بخاطره وهو يصافحهم الواحد تلو الأخر مستدركا بالتّشديد على انّه تجنّب مطالبتهم بأيّة توضيحات بخصوص وجودهم وانّه تظاهر بعدم ملاحظة أيّ شيء غريب وغير عادي على وجوههم وفي تجمّعهم أمام مكتب

نائب رئيس البرلمان وانّه شكرهم على حرارة الاستقبال وعلى حرصهم على وضعه الصحّي.

ولفت إلى انّه فهم ان حضوره غير المنتظر وهو في صحّة جيّدة فاجأ وضايق العدد الكبير من النّواب الذين كانوا متجمّعين أمام مكتب مورو وانّه فهم أيضا انّ لحضورهم علاقة بتطبيق فصول من الدّستور.

وشدّد على انّ الزّبيدي أكّد له فيما بعد ان هدف نوّاب النّهضة وتحيا تونس كان عقد جلسة عامّة استثنائيّة خارقة للعادة لإقرار الشّغور في منصب رئيس الجمهوريّة نتيجة وضعه الصحّي وتعويضه برئيس الحكومة آنذاك يوسف الشّاهد استنادا إلى الفصل 84 مذكّرا بنصّه.

في سياق متّصل ذكّر بأنه في غياب المحكمة الدّستورية كانت لمجلس نواب الشعب باعتباره مؤسسة سيادية كل الصلاحية لإقرار الشغور الوقتي في منصب رئاسة الجمهورية.

ولفت في كتابه إلى انّه كان بإمكان يوسف الشّاهد باعتبار انّه يملك الأغلبيّة المطلقة في مجلس النّواب الصّعود مؤقّتا دون أيّة صعوبة إلى منصب رئيس الجمهوريّة مرجّحا ان يكون هذا هو السيناريو الذي فكّر فيه نوّاب الأغلبية (النهضة وتحيا تونس) والذي قال ان حضوره المفاجئ يومها أجهضه مشيرا إلى أن استنتاجه يبقى فرضية لا غير.

وقال انّه اتّصل فيما بعد بوزير الدّفاع أبو بكر الزبيدي للاستفسار عن صحّة رئيس الجمهوريّة وأنّ الزّبيدي طمأنه عليها وطلب منه أيضا ان ينقل للنّواب تحيّات رئيس الجمهوريّة.

وأبرز انه عقد بعد ذلك اجتماعا لمكتب المجلس وانّه نقل لأعضائه تحيّات رئيس الجمهوريّة وانه طمأنهم على صحّته مؤكّدا انّه لم يتمّ التطرّق خلال الاجتماع إلى أسباب حضورهم المكثّف والمفاجئ."

والوضع على ما هو عليه سياسيّا واقتصاديّا واجتماعيّا والتّشرذم الحاصل في مجلس النّواب ذاته وبين الرئاسيّات الثلاث زاد من الطّين بلّة.

دستور على المقاس، ورئاسات ثلاث تخنق الأنفاس وأحزاب كقصّة الغراب والثعلب تنتظر الفرصة لالتقاط الجبنة وتضرب الأخماس في الأسداس... علّق الصديق ساخرا.

ونحن نتحدث عن توثيق الفترة للأجيال:

" يتحدث مهندس عمليّة باب سويقه في تسعينات القرن الماضي "فيفري 1991" لإذاعة شمس. ف. م عن أسرار تلك الفترة بكلّ ما فيها من غموض فتزيد النّار اشتعالا والتشنّج السّياسي لدى فئة كبيرة من المجتمع.

يقول كريم عبد السّلام العقل المدبّر لعمليّة باب سويقه كما جاء في احدى الجرائد:[19] "عن المسارات التي دخلت فيها النّهضة بعد عمليّة باب سويقة، منها تصنيع الأسلحة والخطة الاستثنائية التي قال انّ القيادي السّابق بحركة النّهضة عبد الحميد الجلاصي قد قادها .

واعتبر عبد السلام ان أوّل رجّة حقيقيّة عاشها هو البيان الصّادر عن عبد الفتاح مورو وفاضل البلدي إثر عمليّة باب سويقة والّذي أعلنا فيه عن تجميد عضويتهما

19 الشارع المغاربي 21 مارس 2021

في الحركة مذكّرا بانّ نور الدّين البحيري التحق بمورو والبلدي وجمّد بدوره عضويته في الحركة.

وقال انّ البيان كان بالنّسبة اليه بمثابة خيانة وهو الّذي كان في حزب يمثّل طائفة تسير بالولاء والبراء المطلق مشدّدا على انّ البيان كان بمثابة تنصّل من المسؤوليّة من جماعة قامت بالدمغجة ودفعت للمواجهة مع النظام.

وكشف ان البيان وُصف داخل قواعد الحركة خلال تلك الفترة ببيان الدّم وانّه شرّع لبن على تنفيذ أحكام الإعدام في حقّ منفّذي عمليّة باب سويقة.

واستغرب عبد السّلام في شهادته الّتي قدّمها لبرنامج "انترفيو" مع شاكر بسباس على إذاعة " شمس.ف.م" من صمت فاضل البلدي عن الإدلاء بشهادته ملمّحا إلى انّه محلّ مقايضة داخل الحركة بملفّات.

واكّد انّه طرح بعد العمليّة من قبل عبد الفتاح مورو تأسيس "حزب الشّعب" لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تنظيم الحركة.

وكشف انّه بعد عمليّة باب سويقة، انخرطت النّهضة في عمليّة تجميع الأسلحة معتبرا ان الحركة استفادت تكتيكيّا من حالة الفزع التي قال ان عمليّة باب سويقة خلّفتها داخل النظام.

وذكر ان "الخطّة الاستثنائيّة" كانت اهمّ ما ميّز مرحلة ما بعد عمليّة باب سويقة وان النّهضة حدّدت فيها ضوابط أهمّها "لا للقتل ولا لماء الفرق."

وقال ان هذه الخطة التي أكد ان القيادي عبد الحميد الجلاصي هو من قادها كانت تنص على حرق مؤسسات التربية العمومية والدفع نحو العصيان ونحو سنة بيضاء وأنها خلّفت وراءها ضحايا من تلاميذ ومن عائلات سحقت بالكامل.

وأبرز انه في تلك الفترة، انطلقت ما اسماها بـ" مجموعات السّلاح" وانّها كانت أساسا متمركزة في صفاقس والمروج والجنوب.

واكد انّ النّهضة انطلقت في تصنيع الأسلحة بآليات محليّة وأنّها قامت بتجميع أسلحة من عهد الاستعمار كانت جلّها في الجنوب.

وكشف انه تمّ القاء القبض عليه أواخر شهر سبتمبر 1991 في صفاقس وانّه خلال فترة الهروب من النّظام وقفت إلى جانبه شقيقة مومس قال إنّها شكّلت عاصفة نفسيّة في حياته ، وأن المومس كانت عشيقة والده وأنّها كانت وراء دفعه إلى الاتّجاه الإسلامي ، وفق روايته الّتي قدّمها في الجزء الأوّل من شهادته.

وذكر بانه تمّ إيقافه ضمن الإيقافات التي شملت جماعات الأسلحة وانّ الأمني الذي قام بإيقافه أكّد له انّ لذّة إيقافه تضاهي لذّة إيقاف الغنّوشي مشيرا إلى انّ التّحقيق معه تمّ بشكل سرّي بالنّظر إلى سنّه (17 سنة) الذي قال انّه يمثل إشكالا أخلاقيّا للنّظام وأيضا للنّهضة وانّه يمسّ من صورة حزبي النّهضة والتجمّع على حدّ سواء.

وقال إنّه خلال التّحقيق تمّت مطالبته بالكشف عن مخابئ الأسلحة مؤكّدا انّه لم ينخرط في هذه الخطّة وانّه لم تكن له معلومات لتقديمها.

وأبرز انّ إيقافه تم خلال فترة التّسليح معتبرا أنّها الفترة الأخطر مؤكّدا انّ أبو بكر الهاروني والعجمي الوريمي وعبد الحميد الجلاصي والحبيب اللّوز هم من قادوا هذه المرحلة.

واتّهم الرّباعي المذكور بالدّفع الأقصى لتنفيذ الخطّة الاستثنائيّة عبر تجميع الأسلحة وكلّ ما تطال اليد لاستهداف المقرّات الأمنيّة والسّيادية استعدادا للقيام بعمليّة عسكريّة عبر الجهاز الخاص على شاكلة محاولة الانقلاب التي تمّ الإعداد لها وكانت مبرمجة ليوم 8 نوفمبر 1987 وحال انقلاب 7 نوفمبر دون تنفيذها.

وتحدّى عبد السلام وجود تصريحات لمدير عام الأمن الوطني خلال تلك الفترة يقول فيها ان عمليّة باب سويقة من تنفيذ النّظام مؤكّدا انّ ما يُتداول بخصوص هذه التّصريحات محاولات للطّمس وأنّها لم ترد على لسان القنزوعي وانّ الهدف منها التّسويق إلى ان عمليّة باب سويقة هي عمليّة اختراق من النّظام."

أحداث وفقاقيع إعلاميّة تبرز من حين لآخر فتغطّي ليوم أو بضع يوم عن أحداث السّاعة إلهامّة وتلهي المواطن عن مشاغله الحقيقيّة التي يتخبّط فيها لكن سرعان ما يعود إليها مهما كان حجم الأخبار ومستوى مصداقيتها.

وهو يواصل البحث والتّدقيق عما كتبته صحافة اليوم في اتّجاهات متنوّعة منها مقاومة جائحة الكوفيد 19 هذه الجبهة التي تناضل فيها صديقته الدّكتورة سواء أكان بحثا على الميدان أو تلقيحا مباشرا، تصله الأصداء عما تبثّه وتنشره وسائل الإعلام عن آخر التطوّرات. في اتّصال منها أعلمته بأنّ مجموعة من منتسبي الصحّة العموميّة انخرطوا في بحث ميداني بالشّراكة مع معهد باستور حيث يتّصلون

بالمتساكنين في منازلهم والقيام بتحاليل تمكّنهم من التعمّق في دراساتهم حول المناعة المكتسبة أثر هذه الجائحة ومدى تأثيرها فيهم. وفيما بعد بينت هذه الدراسة أنّ ثلاثين بالمائة من السكان حسب العينات التي تمّ تحليلها لهم مناعة طبيعية ضد هذا الفيروس.

أعجب بطبيب تونسي مهاجر عثر ،هذه الأيام، صدفة على كتاباته حول عالم الجراثيم ومنها الكوفيد 19، بحوثه واكتشافاته وقد كتبت عنه أشهر الصّحف والمجلّات العالمية المتخصّصة وقرّر أن يحدّث عنه صديقته الدّكتورة علّها تستأنس بكتاباته وبحوثه.

والحياة لا تستقرّ على شيء لا لذّاتها ولا متعها، لا لياليها ولا أيّامها، لا شقاؤها ولا نعيمها هي هكذا منذ الزّمن السّرمد هكذا يقول مجد دائما...

كان يستمع لكلمات الأغنية الجميلة التي أبدعت كوكب الشّرق أمّ كلثوم في أدائها ويمنّي النّفس برؤية الدّكتورة ، أغدا ألقاك ؟

أغدا القاك

أغداً ألقاك يا خوف فؤادي من غدِ

يا لشوقي واحتراقي في انتظار الموعد

آه كم أخشى غدي هذا وأرجوه اقترابا

كنت أستدنيه لكن هبته لما أنابَ

وأهلّت فرحة القرب به حين استجابا

هكذا أحتمل العمر نعيماً وعذابا

مهجة حرّى وقلباً مسّه الشّوق فذابا

أغداً ألقاك

أنت يا جنّة حبّي واشتياقي وجنوني

أنت يا قبلة روحي وانطلاقي وشجوني

أغداً تشرق أضواؤك في ليل عيوني

آه من فرحة أحلامي ومن خوف ظنوني

كم أناديك وفي لحني حنين ودعاء

يا رجائي أنا كم عذّبني طول الرّجاء

أنا لو لا أنت لم أحفل بمن راح وجاء

أنا أحيا لغدِ الآن بأحلام اللقاء

فأت او لا تأتي او فافعل بقلبي ما تشاء

أغداً ألقاك

هذه الدّنيا كتابٌ أنت فيه الفكر

هذه الدّنيا ليالٍ أنت فيها العمر

هذه الدّنيا عيونٌ أنت فيها البصر

هذه الدّنيا سماءٌ أنت فيها القمر

فارحم القلب الذي يصبو إليك

فغداً تملكه بين يديك

وغداً تأتلق الجنّة أنهاراً وظلاّ

وغداً ننسى فلا نأسى على ماضٍ تولّى

وغداً نزهو فلا نعرف للغيب محلاّ

وغداً للحاضر الزّاهر نحيا ليس إلاّ

قد يكون الغيب حلواً.. إنّما الحاضر أحلى

أغداً ألقاك

أغدا ألقاك ؟

أمنية راودته منذ عيد الحبّ، تمنّى أن يلتقي بها ويراها لحما ودما وربّما ينطلق معها في البناء لمستقبل زاهر سعيد يجمعهما في عشّ واحد وحياة مشتركة، تحت سقف واحد، ليهنأ بها وتهنأ به وهي الطبيبة المتميّزة وهو المدير التّجاري بإحدى أهمّ الشّركات المنتجة للأدوية بالسّاحل أو على الأقلّ لبناء صداقة راقية دائمة. لكنّ الظّروف لا تشجّع على ذلك البتّة في انتظار أن تخفّ وطأة الكورونا هذا الكوفيد الذي يتطوّر ويتجدّد.

فقد أكّدت جليلة بن خليل عضوة اللّجنة العلميّة لمجابهة فيروس كورونا ا[20] أنّ تونس مازالت في الموجة الثانية من وباء كورونا مستندة في ذلك إلى عدم تسجيل انخفاض كبير في عدد الإصابات والوفيّات مشدّدا على أنّ شهر رمضان لن يكون مثل السّنوات الأخيرة.

وعن السّلالات الجديدة من فيروس كورونا قالت جليله بن خليل "السّلالات الجيّدة تخيفنا ويجب التّسريع في تلقيح التّونسيين" مشيرة إلى انّه سيتمّ غلق كلّ منطقة يتمّ فيها تسجيل إصابات بالسّلالات الجديدة بالإضافة إلى إقرار الحجْر الصّحّي الشّامل ومنع الأسواق والقيام بعمليّات تقصّي كبيرة.

وفي حديث له مع صديقته الدّكتورة أضافت "يتمّ حصر كل ولاية يتمّ فيها تسجيل إصابات بالسّلالات الجديدة ويجب الالتزام بالإجراءات مع الغلق وعلى المواطن ان يكون مسؤولا أيضا."

وحول توصيات اللّجنة العلميّة لفصل الصّيف والموسم السّياحي قالت له: "المبادئ الكبرى تبقى نفسها... غسل اليدين وحمل الكمّامة واحترام التّباعد الجسدي وتجنب التجمعات...حتى بعد إجراء التلقيح يجب حمل الكمّامة للحماية ولا شيء يقي المواطن بقدر الكمّامة."

وتابعت" يجب ان يصل التلقيح للعاملين في القطاع السّياحي" مؤكّدة "مازلنا في الموجة الثانية من انتشار فيروس كورونا... يجب ان ننتبه على أنفسنا "وكل حد يستحفظ على روحو"...

20 الشارع المغاربي بتاريخ 30 مارس 2021

مرّت عشرة أيّام تقريبا وعدد الوفيّات بقي في نفس المستوى وحسب اعتقادي الشّخصي فإنّ شهر رمضان لن يكون عاديا مثل السّنوات الأخيرة وأفضّل أن يتمّ الإبقاء على قرار حظْر الجولان ...

"مازلنا لم ندرس المسألة، مضيفة، السّلالة البريطانيّة هي الأكثر انتشارا والتّلقيح فعّال معها."

هذه الجائحة تخبط خبط عشواء في المدن والقرى وحتّى الأرياف، في الدّول الصّغيرة الفقيرة كما في الدّول الكبيرة الثريّة الغنيّة فهي لا تفرّق بين هذا وذاك، لا السنّ ولا الجنس ولا اللّون ولا الجاه، لا الفقير ولا الغنيّ، تخبط خبط عشواء، تصل الليل بالنهار والنهار بالليل والكلّ في غمّ وهمّ. و ليسجّل التّاريخ ذلك !

صديقته ضمن الإطار الطبي الناشط بإحدى المصحّات لا تزال في حركة دؤوبة يستقرؤون انتشار الفيروس ومتابعة البحوث العلميّة الدّقيقة ولم تجد الوقت لمدّه بالمرجع الّذي وعدته به فما يأخذ كامل أوقاتها له من الأهميّة في حياة النّاس، هؤلاء الذين أخذ منهم الخوف مأخذه، اشتعلت نار الأسعار في جيوبهم، ولوّن مستقبلهم بألوان رماديّة حزينة بائسة

الفصل السابع عشر

مدينة سوسة تبهره وتلهمه فهي من المدن السّياحيّة المهمّة في تونس؛ حيث تستقبل كل عام حوالي أكثر من مليون ونصف سائح سنويّاً، وأيضاً تساهم بشكل كبير في مردود دخل السّياحة لتونس الذي يبلغ حوالي 1.5 مليار يورو، ومن عوامل الجذب السّياحي التي تحتويها المدينة الشّواطئ، ومناخها الملائم، والبنية التحتية المجهّزة لاستقبال السائحين، كما أنّها تمتاز بشواطئها الدافئة، وفنادقها ذات الخدمة المتميّزة والسّريعة، وأبنيتها الأثريّة والتاريخيّة من العصر الفينيقيّ حتى العصر الإسلامي، وأيضاً تتنوّع السّياحة فيها بين السّياحة العلاجيّة، وسياحة المؤتمرات، والسّياحة العلاجية، والسّياحة الترفيهيّة، والسّياحة التسويقيّة، وأكثر السّائحين الزّائرين لها قادمين من ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا زد على الأشقاء والأجوار... وقد أحبّ هذه المدينة بل عشقها حدّ النّخاع مذ وطئ ترابها لأوّل مرّة. .

الدّكتورة نون من المعجبات بها أيضا كانت تزورها باستمرار لمّا كانت طالبة بالمنستير، كما أنّها معجبة جدّا بالشّاعرة سعاد الصبّاح، ذات سهرة أرسلت له بهذا القصيد تتساءل بين سطوره عما تساءلت عنه الشّاعرة الكبيرة:

قل لي

هل أحببت امرأة قبلي؟

تفقد، حين تكون بحالة حبّ

نور العقل ...؟

قل لي. قل لي

كيف تصير المرأة حين تحبّ

شجيرة فلّ؟

قل لي

كيف يكون الشّبه الصّارخ

بين الأصل، وبين الظلّ

بين العين، وبين الكحل؟

كيف تصير امرأة عن

عاشقها

نسخة حبّ.. طبق الأصل؟

قل لي لغة

لم تسمعها امرأة غيري

خذني.. نحو جزيرة حبّ

لم يسكنها أحد غيري

خذني نحو كلام خلف

حدود الشّعر

قل لي: إنّي الحبّ الأوّل

قل لي: إنّي الوعد الأوّل

قطّر ماء حنانك في أذنيّا

ازرع قمراً في عينيّا

فتّش.. فتّش في أرجاء

الأرض فما في العالم أنثى

مثلي

أنت حبيبي. لا تتركني

أشرب صبري مثل النّخل

إنّي أنت

فكيف أفرّق

بين الظلّ وبين الأصل

أسعدته هذه الأبيات فكم تمنّى في أعماقه أن تكون صديقته الطّبيبة الذّواقة للشّعر والأدب ونفائس الكتب، له وحده، رغم الوقت الضّيق الّذي يرهقها ويخنق أنفاسها في البحوث والاطّلاع والعمل على إنقاذ إنسانيّة الإنسان وصحّته. استغلّ الفرصة ليعلمها باكتشافه ويرسل لها تلك المقالات الطّبيّة المختصّة التي كتبها

الدّكتور شهاب الطبيب التّونسي المهاجر وكان خالي البال والذّهن عن أيّة علاقة له مع صديقته الدّكتورة .

قال لها: " اليوم أزفّ لك خبر اكتشافي لطبيب تونسي يعمل بفرنسا وأمدّك بروابط بعض كتابته ومقالاته...

وللوهلة الأولى أجابته: " ما اسمه؟ "

أجابها الأستاذ الدّكتور شهاب، تونسي، اختصاصي في الأمراض الجرثوميّة والطبّ الباطني بالمستشفى الباريسي الشّهير سان جوزيف. و لم يكن يدري أنّه بهذا رجّها رجّة كبرى لم تكن لتتحمّلها لولا أنّها وحيدة في غرفتها.. وأنّه قد وضع إصبعه على الجرح العميق النّازف المؤلم ووضع حدّا لأحلامه الورديّة!

الفصل الثامن عشر

ذات يوم وشهر رمضان المعظّم على الأبواب وصلته منها رسالة سريعة تعلمه فيها بتعرّضها لحادث مرور وهي في طريقها لأخذ بعض العّينات من تحاليل مرضاها ضحايا الجائحة التي ربضت بكلكلها منذ أكثر من سنة من تاريخ حلولها يوم 2 مارس 2020. كان الحادث بغتة كأنّه قدر مرسل فالعين الشرّيرة قد أصابتها في العمق، لكن خالقها أنقذها في اللحظات الأخيرة ولعلّ أفعالها وطيبتها وأدعيّة المرضى كانت السّبب المباشر لتلافي ما هو أعظم.

في الواقع، منذ آخر لقاء افتراضي مع مجد، أحسّت الدّكتورة نون بتشتّت فكرها وضياعها في مسارب ومسالك لم تكن تجوبها البتّة. لقد انفتح جرحها الغائر فمن يرتّقه ويداويه غير الأقدار و" مرض الهوى قتّال" تقول الأغنية الكافية !

"لا يحبّ الإنسان بأسبوع أو شهر، لا يمكنك أن تحبّ البحر وأنت تقف على الشاطئ، يجب أن تغوص في أعماقه، تضربك أمواجه، تضرب قدمك صخرة، وترى قاعه المظلم. فتلمس عيوبه، وترى ظلماته، وتعرف كيف يغضب، وبعدها فقط إما أن تحبّه كله.. أو تكرهه كله. يبدأ الحبّ عندما ينتهي الحماس" يقول تشارلز ديكنز... وكان هذا الرّأي يلازمه كثيرا في ساعات التّفكير والارتخاء...

وطوال أيّام الشّهر المفضّل كان الاتّصال دائما بينهما، يتواصل معها، يطمئنها ويطمئنّ عليها ويحاول جاهدا التّخفيف عنها وإبعادها عمّا هي فيه من حزن وألم وخوف ورهبة ممّا يخيّم على البلاد. كعادته يحادثها، يرسل لها الصّور والقصائد والأغاني المختارة علّها تنسيها بعض همومها من جرّاء الحادث الأخير وأثره في نفسها

ونفسيتها ويتجنّب الحديث معها عنه وعن السيّارة والزّمان والمكان... بل ويتحادث معها عن مائدة الإفطار في شهر رمضان المبارك وأطباقه وسهراته و"دبارة اليوم" وأسعار السّوق وغلاء اللّحوم والخضر والغلال وما كتب في الصّحافة المحليّة والعالميّة من أخبار قد تفيدها معرفتها والاطّلاع عليها...

كانت ترسل له صور أطباقها المحبّذة وطاولة الإفطار وما عليها وكان يبادلها أيضا نفس الصّور وتلك الكلمات الرّمضانية التّونسيّة لحما ودما "شاهيه طيّبه" أو "صحّة شريبتك" أو "صحّة سحورك" و"تقبل الله" في جوّ رمضانيّ ممتع ومفعم بقراءة ما تيسّر من كتاب الله المجيد كل ليلة ويتباريان على ختم القرآن الكريم ليلة السّابع والعشرين من الشّهر بمناسبة ذكرى نزوله، ليلة القدر أو ليلة "السّبعونيّة"...

لكن هاجس الكوفيد يضجره ويعشّش في أعماقه. آلام المرضى وانهيارهم النّفسي وتعذّر بل منع زيارة أقاربهم لهم ونمط الغرفة واللّباس وملائكة الرّحمان حولهم يزيدهم بؤسا و يقتلهم أحياء.

وهو يستمع لما يجدّ من أخبار، كشف محمّد نقّارة الصّيدلي البيولوجي المختصّ في التحاليل الطبيّة عن ظهور أعراض جديدة على المصابين بفيروس كورونا خلال الموجة الثالثة التي تميّزت بظهور سلالات جديدة، وقال إنها تتمثل بالخصوص في التهاب العينين واحمرار القدمين دون أن تكون مرفقة بالأعراض الشائعة الأخرى والمتمثلة في ارتفاع درجات الحرارة والسّعال والإرهاق وفقدان حاسّتي الشمّ والتذوّق.

ونقل عن نقّارة قوله "هذه الأعراض الجديدة لم تنتشر بعد بشكل كبير إلا أنها تزداد يوما بعد يوم ممّا يطرح بعض الإشكاليات في عمليات التّشخيص... يبدو ظاهريّا انّه لا علاقة لهذه الأعراض بداء فيروس كورونا ممّا يجعل إجراء التحاليل هو السّبيل الأنجع للتّأكد من وجود إصابة من عدمه ."

وأضاف "ما يثير القلق خلال الموجة الثالثة من انتشار فيروس كورونا هو تزايد عدد المصابين من الفئة العمريّة المتراوحة بين 30 و40 سنة وفي صفوف الأطفال أيضا."

أما وزير الصّحة فأعلن هو الآخر عما يزيد عن مائة سلالة من فيروس كورونا جابت وتجوب البلاد التونسيّة طولا وعرضا.

وهل يبقى للعاقل عقل وهو يستمع إلى هذه الأخبار على أفواه المسؤولين!

الفصل التاسع عشر

أيّام الشّهر المعظّم تمرّ جميلة روحانيّا، مفعمة بالإيمان وقراءة القرآن رغم هذا الضّيف الثقيل الجاثم غير بعيد عن كل منّا. رغم مآسيه وما يسبّبه من خسارة بشريّة واقتصاديّة ورغم ما تقاسيه البلاد من سياسة عرجاء أوقفتها على حافة الإفلاس والتدافع الأهلي حتّى لا نقول شيئا آخر أمرّ و أدهى..

كم يعشق الضّاحية الشّمالية لمدينة سوسة فميناء القنطاوي هو مجمع سياحي يقع على بعد عشر كيلومترات شمال المدينة، وقد تمّ بناؤه عام 1979 كمركز سياحي حول ميناء اصطناعي كبير يوفّر رباطاً مع 340 مرسى لليخوت الفاخرة، ويستضيف الأنشطة الرياضيّة من التزلّج على الماء إلى الطّيران الشّراعي والعديد من ملاعب الڤولف. ومن حيث الأسلوب، تمّ تصميم منطقة ميناء القنطاوي كقرية على الطّراز التّونسي الأبيض والأزرق مع حيّ المدينة المستنسخ وشوارع مرصوفة بالحصى، ويضمّ مجموعة من "البوتيكات" الأنيقة والشواطئ ومطاعم ذات إطلالة ساحرة على السّاحل التّونسي المركزيّ، ويزدحم النّشاط حول المرسى حيث ترسو سفن ويخوت البحر المتوسّط، وتوفّر الشّوارع المرصوفة بالحصى والهندسة المعماريّة المغربيّة الأندلسيّة طابع شمال إفريقي أنيق في بيئة صديقة للسيّاح. اصطحب مجد معه رفيقه وصديقه وخرجا للتنزّه وتغيير الجوّ..

فهمي سيدخل القفص الذّهبي عمّا قريب إذ اختار نصفه الثّاني من خلال شبكة التّواصل الاجتماعي. موظّفة جميلة من نفس المدينة الّتي يعمل بها، مطلّقة، تمتلك

منزلا ولا أبناء لها. أثّر فيها بلباقته ومعسول كلامه فجعلها طوع بنانه وأثّر فيها بلباقته وأخلاقه فتمنته زوجا لبقيّة العمر. ولأوّل مرّة تختار زوجا في حياتها. وسيفتح دكّانا بمأوى السّيارات بمنزلها ليواصل فيه امتهان التّجارة و" الرّزق على الله" كما يقول دائما و "الصّابر ينال" و"على قلوبهم يرزقون".

هذه الضّحيّة لزواج تقليدي فاشل رغم ثقافتها ومستواها الجامعي فشلت في اختيارها بل في ما اختاروه لها وأذعنت له. باحت له ذات ليلة ضعف دافئة بما عذّبها ويعذّبها فدخلت أعماقه من الباب الواسع الكبير وأحسّ بواجب إنقاذها وإسعادها وهو الشّهم النّبيل قولا وفعلا.

قالت له، ذات بوح، بجميل لهجتها ولكنتها وعذب كلامها و صدق سريرتها:

" طلّقتو ومانيش نادمه ونحسّ براحه كبيره، عصفور و خرج م القفص متاعو..

ما انّجمش نحكيلك آش عانيت بعد العرس إلاّ بعد ما نحكيلك آش صار قبلو باش تربط الأحداث وتفهم معاناتي ومدى صبري عليه طوال أشهر مريرة حتى لا تأخذك بي مآخذ شتّى.. ولتحكم بنفسك بعد ذلك...

بريود الخطبة أو فترتها كانت قصيرة برشه، خطبني أوّل الشتاء عرّسنا في قلب الصّيف ووقعت في قلب الجبّ دون اختيار مني وسامح الله التقاليد.

يعني اعز فتره متاع الخطوبه والتعارف والأحلام ما ثمّاش جمله، بتاتا... وما عرفت كان السّوء والأسوأ... والله غالب مكتوب ومشى على روحو...

في بريود الخطبة رغم قصرها اكتشفت حاجات غريبة فيه لكن ما نجّمتش نحلّلها بحكم قلّة الخبرة وبحكم أني سبّوره كحله ما نقول شيء لأمّي وإلا للعائله ككل.

حسّيتو مجنون، مخلبز ومقربع تقول أنت... بل أكثر...

لكن حسّيت روحي في غيبوبة ماني فاهمة شيء، مانيش عوّامه وفي بحر مالو نهايه. وملّي عرّست دفنت روحي بيدي ومن يومها انتهت أحلامي رغما عنّي وماتت كلّ مشاعري وأحاسيسي.

شهر العسل تعدّا مرّار... الشّهر كلّو تعدّا عرك وخصام نمشيو ونجيو ع الطّبيب. قصّتي حزينة.. وظهر عاجز، وعندو القلب ويتعاطى في المهدّئات وبرشه دوايات...

فعلا قصّتي حزينه وما فيها حتى هناء كان الذّكريات المرّه على فكرة أربعة مرّات نوصل لآخر مرحلة في الطلاق ونرجع يرجّعوني النّاس.. والناس عمرهم ما يعرفوا أوضاع الناس والداخلية المحرجه منها خاصة... وأخيرا شدّيت صحيح وطلّقت رغم أنف الجميع الحياة حياتي وهي مِرّه أكهو لواه نعيشها مُرّه !

... من وقتها الرّاجل الّي ماخذتّو تنحّى من حياتي جمله، بقى جسد من غير روح، خيال ما عندي بيه حتّى علاقة، لانّو حطّمني، كل حاجة حلمت بيها هشّمها حتّى الطّلاق عذّبني ما خلاّنيش نطلّق وصل عملّي براكاجات وقت ايّامات الطلاق ... لا نحبّك ولا نصبر عليك... مصلحتو فوق الكل و روحو روحو... ماخذني بانكه.

آآه يا ربّي قدّاه حملت وصبرت وتحمّلت... ما نسامحوش دنيا وآخره..

انا تظلمت كإنسانه وكمرا وما عشتش كي النّساء ولا حقّقت حلم معاه..

فقط هذا اش نقول ما نعرفش لواه ربّي سبحانو بعثني ليه.. وإلاّ بعثو ليّ... ثرت لكرامتي ولم يترك سبيلي الاّ بشقّ الأنفس وتدخّل الطيّبين من الأقرباء ومن كبار القوم... ولله الحمد..

عيوني جفت ما عادش عندي دموع بقات كان الغصّة في القلب...

فقط ربحت داري لأنّي بنيتها بقرض لتوّ نخلّص فيه وهي باسمي"

هكذا كانت بداية "مكتوب" فهمي، هل ستسعد فعلا معه وتنسى كلّ همومها؟! إنه رجل شهم خالط النّاس وتعلّم من المجتمع ومرّ بكل ما يمكن أن يمرّ به شاب في زمننا هذا من الضّيق والأزمات ومصارعة أهوال الحياة. لكنّه صارعها بصبر وصدر رحب وطاقة خلاّقة وتفاؤل لا مثيل له.. "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله."

أمّا صديقة مجد، الدّكتورة نون فلا تزال تتمتّع برخصة المرض من جرّاء ذلك الحادث اللّعين وهي تتقلب على نار الأرق والحنين فلا هي باستطاعتها الشّغل ولا هي استطاعت زيارة عائلتها، فالأوضاع الصحيّة ليست على ما يرام.

وهو يتصفّح جريدته المفضّلة لفت انتباهه هذا المقال:

"الكلّ يدرك حجم الفشل[21] فقط بالعودة لتفاصيل الخطّة الوطنيّة للتلقيح.

وعود سقطت تباعا والسّبب ما يعلمه الجميع عن سوء إدارة المفاوضات وللملفّ الصحّي برمّته رغم ما يعلن من استراتيجيات كانت تبشّرنا بالنّجاة، إلا أنّها باتت تذكّرنا بالفشل والخيبات التي تتالت وتوالت علينا جراء سياسة الحكومة في إدارة

21 حسان العيادي جريدة المغرب 2021/5/1

الملفّ الصحّي وغياب « القادة » عن حرب يعلن عنها ولا تخاض. ليحلّ شهر ماي ولم ترتق نسبة التونسيين ممّن تلقّوا الجرعتين من التلقيح فوق 0,6 ٪.

منفعة تريد الحكومة عبر خطابها الرّسمي نفيها، ولكنّها تعجز عن ذلك والسّبب انّ الخطاب الّذي قدّمته سابقا بخصوص استراتيجيّة التّلقيح والتّأكيدات التي قدّمتها من انّ المسار سيكون شفّافا ونزيها وأنّه سيكون بالكامل خاضعا « لتطبيقية » لا يمسّها الخطأ من أمام او الخلف بات اليوم حجّة عليها وعلى تلاعبها. فعمليّة الانتقال من مرحلة إلى أخرى كانت وفق تصريحات قديمة للحكومة مرتبطة بمدى التقدّم الّذي يحقّق في الفئة السّابقة وتحقيق الهدف، وهذا ينتفي تماما في واقع الحال، الذي يعرّي حكومة المشّيشي ويضيف إلى فشلها سقوطها المدوّي وفقدان الثّقة فيها من قبل الشّارع الذي يصارع بمفرده الوباء؟"

وهي الأوضاع الحقيقيّة لمشكلة التّلاقيح في بلادنا فأغلب كبار السنّ المسجّلين مازالوا ينتظرون دورهم في حين تمكّن آخرون بفعل فاعل من تلقيح الدّفعتين و"مسكينه تونس" كما يقول أغلب سكّانها.

تكتب دنيا حفصه:[22] " ...ووفق تصريح إعلامي لعضو لجنة التلاقيح ضدّ فيروس كورونا أحلام قزارة فإنّ أغلب مراكز التّلقيح في 8 ولايات لم تؤمّن عمليّة التلقيح ضد كوفيد19 إضافة إلى تسجيل نسق تلقيح ضعيف جدّا في 5 ولايات أخرى، جرّاء الإضراب، مثال ذلك معتمديّة الجم، 28 شخصا فقط تلقّوا التّطعيم من بين 358 مدعوا .

ويوصف الوضع الوبائي بالحرج جدّا وسط تكاثر السّلالات المتحوّرة وتصاعد

22 جريدة الغرب بتاريخ 2021/05/05

المخاوف من دخول السّلالة الهنديّة سيما بعد إعلان كلّ من الجزائر والمغرب عن تسجيل حالات للإصابة بالسّلالة الهنديّة والّتي تعدّ من أخطر السّلالات.

ثم تابع باهتمام: بالرّغم من التّراجع النّسبي خاصّة على مستوى عدد الوفيّات فإنّ الوضع الوبائي مازال خطيرا جدّا بسبب تواصل انتشار الفيروس لاسيما السّلالة البريطانيّة التي تفشّت في البلاد بصفة متسارعة، في وقت يتواصل فيه الجدل والتلاعب في التلاقيح وكلّ يوم نستفيق على تطعيم بعض الشّخصيّات دون احترام الأولويّات..."

كانت الدّكتورة تعمل بكلّ ما أوتيت من قوّة وكلّما مرّ بخيالها شهاب صديق الماضي كانت تترنّم بألم الحنين:

"عايزنا نرجع زي زمان... قول للزّمان ارجع يا زمان..."

يقول صديقه فهمي " البزنس" في الدّول ذات التوجّه الرّأسمالي والتي اعتمدت "المال" وسيلة وهدفا، لا يعترف بأيّ شيء، لا بالسنّ ولا بالجنس و لا باللّون ولا باللغة ولا بالمستوى الثقافي فهو دابّة صمّاء لا روح ولا إحساس فيها ما عدا الإحساس بالمداخيل المادّية وبالعمل ولا شيء غير العمل. لقد وهبك الله العقل والمدارك لتعيش الأحاسيس من ورائها فهي في درجة ثانية. الأحاسيس والمشاعر لا توفّر لك رفاهيّة الحياة بل الأعمال الّتي يدفعك إليها العقل هي التي تسعد مشاعرك وتجعلك تعيش ما تتمنّى أن تعيشه... وفهمي ليس له مستوى علميّ مرتفع غير أنّ الحياة

ثقّفته " لسانه يبرم الحرير" وذكاؤه حادّ وقّاد وبلسانه يستقطب وبتفكيره يهندس وبذكائه يستنبط وبعمله يعيش وبثقته وأخلاقه يكسب النّاس، الشّيء الذي يعجب به صديقه مجد ولولا مشاغله لدخل معه ضمن فريق التّسويق الشّبكي هكذا يمازحه دائما..

وهو يرتشف قهوته في إحدى المقاهي المطلّة على البحر الأبيض المتوسّط الهادئ الجميل وعلى شاطئ أبي جعفر بالتدقيق. تسلّلت إلى آذانه أنغام أغنيّة جميلة تداعب القلب وتمسح ما علق به من ضغوطات الحياة وهمومها. ذكّرته بأبيات جميلة من قصيد طويل لنزار قباني كثيرا ما صاحبته في أمسياته الجميلة وكثيرا ما أرسلها إلى صديقته البعيدة لتتقاسمها معه وهي التي تذوب ذوبانا في شعره.

سأقولُ لكِ "أحبّك"..

وتضيقُ المسافةُ بين عينيكِ وبين دفاتري

ويصبحُ الهواءُ الذي تتنفَّسينه يمرُّ برئتيَّ أنا

وتصبحُ اليدُ التي تضعينَها على مقعد السيّارة هي يدي أنا..

سأقولها، عندما أصبح قادراً، على استحضار طفولتي،

وخُيُولي، وعَسَاكري، ومراكبي الورقيَّهْ..

واستعادةِ الزّمَن الأزرق معكِ على شواطئ بيروتْ..

حين كنتِ ترتعشين كسمَكةٍ بين أصابعي..

فأغطّيكِ، عندما تَنْعَسينْ، بشَرْشَفٍ من نُجُوم الصّيفْ..

***

ثم غاب في اهتمامات السّاعة عبر تصفّح آخر أخبار الصّحافة الإلكترونيّة ونحن في " عواشر" عيد الفطر المبارك وعلى عتباته .

الحكومة تعلن للعموم إقرار الحجر الصحّي الشّامل وإغلاق الأسواق الأسبوعيّة والمساحات التجاريّة الكبرى. غير أن البلاغ الصّادر عن وزارة التّجارة وتنميّة الصّادرات أعلن إثر ذلك عن فتح المساحات التّجارية الكبرى أبوابها أمام المواطنين لاقتناء المواد الغذائيّة. ربما لنفوذ أصحابها وقدرتهم على فرض ما يخدم مصالحهم. كما أعلنت مصالح الحكومة عن إجراءات أخرى بغية الحدّ من العدوى. من بينها منع التنقل بين المدن بعد تحديد الوقت لذلك ممّا أدخل توتّرا على عائلات كثيرة فهنالك من أراد التنقل فوقع الإشكال في داخل العائلة نفسها، منهم من يريد السّفر والمغامرة كلّفه ذلك ما كلّفه ليرى والدته أو إخوته أو عائلته بعد طول غياب ومنهم من يريد البقاء حيث هو خوفا من تفشّي العدوى من بين الأزواج ذاتهم ممّا أدخل على أجواء العيد شيئا من القلق والخوف والضّجر والمشاكل. كثيرون منهم سافروا ولم يتبادلوا الكلام طوال الرّحلة، خوفا ووجلا، وفيهم من قضى ليلته عند أخته أو أخيه أو خاله ولم يأو إلى عائلته وذلك كلّه خوفا " على كبار السنّ" من جحيم هذه الجائحة التي تتكاثر عدواها وتنتشر بسرعة انتشار النّار في هشيم الصّيف. فقد

تأتي الشّكوك من عطسة أو مجرّد سعال. وقد استمع لذلك ضمن برنامج إذاعي مباشر تحدّث خلاله المستمعون والمتدخّلون عن رأيهم في الإجراءات الجديدة المتخذة من طرف مختلف السّلط.

مجد، لم يسافر ولم يغادر مكانه ولم يغامر وبقي حيث هو واستغلّ وقته كعادته للكتابة. في حين وتحت ضغوطات كثيرة تنقّلت صديقته إلى حيث تقطن عائلتها. ولكنها أمام تعنّت والدتها وخوفها من العدوى قضت ليلتها عند أختها بل كل ليالي العطلة وهي التي كانت طوال رحلتها متوتّرة تصارع ضغوطات عدّة إذ طلبت منها عائلتها عدم التنقل في مثل هذه الظروف الصّعبة والبقاء حيث هي خوفا من الإصابة. لم تقو هي على الالتزام والبقاء وحدها في المنزل. كانت دائما على اتصال به. منذ خروجها من العاصمة حتى وصولها حيث مدينتها، تحدّثه عن كل مدينة تمرّ بها وتحدّثه عما يعتريها من خوف فيخفّف ما بها. أسعده ذلك الالتجاء إليه فهو دليل ثقة تمنّاها أن تتواصل. حدثته عن ريفنا الجميل وهي تخترقه بسيّارتها فذكّرته بقصيد لمحمود غنيم كان قد حفظ بدايته عن ظهر قلب في فترة التعليم الإعدادي، فجزّأه أبيات يرسلها لها تباعا بصوته ويؤنسها به لطوله وجماله وانسيابه وانسجامه مع روحيهما، ويقول عن الريف:

عشقوا الجمالَ الزائف المجلوبا

وعشقت فيكَ جمالكَ الموهوبا

قدّست فيك من الطبيعة سرَّها

أنعمْ بشمسك مشرقًا وغروبا

ولقد ذكرتك فادَّكَرْتُ طفولتي

وتمائمي، طوبى لمهدك طوبى!

زعموك مرعىً للسَّوام، وليتهم

زعموك مرعى للعقول خصيبًا!

فهي القرائحُ أنتَ مصدر وحيها

كم بتّ تلهم شاعرًا وخطيبا

حيَّيتُ فيك الثّابتين عقائدًا

والطاهرين سرائرا وقلوبا

والذاهبات إلى الحقول حواسرا

يمشي العفاف وراءهنّ رقيبا

سلبت عذراك الزهورَ جمالها

فبكت تريد جمالها المسلوبا

كست الطبيعةُ وجْهَ أرضك سندسًا

وحبت نسيمك –إذ تضوَّع- طيبا

بُسُطٌ تظللها الغصون، فأينما

يمّمت، خلت سرادقًا منصوبا

مالت على الماء الغصون كما

انحنت أمٍّ تقبل طفلها المحبوبا

وبدا النخيل: غصونهُ فيروزجٌ

يحملن من صافي العقيق حبوبا

أرأيت عملاقًا عليه مِظَلَّةٌ

أو ماردًا ملء العيون مهيبا؟

يا رُبَّ ساقيةٍ لغير صبابة

أنَّت وأجرَت دمعها مسكوبا

وحمامة سمع الفؤاد هتافها

فسمعته بين الضلوع مجيبا

والغيد تغمس في الغدير جرارَها

فيظلُّ يضحك ملء فيه طروبا

سِربَان من بط وبيضٍ خرَّدٍ

يتباريان سباحة ووثوبا

وترى الجداول في الأصيل، كأنها

من فضة فيها النضار أذيبا

يا بدر، أنت ابن القرى، وأراك في

ليل الحواضر –إن طلعت- غريبا

نشر السكونُ على القرى أعلامَه

فتكاد تسمع للفؤاد وجيبا

بدت الحياة هناك في ريعانها

ولوَ أنها سارت تدب دبيبا

ولقد ينام القوم ملء العين في

زمن يُقضُّ مضاجعًا وجنوبا

وهي السعادة، كم أوت كوخًا، وكم

هجرت أشمَّ من القصور رحيبا

قالوا: الحضارة، قلت: أسفر وجهها

وبدت محاسنها، فكنَّ عيوبا

ما ضرَّ أهل الريف ألا يحفلوا

بالطب، أو لا يعرفوا «الميكروبا»؟

ضمنت سلامتهم سهولةُ عيشهم

وصفا هواؤهم، فكان طبيبا

رضعوا رحيق السائمات، وما درؤا

غير النمير وغيره مشروبا

وسرى شعاع الشمس في أبدانهم

فجرى بأوجههم دَمًا مَشْبُوبا؟

شمس القرى كست الوجوه نضارة

أرأيت وجهًا في القرى مخضوبا؟

سر في الحقول، ترَ الرياضة عندهم

فنًّا، وخطًّا عندنا مكتوبا

أكبرتُ في القَرَوِيِّ حدّة عزمهِ

وحسبتُه في صبره «أيوبا

ورأيت طيبَ النفس فيه سجيةً

ووداده سهل المنال قريبا

فيه ترى الخلق الصريح، ولا ترى

ضحك النواجذ بالخديعة شيبا

أنا لا أقول: تشينه أمِّية

كن خبِّرًا، ولا كاتِبًا وحسيبا

كم ضلَّ من أهل الحواضر قارئٌ

فاغتال أعراضًا وشقَّ جيوبا

في الريف فتيان تسيل جباهم

عرقًا فيصبح لُؤْلُؤًا مثقوبا

لا فتية مُرْدٌ بأيد بضَّة

في كل يوم يلبسون قشيبا

كانت طوال الرّحلة تستمتع بالمناظر الطبيعيّة الجميلة وسيّارتها تتهادى بين المروج و الحقول. لكن بوصولها مدينتها قلّت مراسلاتها شيئا فشيئا وهي في بيت أختها مع

أنّها كانت تمدّه، بإيجاز، بآخر أخبارها. كان يكتب لها بدوره كما كان يكتب دائما شيئا من الشّعر ورسائل قصيرة يمدّها فيها بأخباره وشوقه إلى رؤيتها. كما يمدّها من حين لآخر بأغاني معبّرة هي عبارة عن رسائل صوتية يبث لها من خلالها حنينه وأشواقه ومشاعره الإنسانيّة. وتلمّح لحبّه الكبير لها ليخفّف عنها وطأ ما تعانيه من ضغوط وهي " الحسّاسة الخوّافة" كما تقول، التي تزور عائلتها بعد غياب أكثر من ثمانية أشهر، تحت طائلة الجائحة لم تتنقل خلالها بل غاصت في أعماقها تحلّل وتنصح ... أرسل لها من شعر نزار :

سألتك بالله لا تتركيني

لا تتركيني، فماذا أكون أنا إذا لم تكوني

أحبّك جداً وجداً وجداً

وأرفض من نار حبك أن أستقيلا

وهل يستطيع المتيّم بالعشق أن يستقيلا

وما همّني إن خرجت من الحبّ حيّا

وما همّني إن خرجت قتيلا.

ثم أخذه الشّوق إلى كلّ أفراد عائلته ووالدته بالأخصّ وفي خضمّ الحنين أعاد قراءة رائعة الشّاعر كريم معتوق:

أوصى بك اللهُ ما أوصت بك الصُحفُ

والشّعرُ يدنو بخوفٍ ثمّ ينصرفُ

ما قلتُ والله يا أمي بقافيةٍ

إلا وكان مقاماً فوقَ ما أصفُ

يَخضرُّ حقلُ حروفي حين يحملها

غيمٌ لأمي عليه الطيبُ يُقتطفُ

والأمُ مدرسةٌ قالوا وقلتُ بها

كل المدارسِ ساحاتٌ لها تقفُ

ها جئتُ بالشعرِ أدنيها لقافيتي

كأنما الأمُ في اللاوصفِ تتصفُ

إن قلتُ في الأمِ شعراً قامَ معتذراً

ها قد أتيتُ أمامَ الجمعِ أعترفُ

ذابت صديقته في غمار مشاغلها وغادر النّوم أجفانه وبات بين نارين أيزعجها بمراسلاته وأسئلته وتساؤلاته وهو لا يحبّذ ذلك البتّة أم يصبر ويصطلي بنار محبّتها وينام على جمر الأشواق وهو الذي تعوّد بإعلامها له بكل ما يستدعي غيابها حتّى لا تلتهمه نار الحيرة الّتي لا ترحم. خاصّة وهو يسعى إلى معرفتها معرفة دقيقة ومعرفة

عائلتها وأجوائها وخصوصياتها إذ قد يستجيب القدر لما يجول في داخله ويتزوّجها وينجب منها البنات والبنين وتزدهر أيّامه ويصبح من الكتاب المعروفين ذائعي الصّيت المشهورين. فهو يحبّها بصدق ويخاف عليها من أعماقه وبكلّ جوارحه، وفي غيابها تتقاذفه أمواج الشّكوك ككلّ العشّاق فيسأل نفسه ويجيب ويفتح المجال للعقل والقلب فيتصارعان وكل يدعّم رأيه بحججه:

. لو هي تحبّك فعلا لما أخذت منها كلمة صباح الخير وقتا... تكتبها حتّى على جناح الأثير والمرأة لا تعوزها الحيلة، إن أحبّت لا تقف أمامها الحلول وتصبح لها عديد العقول، يقولها العقل فخورا فيجيبه قلبه:

. قد يكون هاتفها فاقدا للشّحن.. قد تكون خارج المنزل... قد تكون في حوار عائلي مسترسل... قد تكون نائمة أو مريضة وقد... وقد ... جامعا لمختلف الأعذار المسبّقة وبعض هذه الأعذار يرهقه ويقتله هل هي حقّا مريضة أم أصيب أحد أفراد عائلتها...؟

وهكذا يمرّ وقته والظّنون تتنازعه وتتصارع داخله وعقله وقلبه لا ينسجمان وتستمرّ المبارزة فيلعن المزاج الذي تعكّر بدون أسباب تذكر. يرمي بقلمه جانبا ويرنو إلى قراءة بعض سور القرآن الكريم علّها تخفّف عنه بعض ما يجد فتهدأ نفسه وتنام الظّنون وتغرب إلى الغروب " ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب" ...

ولم تلبث الدّكتورة أن اتّصلت به، معتذرة كعادتها، لقد خرجت صحبة أختها إلى المزرعة خارج المدينة مع ما استغرق ذلك من وقت ولمّا عادت خرجت مرّة ثانية مع والدها لقضاء بعض الشّؤون وهي بين منزل أختها ومنزلهم في ذهاب وإياب وعندما وجدت متّسعا من الوقت اتّصلت به وأعلمته بذلك وأنّ أجواءها هانئة وكلّ شيء

على ما يرام ولا لوم عليها إذ يعوزها الوقت في أجواء العائلة وانشغالها. عاد له الأمل ولعن الهواجس الّتي انتابته في لحظات حبّ صادق عميق وصفّق القلب انتصارا على ظنون العقل ونوازعه وإن كان صاحبنا على قاب قوسين أو أدنى ليقتنع بما يقوله إذ المحبّ، فعلا، قادر على كل شيء والحبّ الذي ابتلي به يمنحه قوّة وشجاعة وذكاء ولباقة وأخلاقا وجرأة لامتناهية وفي بعض الأحيان تهوّرا غير محمود العواقب وهذا الذي يخيفه ويتمنّى ألاّ يقع مهما حدث.

وعدته بأن تكون ملتزمة على الأقل بالأشياء الضّرورية بين النّاس في علاقاتهم الاجتماعيّة. لكنه لم يشهد اهتمامها بالالتزام بل كانت عشوائيّة في تواصلها، غامضة في مشاعرها. في بعض الأحيان تسترسل معه في مختلف المواضيع. أحيانا أخرى تغيب غيابا طويلا. بعض الأحيان يراها قريبة جدا تكاد تشاطره الحاسوب. أحيانا أخرى يحسّها بعيدة عنه بسنوات ضوئية. هي غير منتظمة في ذلك ولا مهتمّة به وربّما وراء ذلك انشغال لا يعرف مصدره وكأنّها تصارع الزمن وربما عذرها في ذلك ظروفها الداخليّة الّتي لا يعرف عنها شيئا وإن كانت دائمة الشّكوى من التّعب والإرهاق. وها هو يمنّي النّفس بأن يتفهّم أو تتفهّم ذلك عند اللقاء فإلى الآن لا زالا روحين هائمين لا يعرف أحدهما الآخر جيّدا إلاّ عبر الكتابة فهما قريبان روحيّا بعيدان جسديّا وإن تعلّق كلاهما بالآخر ورأى فيه الجزء المتمّم له نظرا لتقارب الأرواح وانسجامها. إذ ربّما هي التي تلتقي خارج الأجساد وتتناغم وتتفاهم فأرواح الأحياء تلتقي في النّوم واليقظة على حدّ السّواء وعلى رأي بعض العلماء... وهو في كلّ هذا يجهل جهلا تاما جانبا هامّا تعيشه بتذبذب واهتزاز في حياتها العاطفيّة..

مع ذلك فهو يبحث لها دائما عن أعذار البشر ولو أنّه يسبل عليها صورة الملاك وأفعاله والمهمّ أنّها تتناغم معه، تحبّه وتحترمه وتقدّره حقّ قدره. الأطبّاء عموما

تفهم إيحاءاتهم وتوضيحاتهم ولا تفهم خطوطهم وكتاباتهم وحتّى منهجهم العلمي وطريقة تفكيرهم ورؤيتهم للأشياء فقد تختلف كثيرا عن الملهمين الحالمين مثله ممن عانقوا الشّعر والأدب وأريج الحرف.

كثيرا ما راودته بعض أحلامه المنسيّة إذ تقفز من مكمنها وتحثّه على مزيد التعرّف عليها فقد تكون زوجة المستقبل ورزقا كتبه الله له وأملا سكن مكمن الرّوح ففاض أريجه. وراح يدندن بينه وبين نفسه بحلاوة كلمات أغنيّة فيروز يا جارة الوادي، رائعة أحمد شوقي وألحان محمّد عبد الوهاب وعلى نغماتها المنبعثة من المذياع:

يا جارة الوادي طربت وعادني ما يشبه الأحلام من ذكراك

مثلت في الذّكرى هواك وفي الكرى والذّكريات صدى السّنين الحاك

ولقد مررت على الرّياض بربوة غنّاء كنت حيالها ألقاك

ضحكت إلى وجوهها وعيونها ووجدت في أنفاسها ريّاك

لم أدر ما طيب العناق على الهوى حتّى ترفّق ساعدي فطواك

وتأوّدت أعطاف بانك في يدي واحمرّ من خفريهما خدّاك

ودخلت في ليلين فرعك والدّجى ولثمت كالصّبح المنوّر فاك

وتعطّلت لغة الكلام وخاطبت عينّي في لغة الهوى عيناك

لا أمس من عمر الزّمان ولا غد جمع الّزمان فكان يوم رضاك

وضع الحياة العامّة مقرف فلا شيء يبعث على التّفاؤل وتتواتر الأخبار المزعجة عمّا تحصده الجائحة من أرواح من مختلف الأعمار لم تهتم بهم دولتهم ولم توفّر لهم ما يلزم من تلاقيح وعناية. بل ضاع السّياسيون وأولو الأمر على حدّ السّواء في متاهات سياسيّة هامشيّة لا تسمن ولا تغني من جوع في حين تُرك الشّعب في مهبّ الرّيح تحرّكه الإشاعة وتنقصه المناعة وتقتات من لحمه ووقته الهواجس فيخيفه المستقبل ويحيّره برماديّته وقتامته وما يخبّؤه في باطنه...

يؤكد مختصّ في علم النّفس، وهو يطالع جريدة الشّروق، أنّ رفض تطبيق الحجْر الصحّي هي حالة تمرّد تلقائية قد تخلف تمرّدا على كلّ المنظومات إذ "لاقى إجراء الحجْر الصحّي العام، الذي فرضته السّلطات لتطويق فيروس كورونا [23] رفض عدّة قطاعات دعت إلى التمرّد ضدّ تطبيقه بعد دخوله حيز العمل بداية من الأحد 9 ماي ليمتدّ إلى غاية 16 ماي ، في ردّة فعل وصفها المختصّ في علم النّفس نعمان بوشريكة بأنّها تلقائيّة.

وتظاهر سوّاق سيّارات الأجرة "التاكسي" بالعاصمة تونس ضدّ فرض الإغلاق العامّ الذي جوبه في يومه الأوّل بحالة من التمرّد حيث فتح تجّار محلاتهم لبيع الملابس ولعب الأطفال وهم من غير المشمولين بالتّرخيص في العمل

وبدا تطبيق الحجْر متفاوتا بحسب أراء لبعض المواطنين، أجمعوا على ما وصفوه بـ "حالة الرّفض العام للقرار "

23 جريدة الشروق بتاريخ 2021/05/10

وأكّد بعضهم، انعدام الالتزام بإجراء تعليق الأنشطة التّجاريّة في عدّة أحياء بالعاصمة والجهات، كما شهدت الأسواق بعدّة مدن حركتها العاديّة مع إقبال للمواطنين على اقتناء حاجياتهم لعيد الفطر.

وبينما فرضت قيود على التنقل بالطّرقات، فانّ تدفّق السّلع والمواد الاستهلاكيّة حافظ على استمراريته واقتصر نشاط بعض المقاهي الّتي خرق أصحابها الحجْر الصحّي، على توفير القهوة للحرفاء دون الجلوس .

وفسّر الأستاذ في علم النّفس نعمان بوشريكة في حوار له، سلوك المهنيين والتجّار الرّافضين لقرار تطبيق إجراءات الحجْر الشّامل، « بأنّها طريقة للتمرّد ضدّ غلق الأنشطة بشكل جائر».

ونبّه من ان هذا التمرّد قد يتجاوز الاستهتار بمخاطر الجائحة لينذر بتمرّد شامل قد يهدّد السلم والتوازن الاجتماعيين الذين قال إنّهما على حافة الانهيار الوشيك.

ويستند طرح المختصّ في علم النفس، إلى انّ الحكومة كان موقفها رافضا لفكرة الحجْر الصحّي رغم ارتفاع حصيلة الإصابات بداية شهر أفريل، معتبرا ان تصوّر الشّعب والحكومة على طرفي نقيض من الأزمة الصّحية .

وبحسب بوشريكة وجد الشعب نفسه أمام ضرورة تلبية احتياجاته الأساسيّة التي يأتي الغذاء والسّكن ضمن رأس هرمها وهي حاليا مهدّدة بفعل الحجْر الصحّي الذي

يفاقم وضعيات المتضرّرين، مذكّرا أن المواطنين من خلال رفضهم إيقاف عملهم يدافعون عن حقّهم في تامين احتياجاتهم الأساسيّة .

كما اعتبر انّ الصّراعات السّياسيّة وتكريس ثقافة الإفلات من العقاب كلّها عوامل دفعت إلى عدم القبول بتطبيق إجراءات الحجْر الشّامل .

ولفت إلى أنّه من البديهي أن يواجه الحجْر الشّامل بالرّفض خصوصا في ظرف سياسي يشهد إفلات متنفّذين من بينهم عدد من نوّاب الشّعب من المثول أمام العدالة .

وخلص إلى انّ الازدواجيّة في تطبيق إجراءات التوقّي ضد كورونا من خلال هروب بعض الأشخاص ذوي النّفوذ من تطبيق الحجْر الصّحّي الإجباري خلّف أيضا شعورا شعبيّا بانّ الإجراءات الموجّهة لمكافحة كورونا لا تطبّق على أساس العدالة بين المواطنين .

في سياق آخر، يشكّل توجّه رؤساء السّلطة التنفيذية إلى السّفر خارج البلاد في ظل أيام عصيبة تعيشها تونس وعلى وقع أزمة صحّية غير مسبوقة إشارة سيّئة تسوق للشّعب، وفق رأي المختصّ في علم النفس.

لم تنسه الدّكتورة خلال السّهرة ولا صباح اليوم الموالي ولم تغادر هي مخيلته وأفكاره وهو يتصفّح جرائده لمواكبة أخبار اليوم وأحداث السّاعة والعالم يئنّ تحت وطأة الجائحة كما يئنّ الفلسطينيون تحت وطأة الاحتلال الإسرائيليّ منذ أواخر الأربعينيّات. لا شيء من الإيجابيات يجلب انتباهه وهو يطالع أخبار السّاعة، كلّ يغنّي على ليلاه كما قالت صديقته مازحة ذات إطلالة:" كنت دائما أتساءل، خاصّة في مرحلة التّعليم الثّانوي، لما كل الشّعراء يتغنّون بليلى ويتغزّلون بها ولا أحد تغنّى

بغيرها أو عدّد خصالها... ألا توجد في الدّنيا سوى ليلى؟ ألا توجد نهى، نوال، سمر أو ازدهار !

"كل شيء بينهما حدث سينمائيّا في عالم خيالي افتراضي، وحده الألم غدا واقعا ملموسا شاهدا على أن ما وقع حدث فعلا وعزاؤه أنّها لا تسمع لحزنه صوتا، فهو رجل باذخ الألم شديد الاحتواء له."

شمس أواخر الرّبيع بدأت تضجر النّاس وترتفع حرارتها شيئا فشيئا.. شهر رمضان المعظّم يجمع بقاياه ويوشك على الرّحيل وآمال مجد تزداد وضوحا، سيلتقيها بعد العيد إن استجاب الله لدعواته، يسكنه شوق كبير ويحدوه أمل منير. المستقبل نتمنّاه ونعيشه بكلّ ثواني الحاضر حتّى ندركه وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل... وتاه مع كلمات نزار قباني و الأنغام التي تدفعه إلى الكتابة:

انزع حبيبي معطف السّفر
وابق معي حتى نهايات العمر
فما انا مجنونه كي أوقف القضاء والقدر
وما انا مجنونه كي اطفى القمر
ماذا انا لو انت لا تحبّني
ما اللّيل ما النّهار ما النّجوم ما السّهر
ستصبح الأيّام لا طعم لها
وتصبح الحقول لها لون لها

وتصبح الأشكال لا شكل لها
ويصبح الرّبيع مستحيلا

ثم واصل وكأنّ روحها عانقت روحه، أنت نبض شرياني الذي أحيا به، ونظري الذي أرى به الحياة جميلة رائعة، فأنت صديقتي وحميمتي وطبيبتي وحبيبة القلب والرّوح وكلّ ما أملك من كنور الدّنيا. أحبّك حبّا لا مثيل له، لم يكتب في كتب التّاريخ وحكايات القدامى، وسيكتب، ولم يروه الرّواة، وسيروى، ولم يتحدّث عنه مجانين العرب ويتجاوز ما كان لليلى وبثينة وعزّة وعبلة ولبنى في تراثنا ... إن غبت عن عينيّ يغيب كلّ شيء معك وتختلط الأوراق وتتّحد الألوان وتختفي الكلمات فأصاب بالجمود والرّكود والعمى الذّهني والصّمم المستمرّ. إذا كان الورد جميلا فأنت الأجمل، وإذا كان مقامه عال فأنت الأعلى والأسمى وإذا كان عطره يذكي النفس فعطرك يذكّي الرّوح ويزيدها رونقا وحياة... عمري بدونك وفي غيابك لا يمرّ بل يضمحلّ ويذوب في اللامنتهى، والقلب لا ينبض كعادته بل يتمزّق وينتفض داخل القفص والحشى. نحن لا نلعب بالمشاعر فهي تحيي وتميت، أحببتك حبّا رومانسيّا هادئا نظيفا لطيفا وشجّعتني على ذلك بل ومددت لي يديك ولن أنسى لياليك. كوني دائما كما أنت في قلبي وعقلي وواقعي وكتبي. لا ولن أطلب أكثر من ذلك إن لم يتيسّر المكتوب وتتدخّل الأقدار فتحقّق ما لم نتوقّعه.

وكعادته منذ الأزل مرّ شهر رمضان خفيفا لطيفا بجوّه ومسامراته المنزليّة خاصّة وأنّه واكب وللعام الثّاني على التّوالي جائحة الكوفيد الّتي جثمت بمساوئها على قلوب النّاس وحدّت من تنقّلاتهم ومعاملاتهم وسهراتهم ومداخيلهم ومقتنياتهم...

و جاء يوم العيد، استيقظ على غير عادته حوالي السّاعة الخامسة صباحا ولم ينم سوى بعض ساعات. كان يمنّي النّفس أن تكون أوّل تهنئة من طرفها، هي الّتي سكنت قلبه وأحبّها. أحبّها وبادلها ما تشتهيه وترك لها هامش الحريّة كبيرا شاسعا فهو كما أوصاها دائما لا يرغب إلا في كلمات بسيطة في الكتابة لكن أبعادها النفسيّة والمعنويّة هامّة. هذا اليوم بالذات تمنّى منها "عيدا سعيدا" فقط، كلمة لا تستغرق الا ثواني معدودة يهنأ لها باله ويبدأ بها يومه تمنّى ككلّ محبّ أن تكون معايدتها هي الأولى. بقي على جمر الانتظار ساعات طويلة بتمامها و كمالها. كان متوتّر الأعصاب على هوّة الاكتئاب يحسّ بمرارة لا تكتب ولا توصف ولا يعبّر عنها، أحسّ بإحباط كبير، فهو واثق من أنّ مكانته كبيرة في قلبها أو على الأقلّ في عقلها لأنّه يحبّها وتعرف ذلك بل وتبادله هذه المشاعر بحياء الأنثى وليس على المحبّ حرج. اتّصل به كل أحبابه و أصدقائه ومعارفه واتّصل بهم، إلاّ هي... هي الوحيدة... بحث لها عن أعذار، التمس لها ككلّ مرّة كلّ ما يمكن أن يلتمسه ولكن لا عقله ولا قلبه عذراها في عشرة ثوان لتكتب معايدة العيد مهما كان وقتها وأوضاعها ورأى أن المعايدة هي المحبّة بين جميع الخلق و "من لا يبحث عن معايدتك من مقرّبيك يضعك في مرتبة غير مرتبتك بل لا يحبّك" يؤنّبه بذلك عقله... هاله أن يعامل بتلك المعاملة المسيئة لكرامته وهو الذي لم يدّخر جهدا ليكون الرّجل الحنون والصّديق الوفيّ والحبيب الصّادق. صدقه أضناه ومبدؤه كذلك فهو جدّي في علاقاته. هنالك قيم يراها ثمينة وذات قيمة كبيرة ويقدّس المفاهيم التي تتوارثها الأجيال ويعطيها أولويتها... لكنّه لا يعرف ظروفها والمثل يقول: " اللي بعيد عليك عذره معه.." مع أنّه كثيرا ما تلتهمه شكوك المحبّين وإيحاءات شتّى تغمر كيانه ولا يفهم كنهها ولا حتّى مصدرها الماورائي.

كتبت له مساء، كان متوتّرا لا يعرف كيف يكتب وماذا يكتب وبدأ متلعثما، لا يدري ماذا يقول ويردّ، في حين كانت هي بشوشة ضاحكة، لامها لوم المحبّين فردّت أنّها تحت ضغط كبير وظروفها لا يعلمها إلا الله ثم أنّها لم تخرج هاتفها من حقيبة يدها ولم ترد حتى على أخواتها وصديقاتها وزملاء العمل وستردّ لاحقا وبدت هادئة مرهقة... لماذا ؟ لأنّها قضت اليوم عند أختها في ضيعة نائيّة لا تصلها الذبذبات ولا الأنترنات وخاصّة لضعف الشّبكة أمام الطلبات الكثيرة يوم العيد... فماذا عساه أن يقول وهو الشّاب الرّصين؟ طالما لا يعرف ظروفها لا يستطيع إلا قبول عذرها... والله أعلم بما يعتلج داخلها...

وكان ذلك أوّل امتحان لقلبه ومشاعره...أحسّ أنه فعلا يحبّها بكل عمق.. وأحسّت أنها ممزقة القلب والأوصال..

كتب لها :

انت يا أنت...

أحبّك لأنني لا ابحث عن مقدّمة اختلق بها حديثا معك لمجرّد الحديث فأنت عمق الحديث وثراؤه وكنوزه... و لكنّني أحبّك لأنك الملجأ الآمن... أحبّك لأنّني أعود إليك كما يعود المتعب إلى راحته وكما يعود المغترب إلى بيته وكما تعود الرّوح إلى جسدها، وكما يعود المحارب إلى ثكنته بعد طول العناء ... أحبّك لأنك اليقين الذي لا يهزّه شكّ والأمان الذي لا يخالطه خوف، لأنك الثقة ذاتها بل أصلها وفروعها ومنهلها..

أحبّك لأنني اجد فيك كل الإجابات عن كلّ الأسئلة المبهمة التي لم تسأل بعد وتلك التي تجول بلا أجوبة وتلك الوجوديّة التي أتخبّط فيها... أحبّك لأنك، ببراءة الأطفال،

أنت وأنت الوحيدة، تلك التي فتحت طريقا إلى قلبي ذات ليلة دافئة كقدر ثابت مكتوب دون سابق إعلام.

الفصل العشرون

علاقة المحّبين وقانونهم في ذلك يختلف عن العلاقات العادية الأخرى فأهواؤهم تسيّرهم ومشاعرهم كذلك ولا يخضعون لمنطق الحكماء. للمحبّ أحاسيس رقيقة تتشبّث بكلمة واحدة كحجر الزّاوية. ان انهارت انهار معها كل شيء وهو لا يتخيل حبيبين اثنين لم يعايدا بعضهما في هذا اليوم إلى حدود المساء إلا إذا كان لآمر جلل وأكبر بكثير من طاقة البشر...

وهذا لا يقطع حبل الودّ بل يقوّيه ولا يمسّ بالمحبّة وصدقها بل يطهّرها ويحميها. قالها للدكتورة علّها تتيقّن من صدق مشاعره وبراءة نيّته وشفافيّة ما يحمله لها في قلبه لا لشيء فقط لأنّه أحبّها وسمحت له بذلك بل بادلته المحبّة بعمق وحياء ومنذ تعارفا لم ينقطعا ليلة دون التراسل والتّواصل...

هنالك شيء آخر له من الأهميّة لم يقرأ له حسابا إذ عرفها افتراضيّا و أحبّها واقعيّا وهو لا يعرف الا صورها ولا شيء عن شخصيتها وطبيعتها وظروفها. هذه الأشياء إلهامّة التي لا تعرف الا بالمعاشرة وتظهر مزاج الشّخص وطبيعته ولا تعرف هي شخصيّته وطبيعته ومزاجه أيضا إلاّ ما يكتبانه على صفحة تواصلهما. هو يكتب توضيحا كلّ شيء ليظهر لها شفّافا كما هو لتعرفه جيّدا وعن كثب حتى لا تصدم يوما آخر يوم تكتب له و يتزوجها، إن شاء القدر، ولم يخف عنها حتى دقائق تفاصيله. وهي تكتب تلميحا، باقتضاب و بحذر الأنثى وإن فكّك بعض طلاسم غموضها و عرف عنها ومن قراءاته بين السّطور أهم ما يودّ معرفته وأهمّ ما يجذبه إليها ويدنيها ويجعل الانسجام ممكنا بل مؤكّدا فهما يتوافقان في أكثر النقاط و

أهمّها... لكن من الواضح له أنّ شخصيتاهما قويّتان رغم كلّ شيء، فهل ينسجمان أمام رياح المشاعر وعواصف الحياة ! ؟

فتح جهاز هاتفه، بحث عن قارئ الأغاني وراح يستمع بعمق لإحدى روائع أم كلثوم ويده على خدّه وفي داخله يردّد: "إنه عيد لا كالأعياد" ألزمته الكورونا شقّته وأبعدته عن عائلته... كان يخاف على أمّه وأبيه أكثر من خوفه على نفسه...

يا حبيبي طاب الهوى ما علينا لو حملنا الأيّام في راحتينا
صدفة أهدت الوجود إلينا وأتاحت لقاءنا فالتقينا
في بحار تئنّ فيها الرّياح ضاع فيها المجداف والملاّح
كم أذلّ الفراق منّا لقاء كلّ ليل إذا التقينا صباح
يا حبيبا قد طال فيه سهادي غريبا مسافرا بفؤادي
سهر الشّوق في العيون الجميلة حلم آثر الهوى أن يطيله
وحديث في الحبّ ان لم نقله أوشك الصّمت حولنا ان يقوله
يا حبيبي وأنت خمري وكأسي ومنى خاطري وبهجة أنسى
فيك صمتي وفيك نطقي وهمسي وغدي في هواك يسبق أمسي
هل في ليلتي خيال النّدامى والنّواسي عانق الخيام
وتساقوا من خاطري الأحلام واحبّوا واسكروا الأيّام
ربّ من أين للزّمان صباه ان غدونا وصبحه ومساه
لن يرى الحبّ بعدنا من حماه نحن ليل الهوى ونحن ضحاه
ملء قلبي شوق وملء كياني هذه ليلتي فقف يا زماني

***

هناك وراء البحار، كان الدّكتور شهاب ينشر أبحاثه فيزداد شهرة وتألّقا ويزداد الوثوق بما يكتب. بدأت الدّكتورة تتابعه وتسمع صدى نجاحاته في اجتماعاتها، وبدأ الأمل الذي ردم تحت أنقاض الأيام يطفو من جديد بعدما كان مجرد ذكرى. هناك بعض الجمرات تحت رماد الحبّ، لم تنطفئ بعد !

.ألهذا الحدّ سكن الأعماق تسأل نفسها؟

.ثم يهتف لها صدى من نفس المكان" ومجد !

إنها في دوامة منذ تركها وركب عناده وخرج ! وتراءى لها أنّها شفيت من هواه فمن أين خرج لها ثانية ؟! تخرجه من القلب فيظهر في البال وأخيرا يعود للقلب !

أما عن مجد، فقد استمرّ التواصل بينهما عذبا سلسبيلا وكلّ منهما تفهم ظروف الآخر. الظروف النفسيّة لمجد والظروف العائلية للدكتورة وللتقارب لا بد من التفهّم والتفاهم. أرسل لها أغنية حنونة لنجاة الصّغيرة، موكب حبّ أحبّها ووجد فيها رسالة واضحة إليها، تسمعها على راحتها وتفهمها كما تريد وأرسلت له صورة جميلة جذّابة لها التقطتها يوم العيد هدّأت ممّا كان به من صبابة ووله وجوى. عاد له صفاء مزاجه وينبوع إلهامه وتمنّى لو أرسلتها له صبيحة يوم العيد لما كانت له تلك الكميّة الرهيبة من الغمّ والحزن والألم. يبدو حسب تحاليله الأوليّة أنها معتدّة كثيرا بنفسها، لها أنفة وعلوّ همّة و شأن وهي الطبيبة الجميلة الشابة، منحازة لرأيها بل متعنّتة بعض الشّيء وقويّة الشّكيمة، صعبة الشّخصيّة والمراس. تمنّى ألا يكون الواقع كذلك وأن يكون مخطئا في بعض جزئيات التحليل ليحقّق معها الآمال والأحلام والتفاهم والوفاق وليسيرا في مسالك الحياة جنبا لجنب.

أمّا هي فيبدو أنها تحبّه بهذه الأنفة بل يبدو أنها معجبة به، في مرتبة الصّديق الحميم ولم يصل بعد إلى مرتبة الحبيب أو ربما كانت تؤجل البوح بذلك حتى تراه وتحادثه. وفي الحقيقة قلبها مشغول بأول حب ولا تستطيع التحكم فيه. في دردشة ذات يوم قالت له إنها وفيّة، تحب الرّجل لا لجماله أو ماله أو حسبه بل "لشخصيّته وعقليته وإخلاصه واتزانه" وإن كان ينقصها عدم الاهتمام بل أحيانا لامبالاة مقيتة تدعم ما يجول في خاطره ومازال يجد لها الأعذار حتّى يراها ويحادثها ويبحر من خلال عينيها في أعماق نفسها ولا يعلم الخفايا إلا الله، ولا تتحقق إلا أقداره...

ستعود إلى العاصمة وستجد مزيدا من الوقت للاتصال به فالوقت الذي قضته في منزل أختها خلال فترة العيد ورغم الكوفيد والحجر الصحّي الشّامل المفروض على كلّ البلاد والعباد كانت تقضي أوقاتها في " لمّة عائلية" مسترسلة، متسلّحات بالكمّامات والتّباعد. عائلات الأخوات والعمّات والخالات والجارات ولا وقت للانزواء أو القيام بمكالمات هاتفيّة في غياب شبكة الاتّصالات ولا حتّى مسك الهاتف وتصفّح ما فيه فهم لا يلتقون إلا في مثل هذه المناسبات...

أوصاها بالبقاء على اتّصال به على عادتها، كلما أمكن ذلك، ومدّه بما يجد من جديد حسب ظروفها وزوّدها بأغاني الرّحلة وببعض مخطوطاته لمطالعتها فتستفيد من ناحية ولا تحسّ بطول الرّحلة من ناحية أخرى.

هو كذلك، نفسه التّائهة عنه في زحمة الحياة لا يلتقيها إلا عندما يعود في تلك المناسبات القليلة إلى موطن الصّبا حيث ذكريات الأهل من غاب منهم ومن لم يزل تنبثق من كلّ مكان بحنين يجلده جلدا في بعض الأوقات. كم هي بهيّة طريّة تلك الحياة الهادئة وتواصلها رغم كلّ شيء.

حيث هو، في المدينة الصّلبة الصمّاء، كانت الأجواء الخاصّة به كعادته يطالع الصّحف، يتابع الأخبار العالميّة ويكتب دون أن ينقطع عن الاستماع إلى الرّاديو أو الموسيقى ويحبّذ بصفة خاصّة على غير عادة جيله الموسيقى الكلاسيكية، موسيقى الثمانينات وما قبلها وبمختلف اللغات واللّهجات وقد أخذ من وقته متابعة مستجدّات الكوفيد وخاصة الأوضاع في غزة والقدس وأراضي فلسطين المحتلة عموما، وهو الذي يعشق الرّجولة والشّهامة، والنّخوة والإباء ...

طوال الرحلة كانت تكتب له لكنّها كانت حزينة قلقة لم تأخذ كفايتها كما تريد من أمّها وأبيها وهما اللذان لا يعوّضان في الحياة بأي كائن كان. كان مجد يخفف عنها بما يستطيع فطبيعتها صعبة متقلبة شديدة الحساسية رغم قوتها الظاهرة، ومزاجها المتقلب هذا الذي صاحبها طوال حياتها يتعكّر عن حين غفلة ويبقى هكذا لا يؤثر فيه أي شيء حتى يعود إلى انشراحه متى أراد ذلك... صديقها يفرح لفرحها ويحزن لحزنها، يضحك لضحكتها ويتعذب لعذابها الدّاخلي مهما أخفته أو حاولت ذلك فهما روحان منصهرين في روح واحدة تراوح بين جسدين...

لقد عرفها جيدا وتمنّى لو يستطيع إسعادها وتجديد خلاياها للحياة فظروف الالتقاء بها صعبة رغم نداء نفسه التي تدفعه إلى أن يراها في أقرب فرصة ورغم خوفه الشديد من تقلّب مزاجها فهو يريد أن يرى الملاك المجرّد من نوازع البشر هذه التي أحبّها وعشقها لا لشيء الا ليراها ويحمد الله ولعلّها تكون يوما من نصيبه فتلوّن حياته بألوانها الزّاهية...

منذ أن تعرّف عليها عاش معها بصدقه وقلبه ووجدانه كلّ لحظات حياتها الظّاهرة والخفيّة لقد قرأها من بين سطورها وأحبّها حباّ لم يقرأ عنه أبدا في القصص الغراميّة ولم يعرفه في حياته المليئة بالنّجاحات لكنّها مليئة أيضا بجفاف عاطفي رهيب فاهتماماته كانت دائما لا تتجاوز الدّراسة والبحوث والأدب والشّعر وأنشطة المجتمع المدني ومختلف الفنون. و ها هو يتعرّف عن كثب بروحه وحدسه عن أدقّ تفاصيلها فيزداد حبّا لها وقربا منها. بدأ يكتشف شيئا فشيئا صديقته ويغوص في أعماق أعماقها كلّما فتحت له كوّة أو وجد ثغرة لذلك وحزّ في نفسه ما تجده من تعب وإرهاق وسوء حظّ أينما توجهت وما يسلّط عليها من ضغوطات وإرهاصات متنوّعة وأعجب بطاقة استيعابها وتحمّلها لذلك وقدرتها على تجاوز ما يعترضها.

من الضّروري أن يلتقي بها في أوّل فرصة تتاح له هذه المرّة لا ليتسلّم الكتاب المرجع فقط بل ليتفق معها هل تقبله رفيق حياتها وزوجا لبقية المشوار ويتوّج هذه العلاقة المتميزة بزواج تتعانق فيه روحاهما إلى الأبد. لم يعرف ما يسمّيها "العلاقات الفارغة" ولم يعد باستطاعته الانتظار وللصّبر حدود كما تقول مطربته أم كلثوم لكنه حبّذ سماع هذه الأغنية التي تؤجّج حنينه وتشجيه وتطربه من كلمات أحمد رامي... ربّما لو سمعتها الدّكتورة لكان لها حنين آخر بطعم آخر...

ذكرياتٌ عبرتْ أفقَ خيالي

بارقًا يلمعُ في جنحِ الليالي

نبَّهتْ قلبِيَ من غفوتِهِ

وجَلَتْ لي سِتْرَ أيّامي الخَوالي

كيفَ أنساها وقلبي لمْ يزلْ يسكُنُ جنبي

إنَّها قصّةُ حبِّي

ذكرياتٌ داعبَتْ فِكري و ظنِّي

لستُ أدري أيُّها أقربُ مِنِّي

هي في سَمْعِي على طُولِ المَدى

نَغَمٌ ينسابُ في لَحَنٍ أغنِّ

بينَ شدوٍ وحنينْ وبكاءٍ و أنينْ

كيفَ أنساها وسمْعي لمْ يزَلْ يذكرُ دمعِي

وأنا أبكي مع اللحنِ الحزينْ

كان فجرًا باسمًا

في مُقلتَيْنا يومَ أشرقْتَ من الغيبِ عليَّ

أنِسَتْ روحي إلى طَلْعتِهِ

واجتَلتْ زهرَ الهوى غضًا نديًّا

فسقيناه ودادًا ورعيناهُ وفاءً

ثُمَّ هِمْنا فيهِ شوقًا وقطفناهُ لقاءً

كيفَ لا يشغلُ فكري طلعةٌ كالبدرِ يَسرِي

رقَّةٌ كالماءِ يجري فتنةٌ بالحب تَغري

تتركُ الخالي شجيًّا

كيفَ أنسى ذكرياتي وهيَ في قلبِي حنينْ

كيفَ أنسى ذكرياتي وهيَ في سَمْعي رنينْ

كيف أنسى ذكرياتي وهيَ أحلامُ حياتي

إنّها صورةُ أيَّامي على مِرآةِ ذاتي

عشتُ فيها بيَقِيني و هي قُربٌ وَوِصالْ

ثُمَّ عاشَتْ في ظُنوني وهيَ وَهْمٌ وخيالْ

ثُمَّ تبقَى لي على مرَّ السّنينْ

وهيَ لِي ماضٍ من العمرِ وآتِي

كيفَ أنساها وقلبي لمْ يَزلْ يسكُنُ جَنبي

إنَّها قصّةُ حُبِّي

استمعت بتمعّن ورويّة للأغنية التي أرسلها لها صديقها مجد ثم تنهّدت قائلة:

.ومن منّا ينسى قصّة حبّه الأولى المنقوشة على جدار القلب وأعماق الوجدان !

***

مازالت تنتظر العودة إلى العمل فقد طالت مدّة راحتها وأحسّت أنّها شفيت تماما من آثار ما ألمّ بها بغتة وقد كانت أرهقت طوال مدّة التحضير لمقاومة الجائحة بما تيسّر من تلاقيح قادمة من وراء البحار. ونحن في أواخر الرّبيع بدأت طلائع النّاموس تزحف على السّكّان وقد أنهكهم الحجْر وأضرّ بهم الحظر وقلّص لكثير من النّاس من أرزاقهم ومواردهم ومداخلهم أضف ما تركه الشهر المبارك من آثار على جيوبهم. الصّيف الحارّ يتقدّم بكلكله فللاصطياف مصاريفه ولمواسم النّجاحات والزّواج والختان ومختلف الأفراح مصاريفها أيضا والمواطن العادي يئنّ تحت وطأة كلّ هذه الالتزامات. جائحة الكوفيد لم تترك المكان ولم تتحرّك قيد أنملة بل زادت في ألمها وأحزانها وتوسيع رقعة مخيّمها بمختلف سلالاتها المتجدّدة.

فقد وصل ضحايا الجائحة إلى حدود يوم 17 ماي إلى 11849 وفاة منذ بدايتها في 2 مارس 2020 والمتعافون 287644 أما العدد الجملي للمصابين فبلغ 326572

و أبدت النّاطقة باسم الحكومة حسناء بن سليمان تخوّفها من انهيار المنظومة الصّحيّة في ظلّ الارتفاع الكبير في أعداد المصابين بالفيروس، مؤكّدة أنّ البلاد تواجه خطرا كبيرا متمثّلا في إمكانية نفاذ أسرة الإنعاش والأكسيجين وعدم توافر الموارد الطبيّة.

وقالت حسناء بن سليمان " إنّ الارتفاع الملحوظ في أعداد المصابين بفيروس كورونا دفع الحكومة لمواصلة إجراءات الغلق في تونس بناء على تقييم من اللّجنة الوطنيّة لمجابهة الفيروس، مطالبة الجميع بضرورة الالتزام بإجراءات الحجْر الصحّي "حتّى لا تتعرّض البلاد للخطر الأكبر وهو انهيار المنظومة الصّحيّة ".

وأضافت أيضا أن هناك تطبيق لإجراءات الحجْر الصحّي الإجباري للوافدين إلى تونس من الخارج في ظلّ ظهور سلالات كورونا المتحوّرة الخطرة في عدد من دول العالم وأشارت إلى أن منظومة التلقيح بدأت تشهد انفراجا كبيرا في تونس في ظلّ زيادة مراكز التلقيح[24].

في هذه الفترة كثر التلاعب باحتياجات النّاس ومقوّمات حياتهم ومنها الأدويّة الضرورية إذ فقد حوالي خمسمائة صنفا منها وابتلع التّهريب هذا القطاع كما ابتلع قطاعات حيويّةّ كثيرة أخرى .

"المنظومة الصّحيّة الهشّة، وميزانية الصّحّة العامّة التي تكاد تكون معدومة، والكوادر الطبيّة التي تشعر بالضّيم نتيجة تهميشها على مدى سنوات.. كل ذلك دفع بالسّلطات الحكومية إلى التعويل على "وعي الأفراد" وإطلاق حملات تبرّع من أجل مواجهة الوباء، تحت شعار "الوحدة الوطنية" التي تُفعّل دائماً في ظلّ الأزمات الكبرى." يقول متابعو الوضع.

المهندسون بزعامة عمادتهم مازالوا في إضراب مسترسل ويتواصل ولا حلول في الأفق وروزنامة اجتماعاتهم وتحرّكاتهم التّصعيديّة تصل إلى موفّي شهر ماي وربّما تتواصل إلى منتصف شهر جوان والبلاد برمّتها على كفّي عفريت ماكر ولا يعلم إلا الله متى استكانته وهدوءه.

24 سكاي نيوز 2021/05/16

تواصل معها إلى أخر الليل، تناولا مشاغل السّاعة، أحداث فلسطين ومستجداتها، الكوفيد ومآله، إضراب المهندسين وظلاله وتبعاته فالعالم يلهو به مارد لا يعرف إلا الله نهايته. قبل أن ينام أحسّ برغبة في الكتابة، هنالك مشاعر جياشة تتدافع بعضها واضح وبعضها مبهم...

أحبّك

أحبّك والقلب لك ينبض

و أنت علاك كما الأنجم

وأنت الثرى وأنت الثريا

وأنت التراب الذي ألثم

أحبّك صدقا

فأنت المياه وأنت الهواء

وأنت الحياة التي بها أنعم

فمهما بعدت ومهما سموت

فعمق هواك لي يلهم

وعلى غير عادته استيقظ قبل الفجر وتفقّد هاتفه لأنّه نام ولم تصله تلك الكلمة السّحرية منها، لم يجدها فانقبض قلبه وزاد استياءه وحاول النّوم مرّة أخرى فلم يفلح. بدأ في مراجعة مراسلاتها ويحاول القراءة بين السّطور وتفسير ما يمكن أن يفسّر وفي أعماقه يحسّ بتغيّر مزاجها منذ عودتها بعد العيد. تغيّرت صديقته تغييرا جذريّا، لم تعد هي الضّامرة الضّاحكة العاشقة المحبّة. هناك أشياء تعتمل داخلها وتغلق عليها صندوق أسرارها، أشياء تموت وأخرى تولد، أشياء تتعلّق بحياتها وعملها وعائلتها ومحيطها وعلاقاتها، أشياء يحسّ بها بحدسه لكنّه لا يعرف كنهها وخوفه أن يخسر تحت ضغوطاتها الخارجيّة هذه العلاقة اليوميّة التي تعوّد عليها منذ أشهر وضخّت في قلبه دماء التفاؤل والسّعادة. ثم ينشرح فجأة ويقول هكذا هم المحبّون في كلّ زمان ومكان، يتقاذفهم الوجد، يقرّب لهم المحبوب إلى عتبة الباب ثم يبعده إلى أقصى مكان مع ما يلازم ذلك من مشاعر شتّى متقلبة، متضاربة وغامضة غموض النفس البشرية ذاتها. لكنه أحس في أعماقه أن صرحا عظيما، لا يعرف كنهه، تهاوى وانهار وهوى في قلبه فارتجّ له كامل جسمه، لم يتحمّله ولم يقو عليه وهو الشاعر الرقيق الحسّاس. أحسّ بوجع شديد في رأسه ولم يتمالك نفسه، سألها لماذا تغيرت؟ أجابت أبدا لم أتغير، الضغوط اشتدت على نفسي وألف سؤال وسؤال حائر في حياتي يبحث عن جواب وجهاز الهاتف ليس دائما في متناول يدي بل غالبا في محفظتي وأنا أقود سيارتي وأتسوق أو أقضي بعض الشؤون. أنت بعيد عن كل هذا، ظروف أخرى تحيط بي وتنهشني نهشا. لم أعد أحتمل شيئا. أحسّ بصدقها ولكنه لا يستطيع لظروفها شيئا لأنه ببساطة لا يعرف عنها الكثير وآل على نفسه ألاّ يزعجها بالأسئلة، بل سيردّ على تساؤلاتها كلّما عنّ لها ذلك، وبدأت هواجس غريبة تزعجه وتنفخ في رأسه كرياح الليالي العنيفة.

الحبّ هو ذكاء المسافة. الاّ تقترب كثيرا فتلغي اللّهفة ولا تبتعد طويلا فتنسى. الاّ تضع حطبك دفعة واحدة في موقد من تحبّ. أن تبقيه مشتعلا بتحريك الحطب ليس إلاّ... دون أن يلمح الغير ذلك...

والاعتدال أجمل ما في الحياة وخوفه أن يخسرها من جرّاء هذا الحبّ القويّ الجارف الصّادق فكلما بلغ الشيء حدّه انقلب إلى ضدّه وكل شيء يبلغ ذروته يزداد قربا من نهايته هكذا تراوده هذه الأفكار ويزداد اقتناعا بها.

في المساء تجاذبا أطراف الحديث والحديث ذو شجون أخذهما إلى الخوض في غمار الكثير من المواضيع كالأوضاع الاجتماعيّة بالبلاد. إضرابات المهندسين والقباضات المالية والنقل والغلاء الفاحش وهبوط مستوى التعليم وعدم إتمام البرنامج للكثير من المستويات. الأزمة السّياسيّة وجائحة الكوفيد وما انجرّ عنها اقتصاديا والوضع العالمي وقضيّة الشّرق الأوسط. فلسطين ذاك الجرح الغائر النازف المزمن في جسم الأمّة العربيّة... وبدأ يخطط بينه وبين نفسه للالتقاء بها ليتعرّف عليها عن كثب فالأيام تجري ولا يستطيع الانتظار أكثر ممّا انتظر في زمن تعدّدت فيه الجوائح. ولم تلبث أن أرسلت له أغنية أزاحت ما اعتمل ويعتمل في ذهنه المكدود.

حول كأسي شاي على ناصية الشارع حدّثه صديقه ورفيق السّكنى عن نفس الموضوع الّذي تحادث فيه مع صديقته، عن الأوضاع في فلسطين المحتلة وعن صّحوة الشعوب العربيّة لاسترجاع الحقّ الضّائع إذ تتواصل التحرّكات المنادية بوقف العدوان على الشّعب الفلسطيني اليوم وغدا ، حيث دعت أحزاب ومنظّمات

وطنيّة وجمعيات انطلاقا من التزام الشّعب التّونسي وقواه الوطنيّة السّيادية والتقدميّة بقضايا التحرّر الوطني والانعتاق الاجتماعي، ومن موقع الانخراط الميداني في النضال المتواصل ضدّ عصابات الكيان الصّهيوني وضدّ الإمبريالية والرجعيات العربية بعد نجاح المسيرة التي نظّمتها دعما للمقاومة والتي تزامنت مع ذكرى النكبة، ومختلف المسيرات والوقفات بالجهات، ومن أجل مواصلة التعبئة الشّعبية الواسعة لإسناد المقاومة في الأراضي المحتلة، وذلك دعما لانتفاضة أهلنا في فلسطين وإسنادا لقوى المقاومة الوطنيّة من خلال التظاهر اليوم منتصف النهار أمام مقر البرلمان للمطالبة بالمصادقة على قانون تجريم التطبيع. و إلى المشاركة أيضا في المسيرة التي دعا إليها الاتحاد العام التونسي للشغل يوم الأربعاء تحت عنوان «دعما للمقاومة ومن أجل تجريم كل أشكال التطبيع بشارع محمّد الخامس والمساهمة الفاعلة كلّ حسب مجاله في التنديد بالعربدة الصهيونية.

إلى جانب ذلك تنتظم سلسلة من الوقفات والاحتجاجات أمام السّفارات الداعمة للكيان الصّهيوني ومن المنتظر الإعلان عن تشكيل التنسيقية الوطنية الموحّدة لدعم المقاومة الفلسطينية وتجريم التطبيع وهي مفتوحة أمام كل القوى والشّخصيات الوطنية الرّافضة للتطبيع وكذلك الدّعوة إلى الإمضاء على عريضة شعبيّة بكافة جهات البلاد من أجل فرض سنّ قانون تجريم التطبيع والتي سيتمّ نشر نصّها في الصّفحة المخصّصة للتنسيقية."

وصديقه فهمي يقرأ له مقالا من جريدة المغرب[25] يجد هوى في نفسه ويدغدغ مبادئه، مرّ أمامهما شاب في مقتبل العمر تبدو عليه بعض الهلوسة، حرّكت فيه بعض الشفقة الإنسانيّة الكامنة في أعماقه، فأجابه رفيقه: هذا الجامعي المتميّز، المعطّل عن العمل، يعاني من انهيار عصبيّ شديد الوطأة على عقله فلوّثه نتيجة حبّ فاشل وما أكثر الحبّ الفاشل في كل الأزمنة وخاصّة في الزمن الأعجوبة هذا، فشبكة التواصل الاجتماعي شبكته ذات يوم بحبّ امرأة جميلة ، تفرج عن كربها وهمومها وما تخلّل أيّامها من خلاله بعذب كلامها وعسل حكاياتها، فتعلّق بها صاحبنا حدّ النخاع إلى أن انسحبت من حياته ذات يوم وتركته كالمجنون يلهث من مقهى إلى مقهى وهو يردّد: " تعيس من يعشق امرأة متزوجة، بل مجنون ومعتوه ومغفّل " فيجيبه بعضهم : " وماذا تنتظر من امرأة افتراضيّة لا تعرفها ولا تعرف هل هي حقّا متزوّجة أم لا ؟ صغيرة أم كبيرة...؟" فكان يضحك ضحكات هستيريّة مسترسلة تثير دهشة واشمئزاز بعضهم وشفقة البعض الآخر وتحرّك في أغلبهم نوازع الرّيبة والشّكوك والخوف وتفتح عيونهم على بعض عيوبهم وجلّ الهنات وثغرات المجتمع و الحياة..

عقّب صديقه "الدّنيا حظوظ" أنا أيضا لم أتعلّق ولم تتعلّق بي إلا المتزوّجات الهاربات من زواج فاشل وجحيم خفيّ عن العيون إلى حياة أخرى افتراضيّة موازية أفضل ألف مرّة من حياة واقعيّة مرّة مرارة العلقم. لم أتعرّف على من ستكون زوجتي إلا أخيرا وبعد لأي وعبر هذا الوسيط، وهي أيضا ضحيّة زواج فاشل... وأرجو أن أوفّق في ذلك. إحداهنّ، وهنّ كثيرات، واسمها كوثر قالت لي ذات مرّه أن حياتها كلها محطّات حبّ وأنها حسب تجاربها لا تؤمن بالعلاقات الدّائمة فهي كلها محطّات

25 جريدة المغرب – كريمه الماجري 2021/05/18

عابرة كالحياة نفسها. أوّل حبّ كان في المعهد وهو أول اكتشاف لكنّه الحبّ وماهيته وأوّل فترة تتحرّر فيها من قيود الإخوة والوالدين. قالت له: "كانت علاقة نظيفة بريئة نلتقي في حافلة نقل التلاميذ، أنتظر ذلك بكل جوارحي، كان أول حب قويا جارفا جرفني معه ولم أستطع له ردا... كبرنا وتزوجنا والتقينا ذات يوم صدفة فالإدارة التي يعمل بها تقع بجانب إدارتي ومنذ ذلك اليوم ربطتنا صداقة قوية. أما في الجامعة فقد أحببت بصدق حبّا ثوريّا قويّا إذ خلصني من كل القيود، ربطت صديقي علاقة بفتاة ثورية أخرى لم أتحمّل ذلك وابتعدت عنه بصعوبة مازالت جراح الرّوح تشهدها إلى الآن. ثم تعرفت على زوجي. كان حبا ناضجا، عقلانيا فيه ما يكفي لإقامة عشّ الزوجية والإنجاب والاستقرار. وبعد عشر سنوات دق قلبي من جديد، إنها الحياة تقول كوثر. تجمدت مشاعر زوجي وغابت الملاعبة والمداعبة وكلمات الغزل التي تتفتق بها أنوثة كل امرأة فتزهر وتثمر وانقطع الوصل وخيم الروتين القاتل وجو حزين بارد مدلهم. كل صباح أنظر لنفسي في المرآة وأحزن على ضياع شبابي بين عشية وضحاها. عشقت نفسي واهتممت بها وعشقت من جديد وأصبحت أيام حياتي عسلا مصفّى. ازداد عطائي في المنزل والعمل وذهب تبرّمي من كل الأعباء التي كانت ترهقني سابقا، وتفتّحت براعمي من جديد وعشت أيام خطوبتي من جديد مع الجديد. كنت أنتظر المواعيد بشوق وأذهب إليها كطفلة سرقت موعدا مع حبيبها عوضا عن حصة في معهدها بكل ما لدي من طاقة ومحبة وشوق. لكن صراعي مع ضميري والموروث الثقافي الذي عشت فيه غلباني على أمري وأيقظاني من الحلم الذي عشته بعذوبة وضاع من عشقته في الزحام وأضيف لي جرح لم يندمل بعد كبقية جراح حياتي. وها إنني أتحدث وأتأفف والعن واشتم وهذا أفضل بكثير من

حبّ واقعي أعيشه بخوف ويعطيني سعادة زائفة وكآبة دائمة رغم جبال الثلج بيني وبين زوجي ثم لم تلبث أن هجرته هو أيضا لأنّ حالتها المرضيّة لا تستقر.

تشجّعت ورمّمت حياتي الزوجيّة وأنقذتها من الضّياع حتى لا أضيع بل لا نضيع كلنا تقول كوثر... وها إنّني كلما استبدّ بي القلق والضّجر وصدأ الرّوتين التجئ صحبة صديقتي الحميمة إلى " قهوه بالبلاد العربي" أو رياضة تزيح ما تكلّس في جسمي وعقلي بالمسلك الرّياضي بالمنزه.

أما من تسمّي نفسها منى فحكايتها لا تختلف عن الأخريات، تحرّرت من كل القيود أثناء دراستها الجامعيّة وتعرّفت على صديق حركيّ أعجبت بأفكاره ونضاله وشجاعته وتاهت معه بعيدا في بحار الحبّ " في بحار تئن فيها الرياح ضاع فيها المجداف والملاح" ولم يلبث أن أعتقل صديقها وحكم عليه بعشر سنوات سجن نافذة ولم يترك لها إلا أغنية هذه ليلتي تلوكها إلى اليوم. تعرفت على طبيب وتزوجته، وحبيبها في السّجن، بغية الاستقرار. أكمل صديقها أيامه وخرج لكنه قد يكون استاء منها أو من مواقفها بعد ذلك، فها هي تنتظر "جاماته" بفارغ الصّبر وتسعدها كلما وقعت إحداها على منشور لها، غير ذلك لا يوجد هنالك تواصل، فجراح القلب ربّما تلتئم ذات يوم ويداويها العقل بمعيّة الأيام أما جراح الروح وشقوقها فلن تهدأ ولن تبرأ ولن تندمل أبدا...

تعلّق أخرى:" لي صديقة نزّلت صورتها فانهالت التعليقات من نوع "محلاك، تبارك الله، ما أجملك..." وكل تلك العبارات المألوفة رغم ان جمالها عادي ولا يستحق كل هذه المبالغة، تدخّل زوجها وبدا يرد على التعليقات بالسّب والشتم لكل من وضع لها تعليقا يشتم منه رائحة الإعجاب والتغزل ويقول له تلك زوجتي يا... يا.... يا...

سألتها لماذا لم تحذفي التعاليق وأنت تعرفين ان ذلك يزعجه أجابت لأنه لا يسمعني مثل هذا الكلام ابدا وكلما احتجت لسماعه نزّلت صورتي ليس حبّا في كلامهم بل إرضاء لأنوثتي وشعوري بالسّعادة عند سماعه. أجبتها وهم كذلك لديهم فائضا من الكلام الجميل لكنّهم يضعونه في غير مكانه ويحرمون منه حبيباتهم وزوجاتهم لغاية معلومة ومغلوطة وربّما هذا ما يفعله زوجك مع غيرك ولا داعي للعجب فنحن العرب حتى في طريقة حبّنا " معوجين." ولعل هذه الأشياء هي التي أولدت مسالك أخرى كثيرة لإرضاء الذات وإسكات الأنا وتلبية رغبات النفس الأمارة بالسوء...

حدثته أخرى، وهي امرأة جميلة، تنتمي الى قطاع الصحة قائلة: "لقد بدأت العمل بالمستشفى الجامعي بسهلول في سوسه ولي ذكريات لا تنسى هناك، اذ انتقلت الآن الى احدى مؤسسات ولايتي.. سكنت بمنطقة "كوشة البيليك" ثم بعمارات بوحسينه وكنت اقف الدقائق الطوال "بڤار النمسا" أمام مكتبة "كوبي" انتظر الحافله "13"c جوهره - سهلول، بعد خمس سنوات من معاناة البداية التي لا بد منها، تزوجت وبعد خمسة عشر سنة منذ يوم البداية عدت الى مسقط الرأس.. بنتي البكر وابني انجبتهما هناك... لم أنس سوسه بشوارعها وانهجها ومغازاتها وملاهيها وحدائقها وشواطئها الجميلة ومستشفياتها الجامعية وها إنني أعود صحبة العائلة كلما عن لي ذلك فأستمتع، أعيش الذكرى وأعود"... سوسه لا تنسى!

فعلا إنها الحياة، والحياة الزوجية محيط هادئ في ظاهره وفي أعماقه كل شيء، كل ما نتخيله ونتصوّره. ردّد مجد بينه وبين نفسه وأطلق تنهيدة طويلة وزفرة حرّى وفي أعماقه هو تتربع الدّكتورة وتجلس القرفصاء، يتمنّى أن تكون من نصيبه وأن تسعد معه سعادة أبديّة في محيط عائلي هادئ السّطح والأعماق...

كعادتها دائما اتّصلت به ليلا، هذه المرّة منشرحة لا يبدو عليها هذا التوتّر الذي احتلّ مزاجها، إذ أرسلت له طبقا متنوّعا من الحلويات ينعش النّفس ويحيي ما مات فيها. فنيّة الافتراضي ولذّته لا تختلف كثيرا عن نيّة الواقع ولذّته، وإنما الأعمال بالنيّات. بعد المسافة يتطلب ذلك والمعنويات كذلك و للحركة الجميلة ذاتها، أبعادها القيّمة. ها هي تحسّ بتحسّن حالتها النفسيّة وبعض مشاكلها المهنيّة في طريق الحلّ، فقد أرهقت بدنيا و نفسيّا طوال الأشهر الأخيرة. إيقاع العمل المسترسل المتواصل أنهكها وأقلقها وأضجرها وكم تمنّى لو انتقلت إلى إحدى مدن السّاحل إذ قد يدفعها هذا أن تقبل به زوجا فيبنيان العشّ الآمن معا بتوآده وتفهم وتفاهم وانسجام.

فتح جهاز الحاسوب وبدأ يبحث عن أغنية هذه ليلتي التي أوحى بها طبق الحلويّات الافتراضي وراح يدندن مع الأغنية وفي خياله وحسب الصّور التي ما فتئت ترسلها له، تتهادى صديقته الدّكتورة بشعرها الحريري الجميل ونظاراتها الأنيقة وجمالها الصّارخ وشموخها الرائع و أنفة الكبرياء فيها. و بأعماقه ترنّ صدى كلمات الأغنية التي طالما تبادلها معها في لحظات ثمينة سرقاها من الزّمن الذي لا يرحم ولا يتوقّف عن الدّوران... كلمات الشّاعر اللبناني جورج جرداق على عادة أم كلثوم في الغناء لكل شعراء الأمة العربية كإبراهيم ناجي وعبدالله الفيصل والشريف الرضى وبيرم التونسي والهادي آدم على سبيل الذكر لا الحصر.

فادن منى وخذ إليك حناني ثم اغمض عينيك حتى تراني
وليكن ليلنا طويلا طويلا فكثير اللقاء كان قليلا
يا حبيبي طاب الهوى ما علينا لو حملنا الأيام في راحتينا
صدفة أهدت الوجود إلينا وأتاحت لقاءنا فالتقينا
في بحار تئن فيها الرياح ضاع فيها المجداف والملاح
كم أذل الفراق منا لقاء كل ليل إذا التقينا صباح
يا حبيبا قد طال فيه سهادي غريبا مسافرا بفؤادي
سهر الشوق في العيون الجميلة حلم آثر الهوى أن يطيله
وحديث في الحب أن لم نقله أوشك الصمت حولنا ان يقوله
يا حبيبي وأنت خمري وكأسي ومنى خاطري وبهجة أنسى
فيك صمتي وفيك نطقي وهمسي وغدى في هواك يسبق أمسي
هل في ليلتي خيال الندامى والنواسي عانق الخيام
وتساقوا من خاطري الأحلام وأحبوا وأسكروا الأيام
رب من أين للزمان صباه ان غدونا وصبحه ومساه
لن يرى الحب بعدنا من رعاه نحن ليل الهوى ونحن ضحاه
ملء قلبي شوق وملء كياني هذه ليلتي فقف يا زماني..

لكنه ترجّى زمانه ألاّ يقف الآن وأن يمهله بعض الوقت حتّى تمكّنه الأقدار من الالتقاء بمن اختارها قلبه أوّلا والاتفاق معها ثانيا ورؤيتها معه بثوب الزفاف الأبيض، أخيرا، ليهمس له عندئذ بكل لطف ومودّة: "هذه ليلتي فقف يا زماني " وإنّك يا حب لقيمة إنسانية ثابتة...

إنها فترة صعبة وعصيبة من حياة النّاس فمنذ ما يزيد عن السنة وضحايا الكوفيد بالعشرات يوميّا من مختلف الشرائح والأعمار، فهي عادلة ولا تفرّق بين هذا وذاك. جو حزين خانق في الشوارع وأماكن العمل والفضاءات والمساحات والأماكن العامّة... تقلصت زيارة الأقارب و الأسر المتصاهرة والأسفار وعمّ شيء من التوتّر والقلق الأجواء العامة. بدأت حرارة أواخر الربيع وبداية الصيف خانقة مزعجة، ورغم ذلك قرّر مجد أن يلتقيها بعد أيام معدودات. خوف بات يزعجه ألاّ يراها أبدا لسبب أو لآخر فللحياة عجائبها وغرائبها وقد حنكته معاركها وسلحته التجارب وجعلته يعيش ليومه فلا ثقة له في غده، ومتى كانت هنالك ثقة في الحياة فهي كالغانية الجميلة اللعوب وما تخبّؤه الأقدار لا يعلمه إلا الواحد القهّار.

الفصل الحادي والعشرون

في سهرة جميلة رائقة كسهرات ليالي شهر رمضان العبقة أرسلت له فنجان قهوة تركيّة يبدو أنها طبختها على نار هادئة بعدما أمطرها في فترات من يومه هذا بقصائد شعرية بلغة عربية سلسة وأخرى رومانسية فرنسية كأنها آتية من وراء البحار. كانت ألهمته إياها بحضورها الأنيق في باله وخياله بتلك التحيّات المهذبة المنمقة التي كانت ترسلها بين فينة وأخرى حسب ما يسمح به وقتها وظروفها. فنجان مزركش جميل تبدو به قهوة تركية تكاد رائحتها تدغدغ خياشيمه لو لم تكن آتيه من مسافة طويلة وبعيدة نسبيا عبر الأثير. لكنه أحسّ بروح صاحبته تدغدغ روحه وتعانقها شوقا ومحبّة. منذ أمد ليس بالبعيد وهو يعيش على وقع حياة جديدة جميلة رغم ما يعتريها من تقلبات المحبين وظنونهم وشكوكهم واهتزاز ثقتهم من شدة الهوى والنوى: "أتحبني؟ لا تحبني؟ لعلها تجاملني... هل تناستني..." ومثل هذه التساؤلات كثيرة لدى العشاق والمحبين لأن مستوى الحبّ إذا وصل إلى حدّه انقلب إلى ضدّه فترى المساكين يتقلّبون على الشّوك وتصطليهم نار الشّوق وتتفاعل درجات محبّتهم في صعود ونزول وتلك حكم الطبيعة ولعلّ في ذلك شأن لا يعلمه إلا الله.

شكر لها فضلها وكرمها فالافتراضي في مثل هذه الحالات أروع وأجمل من الواقع فالمحبّ كالغريق يتشبّث بقشة لتنقذه من خيالات ظنونه وفنجان قهوة مثل هذا لا ينقذه فقط بل يسعد سهرته وليلته ويترك منه نصيب الغد. ثم بعد فنجان القهوة أرسلت له بأغنية تحبّها وتخالج مشاعرها نفسها تغنيها شيرين عبد الوهاب وتقول الأغنية:

مَشَاعِرُ تَشَاوُرِ تَوَدُّعِ مُسَافِرِ

مَشَاعِرُ تُمَوّتَ وَتَحِيَّيُّ مَشَاعِرِ

إللّى غرّب نفسه سافر من ألام المشاعر

وإللّى نفسه يعيشها تانى هي هي المشاعر

وإللّى دارى بابتسامة من عينيه مرّ المشاعر

وإللى نفسه قصاد حبيبه يبان عليه حبة مشاعر

اللّي بيفكّر يفارق بسّ لولا المشاعر

واللّي سامح حدّ جارح راضي ذلّ المشاعر

واللّي إيده في إيد حبيبه بسّ مش حاسس مشاعر

واللّي راجع بعد لمّا انتهى وقت المشاعر

كل حاجة ناقصة حاجة وإنت مش جنبي حبيبى

نفسي اعمل أيّ حاجة بسّ ترجعلي حبيبى

فتح قارئ الأغاني واستمع بمشاعر إلى صوت شيرين الرّقيق وهي تشدو بالمشاعر وصديقته ترقص في مخيّلته حافية القدمين، جميلة العينين، كغصن البان وتذكّر

أبيات أبي القاسم الشّابي التّي تتحدّث عن أهميّة الشّعور والعواطف والأحاسيس والمشاعر في حياة النّاس والّتي تقول:

عِشْ بالشُّعورِ، وللشُّعورِ، فإنَّما

دنياكَ كونُ عواطفٍ وشعورِ

شِيدَتْ على العطْفِ العميقِ، وإنّها

لتجفُّ لو شِيدتْ على التّفكيرِ

وَتَظَلُّ جَامِدَة الجمالِ، كئيبة

كالهيكلِ، المتهدِّم، المهجورِ

وَتَظَلُّ قاسية الملامحِ، جهْمة

كالموتِ..، مُقْفِرة ، بغير سرورِ

لا الحبُّ يرقُصُ فوقها متغنّياً

للنّاسِ، بين جَداولٍ وزهورِ

مُتَوَرِّدَ الوَجناتِ سكرانَ الخطا

يهتزُّ من مَرَح، وفرْط حبورِ

كلاَّ! ولا الفنُّ الجميلُ بظاهرٍ

في الكون تحتَ غمامة من نورِ

واجعلْ شُعورَكَ، في الطَّبيعة قَائداً

فهو الخبيرُ بتِيهما المسْحورِ

والعقلُ، رغْمَ مشيبهِ ووقَاره،

ما زالَ في الأيّامِ جِدَّ صغيرِ

يمشي..، فتصرعه الرياحُ..، فَيَنْثَنِي

مُتوجِّعاً، كالطّائر المكسورِ

ويظلُّ يَسْألُ نفسه، متفلسفاً

عمَّا تُحَجِّبُهُ الكواكبُ خلفَها

مِنْ سِرِّ هذا العالَم المستورِ

وافتحْ فؤادكَ للوجود، وخلِّه

لليمِّ للأمواج، للدّيجورِ

للثَّلج تنثُرُهُ الزوابعُ، للأسى

للهَوْلِ، للآلامِ، للمقدورِ

واتركْه يقتحِمُ العواصفَ..، هائماً

في أفقِها، المتلبّدِ، المقرورِ

ويخوضُ أحشاءَ الوجود..، مُغامِراً

في ليْلِها، المتَهَيبِ، المحذورِ

حتَّى تعانقَه الحياة ، ويرتوي

من ثغْرِها المتأجّجِ، المسجورِ

فتعيشَ في الدنيا بقلبٍ زاجرٍ

يقظِ المشاعرِ، حالمٍ، مسحورِ

عش بالشّعور وللشّعور فإنّما دنياك كون عواطف وشعور تغنّى الشّابي.

هذه المشاعر والأحاسيس الرّقيقة التي لا غنى عنها في حياة النّاس مهما ملكوا وامتلكوا فهي كالصّحة تاج على رؤوس الأصحّاء. لا تحلو الحياة إلاّ بها ولا ننال السّعادة إلا بالشّعور والعواطف والمشاعر المتبادلة...

مذ تعرّف مجد على صديقته الدّكتورة ومنذ أن سكنت قلبه والمشاعر تتصارع داخله، تتجاذب، تتقارب وتتنافر، تلوّن حياته حينا وترميه في قاع اليمّ أحيانا أخرى. فتارة يمشي طائرا دون أن تحتكّ رجلاه بأديم الأرض وتارة يمشي حافي القدمين على أشواك المحبّة الرّقيقة الدّامية.

ذات لقاء افتراضي طلب منها بكلّ لطف أن يلتقيها واقعا ملموسا وقد حان الوقت لذلك. صداقتهما وطيدة وآمالهما نبيلة والوقت يمرّ وأيّام الحياة تتناقص يوما بعد يوم. هو لا يريد أن يخسر المزيد فحياته يعيشها بالثّواني كما تقول أمّ كلثوم " وان

مرّ يوم من غير رؤياك ما ينحسبش من عمري." بعملية حسابيّة بسيطة وجد نفسه أنه لم يعش يوما وصفحته بيضاء ناصعة لا شيء فيها. بدأت حياته مذ تعرّف عليها وستبدأ حلاوة أيّامه وحسابها من عمره يوم يراها لحما وشحما أمامه بابتسامتها الرّائعة وجمالها الطّبيعي وقامتها المعتدلة وبريق عينيها الخلاّبتين اللّتين غرق في جمالهما منذ أوّل صورة رآها لها والعينان نافذتا الرّوح كما يقال.

من أجل عينيك عشقت الهوى

بعد زمان كنت فيه الخليّ

يا فاتنا لولاه ما هزّني وجدُ

ولا طعمُ الهوى طاب لي

هذا فؤادي فامتلِكْ أمرَهُ

فاظلمه إن أحببتَ أو فاعدلِ

من بريق الوجدِ في عينيك أشعلتَ حنيني

وعلى دربك أنَّىَ رحُت أرسلت عيوني

والرّؤى حولي غامت بين شكّي ويقيني

والمني ترقص في قلبي على لحن شجوني

لستُ أدري أهو الحبُّ الذي خفت شجونه...

كما تقول إحدى أغاني أم كلثوم التي أدمن على جمال صوتها وعذب ألحانها ورقّة الكلمات التي تشدو بها كصور شعريّة رائعة. لكن أصبحت صورة صديقته تصاحب هذه الصّور الشّعرية وتلازمها بعد أن تعرّف عليها ودخلت حياته من أوسع الأبواب فتربّعت فيها وجلست القرفصاء.

سيراها ويتعرّف عليها عن قرب، وهو مقرّ العزم على ذلك، رغم الظّروف التعّيسة التي يعيش على وقعها العباد والبلاد. أهي ملاك كما سكنت قلبه أم بشر كما نحن، تتقاذفها إيجابيّات الإنسانيّة وسلبياتها وتلهو بها الأيّام كما تريد وتشتهي كما يحدّثه عقله...

كم زادت أغنية جاك برال الّتي أرسلتها له والّتي يغنّيها الإسباني خوليو اقليسياس من منسوب التّفاؤل واليقين لديه. "لا تفارقني... لا تتركني ولا تبتعد عنّي..." ليس لها إلاّ مفهوم واحد عميق المعنى والمغزى وهي الدّكتورة الذكيّة اللمّاحة أرادتها إجابة عن تساؤلاته الكثيرة وهو الواضح المباشر ولا يعرف للّتلميح طريقا. هكذا هو شفّاف في حياته كألوان الغروب لا يعترف باللّون الرّمادي ولا يعرف المخاتلة والأجوبة الغامضة أو الّتي تفهم بكثير من الأوجه والمعاني. أمّا هي فهي الأنثى المحافظة الغامضة. فالغموض كالحياء يضيف للمرأة جمالا آخر يزيد من أنوثتها. استمع إلى الأغنيّة وأعاد الاستماع إليها وتمعّن في الكلمات بلكنة خوليو وكأنّه يسمعها للمرّة الأولى وازداد إقبالا على الكتابة نثرا وشعرا فقد انفتحت شهيّته وقوي الأمل وإنّ غدا لناظره قريب... وتذكّر أبيات كان درسها في المرحلة الإعداديّة للخالد أبي القاسم الشّابي تقول:

أَراكِ فَتَحْلو لَدَيَّ الحَيَاةُ

ويملأُ نَفسي صَبَاحُ الأَمَلْ

وتنمو بصدري وُرُودٌ عِذابٌ

وتحنو على قلبيَ المشْتَعِلْ

ويفْتِنُني فيكِ فيضُ الحَيَاةِ

وذاك الشَّبابُ الوديعُ الثَّمِلْ

ويفْتِنُني سِحْرُ تِلْكَ الشِّفاهْ

ترفرفُ مِنْ حَوْلهنَّ القُبَلْ

فأَعبُدُ فيكِ جمالَ السَّماءِ

ورقَّةَ وردِ الرَّبيعِ الخضِلْ

وطُهْرَ الثُّلوجِ وسِحْرَ المروج

مُوَشَّحَةً بشُعاعِ الطَّفَلْ

أَراكِ فأُخْلَقُ خلْقاً جديداً

كأَنِّيَ لمْ أَبْلُ حربَ الوُجُودْ

ولم أَحتمل فيه عِبئاً ثقيلاً

من الذِّكْرَياتِ التي لا تَبيدْ

وأَضغاثِ أَيَّاميَ الغابراتِ

وفيها الشَّقيُّ وفيها السَّعيدْ

ويغْمُرُ روحِي ضِياءٌ رَفيقٌ

تُكلِّلهُ رائعاتُ الورودْ

وتُسْمِعُني هاتِهِ الكائِناتُ

رقيقَ الأَغاني وحُلْوَ النَّشيدْ

وتَرْقُصُ حَولي أَمانٍ طِرابٌ

وأَفراحُ عُمْرٍ خَلِيٍّ سَعيدْ

أَراكِ فتخفُقُ أَعصابُ قلبي

وتهتزُّ مِثْلَ اهتزازِ الوَتَرْ

ويُجري عليها الهَوَى في حُنُوٍّ

أَناملَ لُدْناً كرَطْبِ الزَّهَرْ

فتخطو أَناشيدُ قلبيَ سَكْرى

تغرِّدُ تَحْتَ ظِلالِ القَمَرْ

وتملأُني نشوةٌ لا تُحَدُّ

كأَنِّيَ أَصبحتُ فوقَ البَشَرْ

أَودُّ بروحي عِناقَ الوُجُودِ

بما فيهِ مِنْ أَنْفُسٍ أَو شَجَرْ

وليلٍ يفرُّ وفجرٍ يكرُّ

وغَيْمٍ يوَشِّي رداءَ السِّحَرْ

ورغم غموضها الأنثوي والهالة الّتي تحيط بها نفسها فتحجب عنه بعض خفاياها كانت لديه حاسّة سادسة يسمّيها مزحا " حاسّة المحبّة" بها يعرف أتعابها وهمومها وانشغالات تفكيرها وراحة نفسها ويتعامل معها على هذا الأساس انطلاقا من ظواهر مزاجها وفي الحياة وفي كلّ الميادين. لولا هذا التّوازن لانخرم قانون الجاذبيّة و لدخلت الأرض مجال الشّمس واحترقت تماما... هذا القدر من التّوازن، او مظاهر تواصلها، حتّى لا يختلّ إذ لا بدّ منه في العلاقات الإنسانيّة. الاحترام بينها وبينه هو صمّام الأمان والضّامن لعلاقة دائمة مسترسلة مليئة بالسّعادة ما يؤهّله للقيام بالخطوات الأخرى لتكون علاقة دائمة طوال العمر يربط الزّواج المقدّس بينهما وتزيّن الحياة أيامهما...

فعلا، يقول في نفسه: "عندما نشتاق لمن نحبّ تغيب عقولنا عن الوعي، نصاب بالعمى، بالصّمم وبالنّسيان .. وتغيب لذّة كل شيء بالحياة.. أبدا ليس الاشتياق سهلا !"

أمّا الدكتورة نون فقد ملأت به فراغا عاطفيّا قاهرا وامتصّت به صدمة كبيرة لولاه لاعتراها الجنون، و قد تكون إلى حين... فما في صدرها لا يعلمه إلاّ الله..

وما نيل المطالب بالتمنّي

ولكن تؤخذ الدّنيا غلابا

وما استعصى على قوم منال

إذا الإقدام كان لهم ركابا

حكمة لا غنى عنها، هكذا حدّثها وهو يدفعها بكلمات أحمد شوقي إلى معترك الحياة فالأنفة والثقة بالنفس لا تنفع في مجتمع الغابة، هذا المجتمع الّذي لا يعترف بالطّيبة أو الأخلاق أو الشّهائد العلميّة أو الأصل والفصل. مجتمع يستمدّ قانونه من قانون الغاب وإن لم تدافع عن حقّك افتكّ منك. إن لم تطالب به ضاع في الأوراق والملفّات وإن لم تبحث وراءه ترك في الزّوايا ومنعرجات المكاتب وتلك هي طبيعة البشر وقانونهم منذ الأزل.

ومنذ المساء غابت الدّكتورة عن الأنظار، خرجت مع أختها وعائلتها في أمسيّة رائقة ولم تتواصل معه بل أعلمته بذلك عندما لاحظت عليه بعض التّساؤل. وإن كان مجد ينتظر إشارة منها للالتقاء بها بعد يوم أو يومين والتعرّف عليها عن كثب وكسر حاجز الصّمت بينها وبينه ليزيل جدار الافتراضي وينطلق معها في معرفة واقعيّة

حقيقيّة تتخلّلها المكالمات الهاتفيّة المنتظّمة والودّ الموصول ويتخللها نبض واقعي يؤسّس لمستقبل يبنى على أسس صحيحة وركائز ثابتة في زمن متغيّر لا ثوابت فيه... في حين عكف مجد على مراجعة مخطوطاته التي سيتولّى طبعها في مرحلة قادمة وبعض الملفّات العالقة في الشّركة التي يشرف على إدارة القسم التّجاري فيها. و جلّ الشّركات تعاني من ندرة المواد الأوليّة وارتفاع ثمنها نظرا لارتفاع العملة الأجنبيّة وتذبذب الدّينار بل نزوله إلى الحضيض. ناهيك عن مشاكل النّقابات والتّرويج والأداءات والصّناديق الاجتماعيّة وتعويضات فترات الحجْر والحظْر. لا شيء مستقرّ في البلاد وحتّى في العالم زادتها الجائحة اضطرابا وركودا.

وخلال مراجعاته هذه كانت كوكب الشّرق تشدو من خلال حاسوبه برائعة سلوا كؤوس الطّلا هل لامست فاها للشّاعر أحمد شوقي...

سلوا كؤوس الطّلا هل لامست فاها

واستخبروا الرّاح هل مسّت ثناياها

باتت على الرّوض تسقيني بصافيّه

لا للسّلاف ولا للورد ريّاها

ما ضرّ لو جعلت كأسي مراشفها

ولو سقتني بصاف من حميّاها

هيفاء كالبان يلتفّ النّسيم بها

ويلفت الطّير تحت الوشي عطفاها

حديثها السّحر الاّ انّه نغم

جرت علي فم داود فغنّاها

حمامة الأيك من بالشّجو طارحها

ومن وراء الدّجي بالشّوق ناجاها

القت الي اللّيل جيدا نافرا

ورمت اليه أذنا وحارت فيه عيناها

وعادها الشّوق للأحباب فانبعثت

تبكي وتهتف أحيانا بشكواها

يا جارة الأيك أيّام الهوي ذهبت

كالحلم آهاً لأيّام الهوى آها

الأيّام الأخيرة، بعد الشّهر المبارك، تمرّ على نفسيتها ثقيلة متثاقلة فقد عاد لها نفس التوتّر ونفس الإحساس بالتّعب اللّذان لازماها في بداية الحملة ولعلّ ظروف أخرى هي أدرى بها قد أثّرت تأثيرا مباشرا فيما يظهر عليها من ضيق رغم أنّها مازالت تتّصل به ضاحكة متفائلة تشجّعه على الكتابة نثرا وشعرا خاصّة ذاك الذي كتب بلغة فولتار وتعلّق بها شخصيّا. لكنّه بحاسّة المحبّة وطول الالتصاق بها، يشعر بثقل أيّامها ولياليها ولا يعرف ما تكابده داخليّا.

أرسل لها " موكب حبّ" ما كتبه ولحّنه الموسيقار بليغ حمدي من أعمق أعماقه ولمَا لا نشتمّ منه أثرا من آثار ورده الجزائرية وجراح الحبّ بينهما. أجل هي كتومة لا تبوح، صندوق مقفل ومفتاحه في أعماق البحر. لكن يبدو أنّ قلبها مثخن بالجراح.. كما يقول صديقه: " لا توجد شجرة على الأرض لم تحركها الرّياح" وما المشاعر البشرية إلا رياح تهبّ كل حين.. لا ندري متى تهبّ ومتى تغيب !

"حبيبى يا موكب حبّ يا دفا للقلب. يابحر من الحنان. يا أمّي وأبويا وصاحبي واخويا. ونصيبي من الزّمان. اسقينى ياحبّ عمرى، اسقى القلب العطشان. ده كأنّى ما فارقتك أبداً لحظة من الزّمان...."

بعد أيّام معدودات سيلتقيها، إن شاء الله ونفّذ القدر ذلك، سيضفي حياة لهذا الودّ بطعم الشّهد في زمن مرارة الكورونا وأوضاعها ومآسيها. إنّها الحياة زمن العدم، يتشبّثان بها كما تتشبّث تلك النّبتة اللّينة الضّعيفة بالحياة فتثقب الصّخر، الجلمود القاسي، وتشققه لتنفذ منه وتستقبل أشعّة الشّمس الدافئة فتعيش وتورق وتزهر وتثمر ثم تترك أثرها وتمرّ... إنّها الحياة لمن عرف كنهها وأسرارها ودقائق خفاياها. كم بات يحلم بلقائها، ترهقه ساعات النّهار وتؤرّقه دقائق اللّيل فأدمن على السّهر والانتظار...

وكم صار يحبّ الشّاي الأخضر بنكهة النّعناع ذي الرّائحة المنعشة الذّكية هذا الذي تتفضل صديقته من حين لآخر بإهدائه إليه كلّما كان مزاجها هادئا كشاطئ في أجمل أيّام الصّيف لا ترى هيجان بحره ولا تسمع زئير أمواجه ولا حتّى صوت

انكسارها على الرّمال أو الصّخور. تعدّل مزاجها بذلك الفنجان المعطّر وتعدّل مزاج صديقها على بعد مئات الأميال وهما اللذان لم يعد يفصل بينهما شيء فعلاقتهما افتراضيّة بحتة لكنّها أجمل وأروع من أي حقيقة وهل هنالك رؤية أوضح وأجمل من رؤية القلب وهل هنالك انسجام أرقّ وأدقّ من انسجام الأرواح التي تتواصل وتتلاقى باللّيل والنّهار. إنّها تحسّ به وإنّه يحسّ بها بل يكاد يعيش معها ثواني ودقائق عمرها مذ تعرّف عليها ويعرف أدقّ تفاصيل يومها، ناهيك عن منسوب الاحترام والتّقدير وكميّة الودّ والمحبّة الّتي ترتفع وتزداد وتكبر كلّ يوم...

ما الّذي يريده منها؟ هذه الفتاة الّتي ملكت عقله ومشاعره لم يرها من قبل، لعلّه يريد حالة الشّغف التي سكنته مذ رأى صورتها لأوّل مرّة: صخب العواطف الذي يلهم العازب ويغذّيه قبل امتلاكه لامرأة. دوخة الحبّ وتلك "التّرهويجه" التي تخدّر أحاسيسه وذلك الدّوار الذي يحتاج إليه لمواصلة حالة الاشتهاء اللذيذة للحياة. لذا سيظل هكذا شغوفا منجذبا ولن يحتسيها دفعة واحدة.

ودون شعر وكلمات صادقة وألحان عذبة وخيال الدّكتورة، لا تمرّ ساعاته وثوانيه...

ومن كلمات مجدي نجيب وألحان محمّد سلطان استمعا إلى سعاد محمّد تشدو برائعة أوعدك.

أوعدك وإنت بعيد
تفضل حبيبي
أوعدك دايما فاكراك
أوعدك ولا يوم أنساك

الفصل الثاني والعشرون

وجاء اليوم الموعود. يوم من أيام شهر جوان الخالد، لم يكحّل النّوم جفونه وصارع الأرق فهزمه. خرج صباحا، بل فجرا مع أولى خيوطه، خرج من منزله لا يلوي على شيء. ركب سيّارته وطوى الأرض طيّا، خارج المدينة. لم يدر كيف خرج منها ولا كيف طوى شوارعها. المروج الخضراء بدت هشيما تذروه الرّياح. أشجار الخوخ واللّوز والمشمش تبدو من بعيد على جنبات الطّريق خضراء يانعة، بعضها مثقلا بالثمار، تكاد تناديك، توقّف وتعال... خيول لم يرها منذ زمن بعيد ترعى هنا وهناك، أبقار هولنديّة وقطيع من الغنم، بل عدد كبير من الخرفان لا شك أنّها خرفان العيد الذي لم يعد بعيدا... ما أجمل شذى السّعادة حين تغمر الإنسان بعد انتظار طويل كأرض عطشى غمرتها مياه الأمطار بغتة. داخل السّيارة تشدو نجاة الصّغيرة وتؤنسه بصوتها الحنون علّها تخفّف عنه طول المسافة التي تفصله عنها... "شكل تاني حبّك أنت... حبّ غالي... حبّ ناره مذوباني." هذه التي سلبت لبّه بكل ما حباها به الله من جمال وأخلاق وعلم وأدب. أغنيّة يقطع بها المسافات الطّويلة وهي الّتي كثيرا ما استمع إليها مع صديقته فيطرب لها ويخفق قلبه ويهتزّ فؤاده... ثمّ "إلاّ أنت فيها ايه الدنيا ديّه إلا أنت... كلّ غالي يهون عليّ إلاّ أنت..." من كلمات حسين السيّد وألحان محمّد عبد الوهاب...

إلاّ إنت

فيها ايه الدّنيا دية ... إلاّ انت؟

كلّ غالي يهون علي ... إلاّ انت

وابتساماتي وآهاتي منك انت ...

واللّي حبّيتو في حياتي هو انت
فيها ايه الدّنيا إلا انت؟

الطّريق السّريعة تخترق البساتين والحقول والزّياتين. هرقله الرّابضة على شواطئ المتوسّط تبدو من بعيد كعروس في خدرها ولما لا وهي سيدي بوسعيد الجهة. نبات الحمض يمتدّ على طول المطار إلى أميال قرب مدينة النّفيضة. برج المراقبة يبدو شامخا من بعيد. هذه بوفيشة وهذه الحمّامات وبساتين الأشجار المثمرة وكروم العنب وهذا الجبل المكلّل بالصّنوبر والصّخور من الظّهريّة التونسيّة تتسلّق جوانبه غابات الزّيتون. نباتات الزّينة على جانبي الطّريق تبدو ورديّة اللون جميلة، ومن هناك تبدو العاصمة قريبة على بعد أميال قليلة. سيطوي باقي المسافة طيّا طالما نجاة تشدو بجانبه وهناك في الأفق القريب تنتظره الدّكتورة نون بإحدى مقاهي مدينة حلق الوادي الجميلة... ولم يلبث أن سلك الجسر المؤدي إليها، جسر رادس-حلق الوادي وهو الأوّل من نوعه في إفريقيا، ولو استطاع لطار كما الطّيور، كما النّوارس والصّقور. كم أحبّ الضّاحيّة الشّمالية للعاصمة، هذه المدينة العتيقة والكرم وصلامبو وقرطاج وسيدي بوسعيد والمرسى وقمّرت، ذكريات تنبعث من كلّ مكان، يوم كان شابّا يزورها خلال العطل الصّيفية ليقضي قرب أخته أيّاما وكانت لا تحلو الأمسيّات إلا بها وفي أرجائها.

أما هي فكانت تنتظره داخل سيّارتها على أحرّ من الجمر. جهاز الهاتف في يدها تردّ على تساؤلاته وتوجّهه نحو الاتّجاه السّليم وترشده عبر الإرساليات الصّوتية والمكتوبة ونجاة الصّغيرة تشدو بأغنية تتردّد تساؤلاتها داخل أعماقها:

ماذا أقول له لو جاء يسألني
وكيف أهرب منه؟ إنّه قدري
هل يملك النّهر تغييرا لمجراه؟

أحبّه.. لست أدري ما أحبّ به
حتّى خطاياه ما عادت خطاياه
الحبّ في الأرض. بعض من تخيّلنا
لو لم نجده عليها.. لاخترعناه
ماذا أقول له لو جاء يسألني
إن كنت أهواه. إنّي ألف أهواه..

منذ مدّة بدأت تحلم بلحظة لقائه لكنّها لم تعبّر له عن ذلك وحافظت على غموض الأنثى واللاّمبالاة المفتعلة.

أخذتها الدّراسة والنّجاحات ولم تلتق قطّ مع رجل في مكان يتنفّس الحريّة ولا كانت هي يوما حرّة في أعماقها فكثير من التقاليد تكبّلها، لعلّها فرصتها لتكسّر قيود عاطفتها وجدّيتها المفرطة، إذ كل ما تتمنّاه هو جلسة جميلة غير محبطة ودافعة إلى الأمام مع هذا الرّجل الذي لوّن حياتها بالورد وعطر الفنون والكلمات التي لا تدري من أين يقطفها لها كل مرّة. هذا الذي أنساها ماض وسنوات دراسة وحنين وصفحات مخزونة في الأعماق...

قضت يوما كاملا تجوب أرقى المحلاّت مع أختها بحثا عن ثياب أنيقة تليق بالمناسبة في أوّل مقابلة لها معه وها هي تتبختر بها جيئة وذهابا في انتظاره بعد أن ركنت سيّارتها واستعدّت للقائه.

في شارع الجمهوريّة بحلق الوادي وعلى مرأى من الشّواطئ الجميلة وزرقة البحر والسّماء وتحت عيون النّوارس التقاها كمن يلتقي بقدره بعد شدّ وجذب وطول صراع ولا تسل عن تلك اللّحظات السّرمدية الّتي لو طلب منه أن يشتريها لاشتراها بعمره وبقيّة أيّامه. كانت كملاك نزل لتوّه من السّماء. شعر كستنائي ينساب على كتفيها، نظّارات طبيّة تزيّن وجهها، لباس أنيق محترم وقدّ ممشوق وابتسامة سعادة على شفتيها وقوّة شخصيّة ظاهرة مكتسبة أو موروثة وجمال صارخ وأنوثة...

كان لقاء تاريخيا تمنّى لو كان شهيرا مشهورا وحضرت وسائل الإعلام لتسجيله وتخليده في بثّ مباشر حتّى يرى العالم جمال صديقته وأناقتها ورقّتها ويسمع عسل كلامها الخافت المحلّى بالحياء ورفعة الرّوح وصفاء السّريرة وبصمات التّربية وروح العائلة التي انبثقت منها. سلّم لها باقة الورد وقبّل يدها كعاشق أرستقراطي وتقدّم معها داخل المقهى الرّومانسي الجميل الذي تنبعث داخله أروع موسيقى هادئة سمعها في حياته أو لعلّ بهجة اللقاء جعلتها كذلك. لم يجدا ما يقولانه وهما اللّذان تحادثا كثيرا وضحكا كثيرا وتمنّيا هذا اللقاء وانتظراه كثيرا..

ضاعت الكلمات في خضمّ اللّقاء الّذي انتظراه دهرا ولم تيسّره الظّروف المختلفة لولا العزيمة من كليهما... " قد يكون الغيب حلوا لكن الحاضر أحلى" ردّدها مجد وهو ينظر بشغف إلى هذه التي صارت جزءا من حياته و أحبّها افتراضيّا فإذا الواقع أحلى و أجمل و أروع... نسي أن يطلب مشروبا وهو الّذي قام باكرا ولم يشرب قهوة

الصّباح ولم يشأ أن يضيع وقتا في الطّريق في محطّة سيدي خليفه أو غيرها من المحطّات المنتشرة هنا وهناك على طول الطّريق السّيارة وهي الّتي تاهت في ما تخطّطه الأقدار وتنفّذه وسافرت على جناح تفكيرها بعيدا بعيدا لولا وقوف نادل المقهى أمامهما ليتذكّرا أين هما...

الحياة مليئة بالمفاجآت التي تخيطها الأيّام وتلبسها إيّانا قال مجد بعد صمت رهيب. تأخذك الحياة فتنسيك نفسك وتظلّ تجري وراءها فتنسيك أهواؤها بعض ما في نفسك من حنين ومشاعر وإذا بها توقظك عندما يحضر ثوبك لتلبسه إيّاك في غفلة منك أو في بهتة واندهاش وها إنّه قد أنسته كتبه حياته وقد أنساها الوازع الإنساني حياتها أيضا لتنسّق الأقدار علاقتهما ولقاءهما في زمن غريب كئيب تخيّم فيه الجوائح وترعب الخلق ليكون حبّهما حبّا بطعم الشّهد في زمن العلقم...

المقهى ككلّ مقاهي الضّاحية الشّمالية الجميلة لا مكان شاغر فيه يسمعان ضجيج الأصوات لكنّهما لا يريان بشرا. لا أحد غيرهما هناك ومع ذلك لم يستطيعا الكلام بل حتّى إذابة السّكّر في فنجان القهوة. نسيا ذلك وكأنّهما يشربانها للمرّة الأولى. تكلّم مجد أخيرا وقد شجّعته على ذلك أغنية لأمّ كلثوم منبعثة من مقهى مجاور اختصّ بأغانيها على مدار السّاعة فيأتيه عشّاقها خاصّة من الكبار الذين عايشوا أمّ كلثوم في عزّ مجدها وهم في فترة المراهقة أو الشّباب. أغانيها تنبعث من المقهى وروّاده منتشرون على الرّمال وفوق الصّخور المقابلة يدخّنون "الشيشة" هذه النارجيلة المنتشرة هنا وهناك ويرتشفون القهوة ويستمتعون بالحنين لماض تولّى ولن يعود.

قال مجد: " فعلا للصّبر حدود" لم أعد أحتمل عدم رؤيتك واللقاء معك أو عدم سماع صوتك. صرت أعيش معك دقائق حياتك وإن لم أتحادث معك فأنت في البال

خيال حيّ نابض. لم أعد أستطيع الكتابة بدون حضورك وكلماتك وإلهامك. أستمع إلى الأغاني وأنت تردّدينها معهم. أراك في فنجان قهوتي وقارورة مائي وأحلام ليالي. أراك تسيرين في الشّارع، في المساحات الّتي أرتادها، في نشرة الأخبار في المسلسلات في أحاديث الكبار ممّن يصولون ويجولون في كلّ مضمار. أراك حيثما كنت، سكنت بؤبؤ العين فلم يعد يراود النّوم أجفاني. لم أعد أحتمل يا غالية. دكتوره نون أنت واقع أروع ألف مرّة من كلّ خيال.

والحديث ذو شجون تحدّثا عن كلّ شيء وفي كلّ شيء وانطلقت ألسنتهما لا تلوي على شيء... تحدّثا عن مدينة المولد والعائلة الكبيرة والصّغيرة، عن الماضي ومحطّاته الخالدة بالأعماق، عن الدّراسة والجامعة وكلّ ما يمكن أن يقال في مثل هذه المناسبة. تحدّثا عمّا لم يتناوله حديثهما عبر التّواصل الاجتماعي وتواصلا بالعيون هذه المرّة وأعماقها وما يمكن أن تظهر به الروح فيها. كانا متناغمين ويبدوان للعيان أنّهما في غاية الانسجام وأخذهما الوقت هذا السّيف القاطع ومازال في الجراب ما يقال. سارع بدفع الحساب رغم معارضتها فهي تعتبره ضيفا لديها وهو رغم ثقافته وإيمانه بالمساواة ولا فرق لهذا على هذه الآ بما يقدّمانه للعائلة وللمجتمع فهو يعتبر نفسه من مجتمع ذكوري عليه بأن يكون كذلك سيّد كل المواقف لكنّها ستغيّر نظرته وموقفه أيضا. خرجا من المقهى في اتّجاه أحد المطاعم المعروفة بسمك حلق الوادي الطّازج وغلال البحر الشّهيّة بشارع روزفلت الشّهير وهناك طلبا ما لذّ وطاب وكلّ منهما في الآخر قد ذاب. وطبقاهما المفضّل عرفاه صدفة فتقاربت الأمزجة والأهواء "سباڤتّي بغلال البحر"... كلّ منهما لغلال البحر في قلبه هوى ومحبّة.

كانت تنظر إليه من حين لآخر وتدقّق النّظر خفية عنه ولسان حالها يردّد ما قاله ذات يوم نزار قباني وغنّته نجاة الصّغيرة بكلّ ما لديها من طاقة:

متى ستعرف كم أهواك يا رجلا

أبيع من أجله الدّنيا وما فيها

يا من تحدّيت في حبّي له مدنا

بحالها وسأمضي في تحدّيها

لو تطلب البحر في عينيك أسكبه

أو تطلب الشّمس في كفّيك أرميها

أنا أحبّك فوق الغيم أكتبه

وللعصافير والأشجار أحكيها

أنا أحبّك فوق الماء أنقشه

وللعناقيد والأقداح أسقيها

أنا أحبّك يا سيفا أسال دمي

يا قصّة لست أدري ما أسمّيها

أنا أحبّك حاول أن تساعدني

إنّ من أشعل النّيران يطفيها

يا من يدخّن في صمت ويتركني

في البحر أرفع مرساتي وألقيها

ألا تراني ببحر الحبّ غارقة

والموج يمضغ آمالي ويرميها

انزل قليلا عن الأهداب يا رجلا

ما زال يقتل أحلامي ويحييها

وكم تمنّيت لو للرّقص تطلبني

وحيّرتني ذراعي أين ألقيها

ارجع إليّ فإنّ الأرض واقفة

كأنّما فرّت من ثوانيها

ارجع فبعدك لا عقد أعلّقه

ولا لمست عطوري في أوانيها

لمن جمالي لمن شال الحرير لمن

ضفائري منذ أعوام أربّيها

ارجع كما أنت صحوا كنت أم مطرا

فما حياتي أنا إن لم تكن فيها

تحدّثا في كلّ شيء وعن كلّ شيء، حدّثته حتّى عن علاقتها القديمة بالدّكتور شهاب هذه العلاقة المهنيّة الإنسانيّة الّتي انتهت بخروجه لاجئا من البلاد، حدّثته عن

مشاغلها الحاليّة الآنيّة وعن اهتماماتها الّتي تأخذ كل أوقاتها، حدثته عن المستقبل وأحلامه وعمّا سطّرته لحياتها... أخيرا، اقترح عليها الزّواج وطلب منها مهلة للتّفكير والإجابة على ألا تردّ في الحين أو في اليوم ذاته، قائلا إنّه مشروع زواج وقد فكّر مليّا في الأمر وعليها أن تفكّر في الموضوع جيّدا فالأوائل قالوا: " زواج العمر ليه تدبير سنين" على أن تكون صادقة مع عقلها وقلبها في الآن نفسه. ليس من السّهل أن تربط مصير حياتك بغيرك وبأقدار لا تعرفها وبتسرّع و ارتجال...

أومأت برأسها وغلبها الحياء بل قل فرحة اللّقاء واقتراحه الّذي أبهرها وإن لم يفاجئها فبغريزة الأنثى عرفت منذ البداية، اهتمامه الكبير ومقصده النّبيل وإن لم يكن ذلك كذلك لم تكن لتتعلّق به وتتواصل معه لتعرف خفاياه ونقاط القوّة والضّعف فيه وتلتقيه وتنتظره في ذلك المكان بالذّات.

حلق الوادي مدينة السّلام، مدينة جميلة سكنتها كلّ الأعراق منذ الأزل وكانت ولا زالت مدينة التّسامح والتّآخي والتّعايش بين كل الأجناس والأديان. واختيار المكان للّقاء التّاريخي الأوّل كان صائبا في حدّ ذاته فهو بعيد عن العيون، يغمره الهدوء وتسكنه السّكينة، حريّ بأن يكون نقطة انطلاق لعلاقة حبّ قويّة تصبو لغد أفضل وارتباط أبدي دائم.

كانا قد تركا شارع الجمهوريّة بشاطئه ومقاهيه وشدو السيّدة أمّ كلثوم وتنقّلا لتناول أكلتهم بشارع روزفلت الجميل لتبقى هذه المحطّة من حياتهما خالدة لا ولن تنسى كلّما عادا مرّة أخرى أو مرّ اسم حلق الوادي بذاكرتهما وقد خلّدا ذلك في صور

تذكاريّة بالمقهى والمطعم وبجانب تلك الصّخور البيضاء في آخر الشّاطئ بجانب القنال وحتّى أمام "حصن الكرّاكه" الحصين المليء بأحداث التّاريخ و مركز تعاقب الغزاة وصمود المدينة...

وحانت ساعة العودة إلى مدينته السّاحليّة. ودّعها والفرحة تغمر كلّ كيانه على أمل اللّقاء في مناسبات أخرى، فقد اتّسع المضيق وسلك الطّريق. امتطى سيّارته، ودّعها وداع عاشق متيّم، وداعا رقيقا لا يمحى من الذّاكرة وفتح جهاز أغانيه المفضّلة وانطلقت نجاة في موكب حبّ وذاب أثيرا معها ليجد نفسه يحلّق مع النّوارس فوق جسر حلق الوادي ويشاهدها من بعيد لا تزال واقفة في المكان نفسه وكأنّها تأبى مغادرته وعيناها في اتّجاه الأفق البعيد حيث تتراءى قربص الجميلة وجبلها الشّاهق الباسق ولسان حالها يردّد أغنية أم كلثوم سيرة الحبّ...

طول عمري بخاف من الحبّ

وسيرة الحبّ

وظلم الحبّ لكلّ أصحابه

وأعرف حكايات مليانه آهات

ودموع وأنين

والعاشقين دابوا ما تابوا

طول عمري بأقول

لا أنا قد الشّوق

وليالي الشوق

ولا قلبي أدّ عذابه

وقابلتك انت

لقيتك بتغيّر كلّ حياتي

ما أعرفش إزّاي انا حبّيتك

ما أعرفش إزّاي يا حياتي

من همسة حبّ لقيتني بحبّ

لقيتني بحبّ وأدوب في الحبّ

وصبح وليل على بابه

الفصل الثالث والعشرون

في تلك الوقفة وتلك اللّحظات اتّخذت قرارها الجريء الصّعب الّذي لا رجعة فيه. نعم ستستشير العائلة، خصوصا والديها، و إن كانت تحدّثت مع أختها كثيرا في كلّ المسائل. لكنّ الموضوع يهمّها شخصيّا فالحياة حياتها وهي الواعية المثقفة والمتخرّجة من كليّة الطبّ أدرى بها. فقد دخلت معترك الحياة وصارعتها وعرفت أدقّ تفاصيلها ولم يبق لها الاّ انتظار " المكتوب" وها هو قد حضر اليوم وأحضر لها من تريد، شابّ يّتقد حيويّة تبدو عليه كلّ المواصفات الّتي ترغب فيها وحلمت بها طول حياتها وتحبّها كل فتاة ناضجة و "رأسها بين كتفيها"...

هكذا كانت وجهة نظر الدّكتورة . امتطت سيّارتها هي الأخرى وانطلقت نحو أختها لتبلغها الخبر اليقين قبل أن تتّصل بأمّها وتحاول إقناعها قبل أن تعود إليها في إجازة قريبة. ربّما تكون خلالها مراسم الخطوبة. فوالدها رجل محنّك حكيم عارك الحياة وانتصر عليها. أمّا أمّها المدرّسة فهي صلبة قويّة الشّكيمة تماثل "تاتشر أو مركل" في شخصيتها امرأة حديديّة لا تنزل كلمتها وإن كانت خطأ ولا تتردّد في النّفور والمقاطعة.

هي كذلك، طبيبتنا الشّابة، لا يرطّب مزاجها إلاّ شيء من كاظم. فتحت جهازها وانطلقت تستمع بتمعّن للكلمات المعتادة وتقود السّيّارة بإجادة وتفكّر في الذي كان معها وفي والدتها البعيدة... وتغمرها موجات إيجابية راقية من السّعادة والنّعيم وحبّ الحياة...

قد عشقنا فيك روح الكبرياء فتماديت
واجملت الثناء
انّ هذا الحبّ من قلبي ارتوى فلماذا الصدّ

وطد الشوق على آمالها نبتغى الوصل ففي
الوصل الشفاء
فلماذا الصدّ يا أحلي النّساء ولك القلب
ولاء ووفاء
قد عشقنا فيك روح الكبرياء فتماديت
واجملت الثناء
انّ هذا الحبّ من قلبي ارتوى فلما ناداك
تجاهلت النّداء
ارحمي صدقي وصافي عفّتي انّ قلبي يرتجى
نار اللّقاء
لا تردي كئيبا باكيا إنّما الحبّ وصال
وعطاء
قد عشقنا فيك روح الكبرياء فتماديت
واجملت الثناء
ان هذا الحبّ من قلبي ارتوى فلما ناداك
تجاهلت النداء

أغنية على مقاسها تعجبها وتشدو بها فلها من الكبرياء وعزّة النّفس الشّيء الكثير فكانت كثيرة الصدّ لا تهتم إلا بالطبّ والأبعاد الإنسانيّة المنسجمة معه، غير ذلك فهو ثانوي ولم يأخذ حيزا في نفسها ولا من وقتها... هي رومانسيّة حالمة لكنّها تقف دائما شامخة على أرض صلبة.

على الطّريق السيّارة، كانت سيّارة مجد تتهادى بين كروم العنب بين قرمبالية والحمّامات. لم يسرع كما في الذّهاب. يسير بهدوء مقبول ويستمتع بالمناظر الطبيعيّة وبأعذب الألحان المنبعثة من جهازه. يفكّر براحة بال في الأقدار الّتي تتلاعب بالمخلوقات كما تتلاعب الرّياح بأوراق الأشجار، تقرّب هؤلاء وتبعد أولئك تؤلّف بين من تريد وتفرّق بين من تريد... ولله في خلقه شؤون... (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) يحمده ويشكره فقد تحقّقت أمنية من أمنياته الكثيرة.

تذكّر بعض قصيد للشاعر محمّد علي الجلاصي يقول فيه:

الشّمس تشرق كلّ يوم مرّة و ضياء وجهك دائم الإشراق

و لقاؤنا زاد القلوب صبابة ما أجمل العشّاق حين تلاقِ

أشواقي هاجت و زاد لهيبها لو تدركين لهيبها أشواقي

صورتها الطّبيعيّة بكلّ ألوانها للّقاء الرّائع من شهر جوان أو يونيو أو حزيران كما يسمّونه في الشّرق أو حتّى شهر الدّكتورة كما سيسمّيه مجد مستقبلا لم تفارق عينيه. حذاء رياضي أبيض ناصعا وبنطلونا يميل في لونه إلى خضرة دافئة لحقول معطاءة ولباس فوقي مشبع بالنجوم لطقس حارّ كما في هذا الفصل. جسد غضّ طريّ يطل من تحته بحياء نابضا بالحياة. عيناها الجميلتان العسليّتان ينبعث منهما بريق ذكاء نادر وكلام هامس عذب لذيذ لم ينس أيّ كلمة منه وابتسامة عذبة بريئة تتخلّل كل ذلك. ظل طوال الطريق يتخيّلها بجانبه تحادثه وتتواصل معه وعيناه في أعماق عينيها وورده الجزائرية تردّد لهما أغنيّة " يا حبيبي صدّقني بحبّك، صدّقني وصدق حلفاني، أنا ما ليش غيرك تاني "...

يا للّي جمعت القلوب على الوداد و الميل
يا للّي وهبت الجمال وخلقت كل جميل
يا للّي جعلت الغصون فوق الغصون بتميل
يا ربّ ديم المحبّة بين حبايبنا على شان نغنّي سوا ونقول
يا ليل يا عيني ليلي يا عيني يا ليل
يا حبيبي بحبّك صدّقني احلفلك ليه بتكدّبني
هو انا لو اكون ما بحبّكشي ايه عالحلفان راح يغصبني

ازدادت وتيرة التواصل بينهما فمنسوب "الرّسميّة" في العلاقة قد ازداد وأحسّ كلّ منهما أنّه لا غنى له عن الآخر، هذا الآخر الّذي حلما به منذ سنوات المراهقة وها إنّه يتحقّق الآن أو على وشك أن يتحقّق بعد أن جمعتهما الأقدار في مكان واحد وستجمعهما في غضون أشهر تحت سقف واحد أو هكذا على الأقلّ يمنياني النّفس ويقنعانها. في اللّيل أرسلت له صورة التقطتها للذّكرى وبعض أغاني كاظم وشيرين ليؤنس نفسه بها في غيابها عنه ويتذكّرها في كل آن وحين، فلن ينسى أيّ منهما تلك اللّحظات الثّمينة التي جمعتهما جنبا لجنب والتي لا يقاس الزّمن ولا يحسب العمر الا بها وستظل عالقة بالبال على رأي أمّ كلثوم " وإن مرّ يوم من غير رؤياك ما ينحسبشي من عمري".

كلّ منهما يعمل على كيفيّة إيصال الخبر إلى العائلة وإقناعها به فالزّمن زمن التّواصل الإلكتروني وتقريب القلوب والآراء والمسافات. ذهب ذلك الزّمن الذي تتحكّم فيه العائلة وينضبط الأبناء لها وهي لا تخرج عادة عن دوائر صغيرة تتمثّل في أبناء أو بنات الخالة والعمّة ثم إن تعذّر الأمر، أبناء أو بنات الحومة أو الحيّ أو العائلة الموسّعة.

تجاوز مجد عراقيله وصعوباته هاتفيّا في انتظار العودة، فرحت العائلة، زغردت أمّه لا شعوريّا وعمّ بالبيت جوّ من الأنس والسّعادة لا يشعر به إلّا من عاش المناسبة. أمّا الدّكتورة فلا زالت تنتظر فرصة إجازة ما حتى تتحادث مع أمّها مباشرة وتحاول الإقناع ان كان هنالك ما يستدعي ذلك فحسب ما يبدو كلّ الأمور تسير لصالحها كما تريد وتشتهي لولا الصّعوبة التي عليها شخصيّة أمّها و "وين تحطّ نفسك تصيبها". ثم تذكرت قصيد محمّد فاروق محمّد فبحثت عنه وبدأت قراءته بتأنّ وتمعّن...

يا سيّدَ الكلمات موجُكَ شاهقٌ

كيف الوصولُ إليك قد حيَّرْتني ..؟

أغريتني بالشّعر في هَيَمَانِهِ

ما عدتُ أسمعُ غير ما أسمعتني

يا مَنْ تفتّشُ غائصاً متعمّقاً

خلف القوافي ممعناً ...أمتعتني

تسمو بإحساسي وتشعلُ خاطري

أحييتني بالشّعر ثمّ أمتّني

في الحبِّ ثمّ بلوعتي وبلهفتي

وبكلِّ معسول الكلام أحطتني

وتذيبني في الهمس تُنْعِشُ مهجتي

أضحكتني وبرغبتي أبكيتني

يا سيّد الكلمات عشقُكَ في دمي

حرّرتني بالحبِّ ثمّ ملكتني

وأنا الصّغيرةُ تُهتُ فيك كأنّما

ألقيتني في البحر ثمّ تركتني

أنت القويُّ تفوقُ كلَّ مداركي

أغريتني بالشّعر ثم فتنتني

غنَّيْتَ لم ترحمْ بشدوكَ ظامئاً

لرقيق حسِّكَ في هواك قتلتني

أمطيتني خيلَ الملاحمِ كي أرى

قيساً وليلى.. للغرام أخذتني

يا سيّد الكلمات أنت أميرُها

وأراك حرّرتَ الدُّنا وغزوتني

كيف اقتحمتَ حصون قلبي كلَّها

أبطلتَ كلَّ تمائمي وسحرتني

لم يجترئْ أحدٌ ليغزُوَ خاطري

فبحقِّ شعركَ كيف أنت سبيتني ..؟

يا سيّدي قد صار عشقُكَ آسري

أفلا رحمتَ براءتي ورحمتني..

وأكادُ أُجزمُ بالغرام مخامراً

قلبَ العذارى مثلما أسكرتني

لكنّني دوما أُخادعُ مهجتي

لأظلَّ منكَ حبيبةً.. أحببتني

فالغيرةُ الهوجاءُ تأكلُ خافقي

وأنا أهدِّئها بما أنشدتني

قد طُفْتَ بي بين الرياض محلِّقاً

وسَطَ الجِنَانِ بقوَّةٍ أحرقتني

وفتحتَ نافذتي لأبصرَ مَنْ أنا

وغمستني في النّور ثم شفيتني

عرَّفْتني معنى الحياة فذُقْتُها

من ناظريكَ بسحرها أبهرتني

يا سيّد الكلماتِ شعرُكَ صاغني

شيئاً جديداً للحياة صنعتني

أصبحتُ أُدْركُ ما الحياةُ ومَنْ أنا

في هذه الدُّنيا فقد علَّمْتني

يا مَنْ ملكتَ إدانتي وبراءتي

بقصيدكَ الفيَّاضِ قد أسقيتني

تسمو بألوان البيانِ فترتوي

من ثغركَ الكلماتُ حتَّى جئتني

أنطقتَ بالشّعر السّواكن كلَّها

وتركتَها تشدو بما كلَّمْتني

في البلاد و في حقيقة الأمر، لم يعد يُسمح بمزيد إهدار الوقت، نداء أطلقه بعضهم من قدماء الجنرالات، يكتب عنه الإعلامي عمر صحابو ويتحاور حوله الأصدقاء في ركن من أركان " المقهى الثّقافي" بقلب المدينة النّابض.

النداء يُختزل في أركان فكريّة أو سياسيّة كما عبّر عنه كاتبه كما يلي :

– لا مناص "من وحدة التّونسيين و تظافر جهود كل التونسيين مهما كانت مواقعهم ومهما اختلفت توجهاتهم، لأن الوضع لا يحتمل تشتت الأصوات."

– رئيس الدولة مطالب بتقديم بديل للاقتراحات المصرّ إلى حد الآن على رفضها، خاصة مبادرة الاتّحاد من أجل حوار وطني.

يقول مجد على لسان الكاتب: " تتجلّى بوضوح من خلال هذه الأركان الثلاثة، الغاية السّياسيّة – ولا أقول الوطنية – التي يستبطنها البيان، غاية تهدف إلى النأي بالمسؤولين الحقيقيين عن انهيار تونس وانحلال دولتها عن المساءلة والمحاسبة والمقاضاة إذا اقتضى الأمر. بعبارة أوضح من حكموا البلاد من 2011 إلى اليوم وهم النّهضة أساسا وحلفاؤها: نداء تونس، تحيا تونس، حزب المشروع الذي تحالف مع

النهضة في آخر حقبة من حكومة يوسف الشاهد وقلب تونس الذي سمح، بعد أن نكث بعهده للناخبين، للغنوشي وحزبه بالتحكم في السلطة التشريعية وبالتالي في ميكانيزمات الحكم في البلاد.

.لا يا سادة يا كرام! حاشا الله أن أشكك لحظة في سعيكم المشكور، إنما نداؤكم هذا لا يمكن أن يعدّ مساهمة في إنقاذ تونس وإنما يفضي في نهاية التحليل إلى التعجيل بانهيارها. فكيف لبلد أن ينهض من جديد من تحت أنقاض الخراب بمشاركة الأحزاب والرجال الذين أسسوا الخراب؟" صدق والله يجيب فهي كيف نبني بمن هدم ؟

." ثم إنكم تعتبرون أن الوضع لم يعد يسمح بإهدار مزيد من الوقت وتقترحون في نفس الوقت جملة من الإجراءات التي وإن كتب لها أن تحقق – وهو من باب شبه المستحيل – ستستهلك زمنا مهدورا طويلا. ثم أيعقل أن تجهّز خارطة طريق للإنقاذ يساهم في رسمها من حكم البلاد إلى اللحظة المنادية للإنقاذ؟ لاسيما أن خريطة الطريق هذه جاهزة من زمان، منذ مشاورات قرطاج 1 وقرطاج 2 والموقّع عليها من قبل كل الأطراف السّياسيّة والاجتماعيّة الفاعلة دون استثناء، إجماع من الصعب جدا أن يتحقق لو تم اعتماد مبادرة الاتحاد. وأول أولياتها: تطبيق القانون بعدل وحزم دون تمييز ثم مقاومة جذرية للفساد لا تستثني أحدا وثالثها تشكيل حكومة كفاءات لا تخضع لسلطان الأحزاب الكريه ولا لآليات المحاصصة الأكثر كرها! أتستوجب هذه الضرورات المستعجلة حوارا وطنيا جديدا وأنتم على علم بأن أول حزب اليوم في البلاد (الحزب الدستوري الحر) لا يقبل ولا يرضى بشكل من الأشكال الجلوس على نفس المائدة – وهو على حق – مع مدمّري البلاد ودولتها."

فعلا يجيب مجد هذا عين الصواب، لا نصلح ما فسد بآليات فاشلة أو جرّبت فلم تعط شيئا !

."أما فيما يتعلق باتهامكم المبطن لقيس سعيد بأنه لا يكتفي فقط برفض أو تعطيل الاقتراحات المقدمة له بل أكثر من ذلك بالتقصير أو بالعجز عن تقديم البديل، فتشوبه إما سوء النية أو الجهل! قيس سعيد قدّم بديله منذ حملته الانتخابية وجدّد التأكيد عليه في أكثر من مناسبة، سعيد يعتبر أنه لا خلاص لتونس إلا بتقويض النظام السياسي الحالي وقانونه الانتخابي العبثي اللذين أفضيا إلى المشهد السياسي الحالي المرفوض بفساده ورداءته واستخفافه بهموم الشعب وقضايا الأمة. فمن الطبيعي والمنطقي إذن أن يرفض كل مبادرة لا تنصهر صلب تصوره لخلاص تونس كمثل مبادرتكم التي لا ترمي في حقيقة الأمر مثلما قلت لخلاص تونس وإنما لخلاص من تسبب في انهيارها. من ذلك أن الاقتراحات العملية التي جاءت في بيانكم لا تسعى جملة وتفصيلا إلا إلى تركيز النهضة كرقم أساسي في المعادلة السّياسيّة الوطنية لا مجال لإقصائها ولا لاستبعادها دون أن نرتهن استقرار البلاد وأمن شعبها. وهنا يكمن مربط الفرس!

نعم يرد فهمي هنا يكمن مربط الفرس !

ويواصل القراءة: ".لنتحدث دون لف ودوران: النهضة حكمت البلاد طيلة عشر سنوات إما مباشرة بحكومات ترأستها قياداتها التاريخية (الجبالي والعريض) وإما بطريقة غير مباشرة بفضل خيانة من أثثوا شرعيتهم على مناهضة النهضة ثم تحالفوا معها طمعا في السلطة ومكّنوها من التمكّن من الدولة تمكينا! فالمنطق السياسي المجرد يقتضي أن تبتعد النهضة بطريقة أو بأخرى سياسية أو ثورية –

والفرضية الثانية ممكنة جدا – عن الحكم بعد أن أفضى حكمها مع حلفائها إلى ما تونس عليه اليوم من دمار شامل. لست شخصيا من دعاة إقصائها أو استئصالها وقد كنت خلال الثمانينات من أول الذين دافعوا عن حقها في التعبير والوجود، غير أن فشلها الذريع في الحكم يفترض إبعادها منه."

نعم يقول مجد المسألة مسألة نتائج وعلى ضوئها نتحرّك كمجتمع مدني !

ثم يواصل: " إذا كان الفشل والنّجاح في الحكم يقاسان بالنتائج، فالنتائج بعد عشر سنوات من حكمها ناطقة بذاتها: تونس أفلست على جميع المستويات. نعم أفلست! حسابيا تونس أفلست منذ حكم حليف النهضة الاستراتيجي الفاشل يوسف الشاهد! كل ما أقدمت عليه حكومته لا يعدو أن يكون سوى إجراءات ترقيعيّة مغلوطة عمّقت الأزمة وأجّلت حدوث الكارثة دون أن تمتصّ أسبابها، بلادنا تعيش منذ 2016 تحت نظام الإنعاش المفتعل، إنعاش التداين المتعاظم سنويّا إلى أن تبخّرت مصداقية تونس المالية على السّاحة العالمية، ناهيك أنّنا لم نعد نجد من نتسوّل منه ونتوسّل اليه ! "

نعم هذا هو الواقع يقول أحدهم ممّن كانوا قريبا منهما.

" مكان النّهضة اليوم الطبيعي – لا أتحدث عن حلفائها المنتهية صلوحياتهم عاجلا أم آجلا – هو المعارضة. فقط ولا غير! وفرضيّة ألاّ تنعم مستقبلا حتى بموقع المعارضة ليست من باب الوهم..."

يواصل مجد:

." بيان الجنرالات في نهاية الأمر يحتوي الأزمة الأخطر في تاريخ البلاد الحديث خدمة لنظام فاسد وأحزاب أفسد، عوضا عن استثمارها شعبيّا لاجتثاث جذورها وإحلال محلّها نظام يستجيب إلى تطلّعات الأغلبيّة السّاحقة من التّونسيين – حسب نتائج سبر الآراء – لنظام رئاسي يكون فيه الاقتراع على الأشخاص لا على "قطاطيس في شكارة". والرئيس قيس سعيد الذي استدرجتموه بخبث محمّلين إياه بين الأسطر مسؤوليّة الشلل المجمّد لتماسك وتكامل أجهزة الحكم لن يبارك أبدا حوارا مع مخرّبي البلاد... هكذا أراه شخصيّا في تناغم مع ما قال وما يقول وما سيقول. لو كان يؤمن بجدوى هذا الحوار لدعا اليه منذ أشهر."

ويواصل فهمي، يقول صحابو:

. " الحل مثلما أراه وكما وضّحت ضروراته في أكثر من فيديو يكمن في الحل الجماهيري، عن طريق حشد شعبي جبّار بالملايين يدعو إليه قيس سعيد بوصفه رئيس الدّولة ورئيس مجلس الأمن القومي والقائد الأعلى للقوّات المسلّحة يضع حدا للنظام السياسي السّائد ويبعد المنتفعين منه من الحكم، يتبعه تشكيل حكومة إنقاذ وطني حقيقيّة بشرفاء وشريفات تونس تعدّ في مدّة زمنيّة محدّدة مسبّقا دستورا جديدا وقانونا انتخابيّا جديدا وتسهر على تصريف الأعمال وإرجاع الثقة في الدولة داخليّا وخارجيّا.

دون ذلك لا إنقاذ ولا خلاص ! "

وهو حلّ فتح شهيّة النّقاش لكلّ من جلس حول الطّاولة أو جانبها. اختلف فيه الحاضرون كل حسب خلفيته وتوجّهه السّياسي لكنّهم اتّفقوا على تجديد الدّماء في

الحكم والدّستور والالتجاء فقط لكلمة الشّعب عبر صناديق الاقتراع حتّى تكون له الكلمة الأولى والأخيرة.

أما صديقته الدّكتورة فقد استوقفها مقال الإعلاميّة دنيا حفصة[26] وهي تتسقّط أخبار ميدانها الكوفيد 19 ومدى اندثاره أو انتشاره في البلاد وما يدور حوله حاليا.

" وتشير كل المؤشّرات حول تطوّر الوضع الوبائي في البلاد إلى أنّ الموجة الرّابعة باتت وشيكة أمام تواصل ارتفاع حالات الإصابات المؤكّدة وارتفاع عدد الوفيّات وارتفاع الضّغط على المستشفيات الّتي تجاوزت جلّها طاقة الاستيعاب القصوى للمرضى سيما في أقسام الإنعاش، ومع تواصل خطورة الوضع الوبائي وانتشار السّلالة الجنوب إفريقية في البلاد ، تتصاعد المخاوف وتتجدّد الدّعوات إلى الالتزام بالإجراءات وتتالى التّحذيرات من مختلف الهياكل الصحّيّة الّتي باتت تراهن من جديد على وعي المواطنين عبر الالتزام أوّلا بالتّدابير الوقائيّة وثانيّا بالإقبال المكثّف على التّسجيل في منظومة ايفاكس للانتفاع بالتّلاقيح، علما وأنّ عدد الجرعات المستعملة إلى حدود أمس قد بلغ المليون جرعة.

مازال الوضع الوبائي يوصف بالحرج جدّا وحتّى الإجراءات الّتي تمّ إقرارها خلال عيد الفطر: الحجْر الشّامل لأسبوع لم تساهم في تحسين الوضع، وحسب ما كشفته المديرة العامّة للمرصد الوطني للأمراض الجديدة والمستجدّة نصاف بن علية في تصريحات إعلاميّة فإنّ 18 ولاية تشهد مستوى إنذار مرتفع جدّا بسبب ارتفاع

26 دنيا حفصه جريدة المغرب بتاريخ 2021/06/03

حلقات العدوى، مشيرة إلى تواصل ارتفاع نسبة التّحاليل الإيجابيّة الّتي تجاوز معدّلها 22 %، وبيّنت أنّه تمّ الانطلاق في عمليّات التّقطيع الجيني بطريقة عشوائيّة لعيّنات من التّحاليل الإيجابيّة، في كامل تراب الجمهوريّة، لمزيد اكتشاف بقيّة السّلالات الّتي يمكن أن تتواجد في البلاد..

وأثبتت التّحاليل و التّقطيعات الجينيّة أن السلالة البريطانية هي الأكثر انتشارا في البلاد تليها السّلالة جنوب أفريقيّة الّتي تمّ اكتشافها لدى 5 أشخاص من بينهم 4 أتمّوا فترة حجْرهم الصحّي ولم تكن لهم حلقة عدوى في المحيطين بهم، وفق تأكيدات نصاف بن علية خلال إشرافها على أشغال اللّجنة الجهويّة الموسّعة لمجابهة الكوارث وتنظيم النّجدة بالقيروان التي تشهد وضعا وبائيّا خطيرا جدّا، لتقرّر اللّجنة عدّة إجراءات سيتمّ العمل بها لمدّة أسبوع منها خاصّة رفع الكراسي والطّاولات في الفضاءات المغلقة للمطاعم والمقاهي ودعوة البلديّات لعدم منح التراخيص لإقامة الحفلات والتّظاهرات العامّة والخاصّة، إلى جانب تعليق كافّة الأنشطة الثقافية، وغلق الأسواق الأسبوعيّة، ودعوة رؤساء إقليمي الأمن الوطني والحرس الوطني والمعتمدين إلى تطبيق قانون حظْر التجوّل ساري المفعول والّذي ينطلق من العاشرة ليلا إلى غاية الخامسة صباحا. كما تمّت دعوة كل أصحاب وسائل النّقل العمومي والحضري والخاصّ إلى ضرورة ارتداء الكمّامات، وسيتمّ تطبيق الإجراءات القانونيّة على كلّ مخالف، إلى جانب دعوة الإدارة الجهويّة للتّعليم إلى تفعيل إجراءات البروتوكول الصحّي بالمؤسّسات التربويّة خلال الامتحانات..

كما أقرّت ولاية سيدي بوزيد بدورها حزمة من الإجراءات لكسر حلقات العدوى تتمثل في غلق الحمّامات وقاعات الرّياضة وقاعات الأفراح والتطبيق الصارم لإجراء استغلال 30 % من طاقة استيعاب المقاهي والمطاعم، والتشديد على تطبيق البروتوكول الصحي في كل الولاية، وتعليق صلاة الجمعة في عدد من البلديات للحد من انتشار العدوى، نفس الوضع في ولاية قفصة، حيث قرّرت السلط الجهوية بالجهة تعليق نشاط كلّ الأسواق الأسبوعية وفي كافة معتمديات الجهة لمُدّة أسبوعين، القائمة يمكن أن تطول وأن تشمل ولايات أخرى أمام التّصاعد غير المسبوق للوباء والّذي قابله ضعف الإمكانيّات المادّية والبشريّة والصّحية، ليبقى حاليّا الالتزام بالإجراءات والبرتوكولات الصحيّة والتلقيح الأسلحة الناجعة للتوقّي من الفيروس، الأمر الّذي جعل كافة الهياكل المعنيّة والحكومة تتابع عن كثب عمليّات التّلقيح...

الفترات القادمة ستكون صعبة وصعبة جدّا لتزامنها مع عودة التّونسيّين من الخارج والوافدين من السيّاح وتزايد الاحتفالات العائليّة والتظاهرات الثقافيّة الصيفيّة التي يصعب فيها الالتزام بمقتضيات البروتوكول الصّحّي، في انتظار القرارات الجديدة للّجنة الوطنيّة لمجابهة الكورونا."

قرأت المقال من أوّله إلى آخره وكطبيبة مباشرة أطلقت تنهيدة من لا يستطيع للأمر شيئا فالرّؤية السّياسيّة شيء والواقع الصحّي شيء آخر وتداخلهما ربّما يزيد في الطّين بلّة كما حدث يوم 27 جوان من عام مضى عندما فتحت أبواب المطارات على مصراعيها لتتّسع دائرة المعاناة وتتوسّع كنقطة زيت على قماش أبيض لا يوقفها أيّ

شيء وهكذا كان وغير هذا تتمنّى أن يكون... أن يترك الجانب الصحّي بعيدا عن السّياسة و "كواليسها وترّاهاتها " وحساباتها...

الفصل الرابع والعشرون

ها إنني أهرب منك إليك في حدة وحدتي ولهيب اشتياقي وحريق أشواقي وحر متاعبي فأجد الف سؤال حائر منك.. لك و عنك...؟ وتعوزني الحيلة لفك طلاسمك...

في قربك كم اعشق ان اقرا كلماتي في عينيك مرتبة، متراصة هادئة ومنسجمة وكم اشتم عطرها من خبايا وجدانك...

كم اعشق صلواتي في رحاب مقدساتك وشعوري بوجودي بين ثنايا روحك.. كم اعشق ان املك الدنيا في دفء حضورك ولذيذ كلماتك... وكم من كم تسكن أوجاعي...

في صمتك انشغل وانفعل و أتسربل بهواجس تتصارع في متاهات عقلي... في ليل طويل، دامس... حالك السواد...

وكم اعشق حيرتي لأنني افكر فيك.... حيرة فلسفية وجودية تغمر كل كياني كلما أبطأ طيفك او غاب عن أعذاري...

كم اعشق كلماتي لأنها تنبض من أعماق ذاتي ملتفة بحروف باسمك وبأفكارك وهي منك واليك... ولا احب فراقك لآنه يرهقني كغيابك... فيثقل كاهلي... ويزيد من منسوب انفعالاتي وانسى الماضي والآتي.

كم اعشق انتظارك على عتبات الفرح لأنه سبب الهامي وعميق أحلامي و انسياب كلماتي ماء سلسبيلا من أعماقي فيروي عطشي ويطفئ لهبي... فتتفتح براعمي... وأكتبك !

أعطيتك وعدا صادقا وأنا بالوعود أحتمي وفي الوفاء ارتمي ولك أنتمي.. لعلني بهذا انتشيت ونفخت فيك الروح من جديد...

عندما التقى بها ونزعت عنها رداء الافتراضي وأصبحت حبيبة واقعيّة حقيقيّة رائعة، بلحمها وشحمها وخفّة روحها وجمال حضورها وقوّته، كانت تراوده الكثير من الأسئلة لم يشأ أن يعكّر بها صفو تلك الجلسة الهادئة المريحة، خاصّة بسؤال دائم الحضور في ذهنه، لم يجد له جوابا فلقد مدّها في بادئ تعارفهما برقم هاتفه اتّصلت به لثواني معدودة، ربّما لتتحقّق من صوته وأنّ نبراته، نبرات رجل مجهول لديها، واعتذرت قائلة له أنّها في اجتماع بالإدارة وستتّصل به لاحقا ومنذ ذلك اليوم وهو ينتظر سماع صوتها و يهفو إلى جهازه كلّما رنّ رنّته المعتادة. لم تتّصل به كثيرا حتّى في تنسيق موعد اللّقاء إلى آخر لحظة كانت تستعمل المسّنجر في رسائل صوتيّة أو خطيّة، حتّى وإن أظهر لها رغبته في ذلك، تتحاشى كثيرا التواصل الهاتفي، قد ترسل له رسالة صوتيّة لكنّها لا تتصل به هاتفيّا وكأنّها مراقبة، حركة غريبة نوعا ما لم يجد لها تفسيرا وإن كان هو نفسه لا يرى إشكالا في ذلك لو فقط فسّرت له الموقف ووجهة نظرها في الموضوع وهي التي لم تلمّح ولو تلميحا لذلك. طوال أشهر كانا يتواصلان يوميّا عبر كل الطّرق ما عدا الصّوت ونبرته وقوّة إيصاله للفكرة والمعلومة والمشاعر والأحاسيس ولم تتّصل به بمكالمة مطوّلة إلاّ بعد اللّقاء وهو في طريقه إلى مدينته. لكنّه سيعرف الجواب يوما ما خاصّة وأنّهما تعارفا وتقاربا ولم تبق أيّة هوّة بينهما، وسيهدأ باله وأنّ الأمر لا يعدو أن يكون سلوكا أو انشغالا أو حذرا وأنّها دائمة التّواجد بين الآخرين هذا الآخر الّذي يخشى من تطفّله وحبّ اطلاعه خاصّة لدى فئة النّساء. هي ذكيّة جدّا وليست بالشّيء الهيّن بل " بنت وقتها" لإيصال ما تريده وهذا أيضا يشدّه إليها وهو يفهمها جيّدا ويتفهّمها امتيازا رغم غموض الأنثى الغريزي

فيها. إنّها الطّبيبة الجديّة الجريئة، من آخت روحه وسكنت قلبه وداوت البعض من جروحه. إنّها كلّ حياته وأجمل ما فيها...

تواصل معها بنفس الطّريقة التي تحبّذها فهو أيضا لا يقلّ عنها ذكاء، يفهم ما في الكلمات، داخلها وخارجها، ما لفّت به وما بين السّطور وحسب السّياق. يفهم متى تريد التّواصل ومتى تكون مشغولة ومتى تودّ أن تستريح ومتى يرهقها ذلك فلا يتواصل معها إلاّ لمّا تجيبه. غايته الأولى والأخيرة نجاح هذه العلاقة فهو لا يودّ إزعاجها ولا حتّى أن يكون ثقيل ظلّ في ارتباطه الودّي معها رغم حبّه الجارف لها وتعطّشه للتّواصل معها، والحديث والنّقاش في كلّ المواضيع الحياتيّة واستماع بعض الأغاني المهدّئة والمريحة لنفسه على الأقلّ. على رأي محمود درويش " أحنّ إلى خبز أمّي" هذه الأغنية التّي وجدت كلماتها صدى في نفسه.

"أحنّ إلى خبز أمّي

وقهوة أمّي..

ولمسة أمّي..

وتكبر فيّ الطفولة

يومًا على صدر يوم

وأعشق عمري لأنّي

إذا متّ،

أخجل من دمع أمّي !

خذيني، إذا عدت يومًا

وشاحًا لهدبك

وغطّي عظامي بعشب

تعمّد من طهر كعبك

وشدّي وثاقي .. بخصلة شعر

بخيط يلوح في ذيل ثوب

ضعيني، إذا ما رجعت

وقودًا بتنّور نارك

وحبل غسيل على سطح دارك

لأنّي فقدت الوقوف

بدون صلاة نهارك

هرمت، فردّي نجوم الطّفولة

حتّى أشارك صغار العصافير

درب الرّجوع.. لعشّ انتظارك

و لمزيد التعمّق فيما خفي من شخصيّتها أرسلت له فيديو يتحدّث عن صاحبة برج السّرطان بدقّة وإطناب فبحث بدوره عمّا كتب عنه:

يقول برجها: " سيظهر له الفلك أمراً جميلاً جداً وهو تحقيق بعض الأحلام والإنجازات من الممكن أن تفوق توقّعات السّرطان أو عمل جديد أو عرض يشبع غروره ويحقّق من خلاله أرباحاً مادّية وقد يشارك فريقاً للعمل على إنجاز عمل مهم.

.وأهمّ مميّزات برج السّرطان أن امرأة برج السّرطان من الشّخصيّات الهادئة التي تتحلّى بالسّلام الدّاخلي كما أنّها شغوفة، حسّاسة وفي بعض الأحيان تكون عنيدة ومتصلّبة الرأي. إضافة لذلك فهي تمتلك درجة عالية من العزيمة والإصرار.

.قد تجد امرأة برج السّرطان في بعض الأحيان تتقوقع بعيدا عن الآخرين في عالمها الخاصّ عندما يتمّ مضايقتها أو استفزازها. وفي هذه الأوقات يظهر الجانب المتشائم والعدواني بكلّ وضوح، فعندما تكره شخصا معيّنا، فلن تبذل أي مجهود لإخفاء هذه المشاعر كما قد تفعل في المعتاد.

ورغم ذلك، تعتبر امرأة برج السّرطان من أكثر شخصيّات الأبراج حساسيّة واهتماما بالآخرين، كما أنها تتمتّع بمخيّلة نشطة وتعشق بجنون ولديها شعور دائم بالرّغبة في حماية الآخرين والاعتناء بهم خاصّة أولئك المقرّبين إلى قلبها.

و عن شعار امرأة برج السّرطان في الحياة:

"أنا أشعر إذا أنا موجود"

.امرأة برج السّرطان عاطفيّة بدرجة كبيرة، فهي تقدّر الزّهور والهدايا وتحبّ قصائد الحبّ. إذا أردت أن تفوز بقلبها، عليك إبهارها. هي أيضا تحب أن تتمهل وتأخذ وقتاً

كاف قبل الوقوع في الحبّ كما أنها تبحث عن شريك حساس المشاعر مثلها. ليس من السّهل على امرأة برج السرطان الوثوق في الأخريين، ولكن إذا كنت من المحظوظين الذين نالوا هذه الثقة، فسوف تفوز بمساحة كبيرة من قلبها. تتميّز امرأة برج السّرطان أيضا بأنّها صبورة وتحرص دوما على البقاء بجانب شريك حياتها في أوقات الأزمات وتسعي لمشاركته في تخطّي كافة العقبات التي يواجها. وهذا ما يجعلها شريكة فريدة من نوعها. تحبّ امرأة برج السّرطان الرّجل الذي يعبّر عن عواطفه طوال الوقت فيحتضنها من حين لأخر ويعدّ لها بها عشاءا رومانسيّا على أضواء الشّموع. كلّ اهتمامها يتعلّق بعائلتها وبيتها، فهي تعطي دوما الأولويّة لهم ولأصدقائها المقرّبين إلى قلبها فتحرص على الاهتمام بهم وتدليلهم وإعطائهم الحبّ طوال الوقت.

ويواصل وكأنّه يكتشف أغوار المجهول.

.ربّما تكون امرأة برج السّرطان هادئة ولا تحاول التّباهي بأعمالها طوال الوقت كما قد يفعل الآخرون، لكن هذا لا يعني أنّها لا ترغب في التّقدم للأمام أو تحقيق النّجاح. فهي تفضل أن تعمل في صمت كما أنها تفهم الآخرين بسهولة ولديها قدرة عالية على الحكم عليهم بدقّة وبشكل ناجح وتعتبر امرأة عاملة ناجحة. تستطيع امرأة برج السّرطان أيضا أن تتصرّف بحكمة في الأمور المتعلّقة بالمعاملات المادّية كما أنّها مبدعة وتمتلك حدس مهني ومهارة عالية في إدارة الأعمال.

.تهتم امرأة برج السّرطان بالآخرين، وتسعى طوال الوقت للتّأكد من أنّ المحيطين بها سعداء وآمنين. فهي دائمة السّؤال عن النّاس وترعى أولئك المقرّبين إليها. ولكنّها في نفس الوقت حسّاسة للغاية وتنجرح بسهولة حتّى من الجمل العابرة الغير

مقصودة. قد تنسى هذه التّعليقات فيما بعد، لكن ليس قبل الخروج من قوقعتها الخاصّة. أصدقاء امرأة برج السّرطان يحتلّون مكانة خاصّة وعزيزة في قلبها، وهذا ما يجعلها صديقة وفيّة ومخلصة."

لكن ما استنتجه من خلال تواصلها معه "أنها امرأة مزاجية الطباع، تكره الأوامر، لا تجيد لغة النفاق، صراحتها قد لا تعجب الجميع.. عزيزة النفس.. حرة الذات... هادئة لحد الغموض ... عنيدة لأبعد الحدود.... ذكاؤها حاد يحتاج لفهمها الأذكياء.... لا تحب أن يملي عليها أحد ما يجب أن تفعله.... لا يشبهها أحد غير مرآتها... تهجر من يفتقد الأدب معها... يسعدها المطر وتعشق الليل وكاظم السّاهر. كبرياؤها يصل إلي عنان السماء وقد تتركك وهي في أشدّ الحاجه و الاحتياج اليك. مزاجية ورقيقة وجميلة. حنونه كالأم وقاسيه كالحرب وهي مزيج بين الثلج والبركان تعيش بقلب طفله وتتقدم بقلب عشيرة من الرجال ولم يصادف مثلها من النساء" !

***

"يضرب الحب شو بيذل" أغنية كثيرا ما يردّدها مجد بينه وبين نفسه كلّما وجد نفسه منشغلا بالدّكتورة ويفكّر فيها وها إنّه أخيرا أصبح يهتمّ بالأبراج ليعرف الجزئيات الخافية عنه وأصبح يعتقد في ذلك عندما يقف على شيء ما من شخصيتها قرأه ضمن ما كتب في الأبراج. أصبح يرسل لها عبر الوسائط الاجتماعيّة ما يقوله له عنها برج السّرطان. لكنّها تبدو منقطعة عن واقعها تسبح في عالم آخر أو على الأقل تتخبّط في بركة من الأفكار والآراء والتّجاذبات...

ذات يوم ربيعي وهي خارجة من المصحّة التي تشتغل بها وفي مركن السيّارات، تتوقّف أنفاسها وتزداد دقّات قلبها وتختنق العبرات في صدرها وتمطر بغزارة ذكريات ماض

ذهب ولن يعود. صدفة وهي تهمّ بتشغيل سيّارتها تتفاجأ بالدّكتور شهاب بجانب سيّارته بهيبته وجلاله وجمال ماضيه. تقطّعت أنفاسها وهو يقف أمامها مبهوتا ويسلّم عليها بحرارة سنوات خلت ويسأل عن أخبارها وسبب تواجدها هناك ويعزمها لشرب قهوة والمزيد من الحديث دون أن ينتظر منها جوابا.

لم تجد إلا كلمات اعتذار بسيطة.. حدّثته بإيجاز وتركته في مكانه مشدوها مصدوما وغادرت المكان. لم تسأله عن أيّ شيء ولا حتّى عن سبب تواجده هناك بل تركت له بطاقة بها هاتفها ومكان عملها وغادرت المكان مسرعة وقلبها يكاد يقفز من بين أضلعها !

ويبدو أن أمّها عارضتها في الزّواج من مجد، فهي تريدها أن تتزوّج طبيبا مثلها وأن يكون أحفادها أطبّاء وأن تتباهى بها وبهم في مدينتها وبين أهلها وجيرانها وكامل عشيرتها وكانت تعرف علاقتها بشهاب ولها التّأثير الكبير عليها... ممّا عكّر ويعكّر دائما صفو مزاجها وهي التي تعتبر أنّها وجدت فارس أحلامها الحقيقي وقد حفرت خندقا افتراضيّا في أعماقها لدفن الماضي الجميل في أرجائه وما ربطها بالدّكتور شهاب...

لم تنم ليلتها، باتت تتقلب على جمر اللّظى. لقد أحيا لقاؤه ما اعتبرته مات داخلها ولكنّه لم يمت. في الواقع كانت تميل لصديقها مجد عقلا ولكن قلبها كان لا يبارح الدّكتور يتنقّل معه جهرا وخفية ويؤنسه في غربته ووحدته وأبحاثه...

الفصل الخامس والعشرون

إنه يوم الأحد وصديقته مشغولة مع أختها وعائلتها وقد يتراءى له ذلك. أرسل لها ضمن تحيّات الصّباح وردا وشعرا وفقرات من روايات يكتبها في حين خرج هو رفقة صديقه ليشربا قهوة على ناصيّة الشّارع تحت أشجار "الفيكيس" ويتحادثا مع بعض الأصدقاء فالصّيف بدأ مبكّرا هذه السّنة وأخبار الكورونا ما زالت تخيف النّاس وتزعجهم خاصّة تلك القادمة من سيدي بوزيد والقيروان بالذّات. أمّا عن التّجاذبات السّياسيّة فحدّث ولا حرج. وعن الأوضاع الحاليّة تكتب كريمة الماجري، يقول صديقه وهو يتصفّح هاتفه: [27] " في الوقت الذي أطلق فيه أعضاء اللّجنة العلميّة لمجابهة فيروس كورونا صيحات فزع حول تأزّم الوضع الوبائي في تونس أكّدوا على ضرورة الالتزام بمقتضيات البروتوكول الصّحّي وأهمها التباعد الجسدي ومنع التجمّعات، تنتظم المسيّرات الحزبيّة ويحتشد من أجلها مئات الأشخاص من كلّ الجهات.

الحقّ في التّظاهر والاحتجاج لا جدال حوله وهو مكفول بالدّستور، لكن الوضع الصحّي اليوم لا يتحمّل مزيدا من التّدهور. فحسب آخر المعطيات المقدّمة من قبل اللجنة العلميّة ومن اللجنة الوطنيّة لمجابهة فيروس كورونا تعرف 21 ولاية وضعا وبائيّا حرجا مع التّنبيه إلى اقتراب موجة رابعة قد تكون أشدّ وأخطر من سابقاتها، وتبعا لذلك تمّ من جديد إقرار منع التجمّعات والاحتفالات العائليّة وغيرها كذلك

27 جريدة المغرب بتاريخ 2021/06/07 كريمه الماجري

التّظاهرات الثقافيّة والرّياضيّة والالتزامات بكافّة البرتوكولات وحظر التجوّل .... في أغلب هذه الولايات من أجل كسر سلسلة العدوى، مع الدّعوة إلى أخذ العبرة من الفترة الماضية عندما تعدّدت المسيرات الحزبيّة والاحتجاجات دون قيد او مراعاة للظّرف الصحّي. ممّا ساهم في الموجة الثّالثة التي وصل فيها عدد الوفيّات يوميّا إلى أعلي معدّلاته بأكثر من مائة حالة وفاة في اليوم الواحد ووصلت فيها المستشفيات إلى أقصى طاقة استيعابها. لم تتجاوزه المنظومة الصحيّة بعد هذا الوضع حتّى وان شهدت بعض الاستقرار لكنّه استقرار في مستوى عال.

لم ينف أعضاء اللّجنة العلميّة آن المسيرات الحزبيّة في الفترة الماضية وخاصّة منها مسيرتا حركة النّهضة و الدّستوري الحرّ اللتين جيّشت لهما جحافل من المساندين من كلّ أنحاء البلاد ساهمتا في تفشّي العدوى. كذلك مسيرة للدّستوري الحرّ، في محيط مجلس النّواب للمطالبة «بتحرير البرلمان من دكتاتوريّة الإخوان» والتي لم تحترم فيها التّباعد الجسدي مع عدم الالتزام بارتداء الكمّامة من كلّ الموجودين ...

كان بالإمكان مراعاة خطورة الوضع الصحّي حتّى وان حصلت على ترخيص من أجل المسيرة، هذا من ناحية منع التجمّعات ومنع التظاهرات في العديد من الولايات... ثم السّماح لحزب بتنظيم مسيرة من قبل نفس الحكومة التي تصدر هذا القرارات أمر يدعو للتّساؤل والاستغراب .

من المتوقّع ألا يكون هذا التجمّع بمئات المشاركين هو" الأخير"، أمام درجة الغليان في الشّارع حول الزّيادات الأخيرة في الأسعار والدّعوات "المستمرّة" للاحتجاج

والمطالبة بالتّراجع، في المقابل تونس مهدّدة بموجة أخرى رابعة أخطر لانتشار فيروس "متحّول" في الأيام المقبلة القليلة."

والغريب أن جحافل من الأطبّاء تغادر البلاد وسط لامبالاة الدّولة بل غيابها الملفت للنّظر تقول صديقته الطّبيبة وقد أرسلت له مقالا يتحدّث عن ذلك:[28] "إنّ أسباب هجرة الأطبّاء التونسيين لم تعد تقتصر على ضعف الإمكانيات الماديّة وظروف العمل المزريّة بالمستشفيات، وإنّما أصبحت تشمل أيضا تفاقم ظاهرة الاعتداء بالعنف على الإطارات الطبيّة وشبه الطبيّة خلال أدائهم لعملهم، موضّحا أن 6 بالمائة من العنف المادّي المسجّل في القطاع العمومي يخصّ قطاع الصحّة وذلك دون اعتبار العنف اللفظي الذي أصبح يسلّط بصفة يوميّة على هذه الفئة." كما صرّح بذلك الكاتب العام لعمادة الأطبّاء.

ويؤكّد الطّبيب الجرّاح سليم بن صالح الذي كان رئيسا لعمادة الأطبّاء انّ " قرابة ثمانين بالمئة من الأطبّاء الشباب هاجروا الى الخارج في 2019"، محذّرا من كبر سنّ الأطبّاء في القطاع الحكومي.وهو ما يزيد الطّين بلّة والأوضاع تأزّما...

صديقه القادم من الأعماق التونسيّة والمتأقلم مع كلّ الأجواء، شابّ طيّب بشوش يميل إلى مزج الهزل بالجدّ فلا تكاد تعرف منه أجدّا أو هزلا يتحدّث. دائم الابتسامة " بايعها بلفته" كما يقول مثلنا العامّي و " بوزيد مكسي بوزيد عريان" هي كلمته الدّائمة على شفتيه، لا تهمّه زيادة الأسعار ولا حتّى الزيادة في الأجور فسيّان عنده هذا وذاك ومع ذلك فهو محظوظ تتكالب عليه الفتيات والمشترين والمشتريات وقد

28 /tunisie-telegraph.com/2022/03/17

فتح دكّانا لحسابه الخاص . استوت عنده كلّ الأشياء على رأي حكيمه المرجع المعرّي ابن معرّة النعمان حيث يقول: " غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنّم شادي..." يجلس معه مجد كلما غابت صديقته عن إلهامه وغاصت في هموم النّاس ومشاكلهم الصحيّة واستولت على عقله الوساوس ويقول في نفسه: "رجعت حليمة إلى عادتها القديمة"، تلك العادة التي جبلت عليها ولم تنسها، أي تغيب في أعماق الصّمت فلا يعرف عنها شيئا وتلازمه الوساوس، فهو يرى اهتمامها به و وجودها في البال ضرورة أن تعبّر عنه بإرسالية، بصورة، بكلمه بأيّ شيء ممكن ساعة فنجان القهوة أو الغداء أو كأس الشّاي إن أرادت ذلك وقد أصبحت شبه خطيبته ولكنّها في أغلب الأوقات تصمت صمتا مقيتا رهيبا باردا برودة الثلج والأكيد أنّها مشغولة بعملها ومع من معها ولكنّه لا يطيق ذلك، لا يطيق الصّمت، فهي لحظات مهدورة من الحياة ضاعت في خفاياها ولن تحسب من عمره الذي ضاع أغلبه في متاهات الوجود والوجوديّة. فهو يخرج إلى الشّارع ويلتجئ إلى فهمي، يتقوقع معه في مكان ما يزيل كل أتعاب الدّنيا ويضحك ما شاء له ذلك من حكايات صديقه ونوادره واستنتاجاته من الحياة عبر واقعها وافتراضها وفلسفته المتأتّية من ذلك. ذات يوم وكانا معا " يضحكان بالدّموع" سرد له قصّة كتبتها إحدى صديقاته، هذه المرحة دائما عبر صفحتها في الفايسبوك، وفحواها أن رجلا سأل صديقه: كيف تعرفت على زوجتك؟

أجابه ببراءة: عن طريق كلب!

رد صديقه مندهشا: عن طريق كلب؟؟

أجابه: نعم كنت ذات عصر يوم ربيعي، وقبل خمس عشرة سنة، أتنزّه مع كلبي الشيبرد، حينما تقدمت الي فتاة جميلة وأخذت تداعب الكلب وتبدي إعجابها به، حتّى عرضت على أن تشتريه مهما كان السّعر... لكنّني اعتذرت لها بأنّني متعلّق به جدّا ولا يمكنني الاستغناء عنه. وبالأخير تبادلنا أرقام هواتفنا... كانت دائمة الاتصال بي لتطمئنّ على كلبي.... بالأخير عرضت عليّ (وسط دهشتي) أن نتشارك الكلب بأن أتزوّجها... وهذا ما تمّ فعلا وقد أنجبنا طفلين قبل أن يموت الكلب! وبعد موت الكلب وما كابدناه من وجع الفراق وحزن الفقد، قلت لها: لك مطلق الحريّة أن تنفصلي عنّي بعدما أندثر الرّابط الأساسي والرّئيسي بيننا!! لكنّها يا صديقي فاجأتني بقولها: لا من المستحيل أن افترق عنك فأنت "من ريحة المرحوم.." ضحكا ضحك طفلين معا وواصلا حكاياتهما.

وقد بدأ فهمي سعيدا باستعداده لزواجه من سيّدة الشّبكة العنكبوتيّة واستقراره نهائيّا في منزلها. أفصح بذلك خلال هذا اللّقاء وواصل سرد حكاياته.

أما صديقنا مجد فصديقته الدّكتورة لا تفارق باله ولا مخيّلته، فهو يحبّها حبّا عميقا ولم يتجرّأ يوما أن يتحدّث عنها لصديقه أو لأيّ كان تطبيقا لما جاء من حديث" اعملوا على قضاء حوائجكم بالكتمان". فهي تكاد تكون من أسرار دولته يحافظ عنها وعن خصوصياتها في أعماق الأعماق ولا يتمتّع بكل الأشرطة الافتراضية المسجّلة معها في مخيّلته إلاّ وحيدا ليتنهّد حرّا ويدمع حرّا وتجتاحه نار الشّوق والمحبّة حرّا وحيدا. خوفه أن تستمرّ طبيعتها هذه حتّى بعد الزّواج فتنهار آماله وأحلامه، فما بالطّبع لا يتغيّر كثيرا وهذه الجزئيّات الصّغيرة البسيطة لها

الأهميّة الكبرى في حياته أليس هو " الصّيدلي الشّاعر المتيّم وهي الطّبيبة السّاحرة " كما تُعلّق دائما...

كتب لها:

خبريني بالله عليك.. أي قدر ساقكِ الي وأي قدر سأقنى اليكِ أخبريني أأنا منك.. أم أنت مني أأنا أشبهك أم أنتِ تشبهينني أم التقيتني لأكملك.. أم التقيتك لتكمليني خبريني يا أجمل النساء في عمري... يا أجمل من حلم... و يا أصدق الرؤى. كيف لى أن احبكِ كل هذا الحب.. ماذا بقلبي فعلت.. اتدري حتى صمتك حديثه يصلني... وما أجمل حديث عينيك. يأخذني من نفسى اليك... احبك ويكفيني"..فعلت.. اتدري حتى صمتك حديثه يصلني... وما أجمل حديث عينيك. يأخذني من نفسى اليك... احبك ويكفيني.."

أمّا فهمي فقد تحادث مع إلهام في إحدى الأمسيّات وحدّدا موعدا بداية شهر جويلية للخطوبة الرّسميّة وعند فتور الجائحة وضعفها للزّواج بعد أن تحادثت مع عائلتها وأصبح الطّريق شبه سالك، إذ ما زالت بصدد التّحضير النّفسي، ليتقدّم لخطبتها على سنّة الله ورسوله على أن يكون الزّواج في فترة لاحقة، فالجائحة تخبط خبط عشواء ولا أحد يتكهّن بالغد، فليتزوّج ليعيش معها أجمل فترات العمر، إن كان في العمر بقيّة، بعد أن تعرّف كلّ منهما على الآخر معرفة تامّة، دقيقة، كانت ممهّدة لزواج هانئ سعيد وبناء العشّ في كنف التّفاهم والانسجام والاحترام.

فقد اختارا اليوم بدقّة وله ارتباط وثيق بوجودها في هذه الحياة ليبقى ذكرى خالدة يحتفلان بها كلّ سنة. ناهيك عن فرحة والديهما وكلّ العائلة و الأقارب. أخيرا شاءت

الأقدار ذلك لتستقرّ وصديقها ويواصلان، كلّ في ميدانه كمواطنين صالحين، المساهمة في بناء هذه الدّولة المنهارة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من منظومة مهترئة زادها الجهل بالشّيء و" الحجامة في رؤوس اليتامى" تقطيعا لأوصالها. اختار توقيت الخطوبة والزّواج وبرمجا لشهر العسل حتّى يزيح من حياة صديقته كابوس الماضي و إحباطاته.

مراسم الخطوبة في أعماق البلاد قديمة متطوّرة فتجد فيها هذا وذاك ما هو موروث قديم متجذّر في أعماق التّاريخ وما هو جديد متجدّد به روح العصر والمعاصرة ومسايرة الزّمن الحاضر ومواكبته.

و يسمّى هذا اليوم، يوم " قريان الفاتحة"[29]، في هذا اليوم تذهب فيه عائلة العريس إلى بيت العروس، حيث تأخذ برفقتها الهدايا الرمزية وخاتم الخطوبة الذّهبي وكعكة الخطوبة اللذيذة لعائلة العروس؛ ذلك للتّعارف بينهم وليتمّ طلب يدها، وذلك بترديد الجملة المعتادة "جيناكم خاطبين راغبين في بنت الحسب والنّسب" وعندما توافق عائلة العروس تتمّ قراءة الفاتحة والدّعاء للخطيبين بالخير ثم تبدأ المراسم بما فيها من جديد وقديم تلبيس الخواتم وأخذ الصّور التّذكارية وتنطلق الزّغاريد وكوانين البخور فتعمّ روائح " الوشق والدّاد" الأرجاء. تُوزّع المشروبات والحلويّات على الحاضرين ويتمّ على إثرها الاتفاق على موعد الزّفاف وبهذا تنتهي الخطوبة لتبدأ تحضيرات حفل الزّواج فيخرج الخطيبان مع بعضهما كلّما سنحت لهما الفرصة وكلّ يتعرّف عن كثب عن طبيعة الآخر ومزاجه ومدى تأقلمه معه ويبدأ كلّ منهما في التّحضير لبناء عشّ الزوجيّة بما يلزمه من تجهيزات ضروريّة.

29 عرين لبيروني موقع e3arabi.com بتاريخ 2021/07/9

وبعد أخذ ورد ونقاش حتّى لا تفشل الزيجة. جاء اليوم الموعود، لم يكن خارجا عن هذا النطاق، انتهت كل الامتحانات وبدأت المهرجانات، حمل أمّه ووالده وأختيه في حين حمل خاله عمّه وعمّته ومن معهما وسارا عصرا ونهار الصّيف طويل حار في ربوع تحتلّها رياح "الشّهيلي" صيفا ورياح الجبالي" في بقيّة الفصول. كان يوما رائعا لا ينسى ولن ينسى وحبيبته تبتسم كلّ خليّة فيها وتضحك للحياة وللأقدار الّتي نسّقت ذلك بهدوء وأوصلتهما إلى ذلك اليوم الّذي كان حلما بل عدما قبل ذلك.

زغردت النّسوة و" عجعج" كانون البخور وبعد التّرحيب والتّعارف قيلت تلك الكلمات " السّبر" المتوارثة جيلا بعد جيل وتمّ القبول وخلّد ذلك صورا صامتة وناطقة وأصبح الحلم حقيقة وسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيء وإذا أراد شيئا إنّما يقول له كن فيكون. وكان الأمر كما أرادته أقداره.

و مجد يبحث عن محطّة إخباريّة كعادته في راديو سيّارته تهادى إليه صوت أمّ كلثوم متغنّيا بفلسفة الكون وعمقها من رباعيّات الخيّام الّتي ترجمها الشّاعر أحمد رامي من الشّعر الفارسي، وهو يحبّها شعرا وشدوا وعمقا فلسفيّا:

سمعت صوتاً هاتفاً في السّحر نادى من الغيب غفاة البشر

هبّوا املأوا كأس المنى قبل أن تملأ كأس العمر كفّ القدر

لا تشغل البال بماضي الزّمان ولا بآت العيش قبل الأوان

واغنم من الحاضر لذّاته فليس في طبع اللّيالي الأمان

غدٌ بظهر الغيب واليوم لي وكم يخيب الظنّ في المقبل

ولست بالغافل حتّى أرى جمال دنياي ولا أجتلى

القلب قد أضناه عشق الجمال والصّدر قد ضاق بما لا يُقال

يا ربّ هل يرضيك هذا الظّمأ والماء ينساب أمامي زلال

أولى بهذا القلب أن يخفق وفي ضرام الحبّ أن يُحرق

ما أضيع اليوم الذي مرّ بي من غير أن أهوى وأن أعشق

أفق خفيف الظلّ هذا السّحر نادى دع النّوم وناغ الوتر

فما أطال النوم عمراً ولا قصّر في الأعمار طول السّهر

فكم توالى اللّيل بعد النّهار وطال بالأنجم هذا المدار

فامش الهوينا ان هذا الثّرى من أعين ساحرات الأحورا

لا توحش النّفس بخوف الظّنون واغنم من الحاضر أمن اليقين

فقد تساوى في الثّرى راحلٌ غداً وماضٍ من الوف السّنين

أطفئ لظى القلب بشهد الرضاب فإنّما الأيام مثل السّحاب

وعيشنا طيف خيال فنل حظّك منه قبل فوت الشّباب

لبست ثوب العيش لم استشر وحرت فيه بين شتّى الفكر

وسوف أنضو الثّوب عنّي ولم أدرك لماذا جئت وأين المفر

يا من يحار الفهم في قدرتك وتطلب النّفس حمى طاعتك

أسكرني الإثم ولكنني صحوت بالآمال في رحمتك

ان لم أكن أخلصت في طاعتك فإنني أطمع في رحمتك

وإنما يشفع لي أنني قد عشت لا أشرك في وحدتك

تُخفى عن النّاس سني طلعتك وكل ما في الكون من صنعتك

يا عالم الأسرار علم اليقين يا كاشف الضرّ عن البائسين

يا قابل الأعذار عدنا الى ظلك فاقبل توبة التائبين

بدأ صاحبنا يفكّر جدّيّا في حياته ووجوده ويومه وغده وفي مؤسّسة الزّواج وانجلت أو تكاد غشاوة الحبّ القويّ الجارف المسيطر وبدأ يفكّر بعقل ورويّة ويضع أهدافا واضحة أمام عينيه حتّى لا يصيبه الإحباط ولا يعرف الفشل طريقه إلى بيته فالدّكتورة مثقّفة واعية عارفة بالحياة ومسالكها وهو يعتبر نفسه كذلك. سوف يتغاضى عن تلك الجزئيات العاطفيّة التي أرّقته زمنا وسيفكّر من هنا فصاعدا بمنطق الزّوج المحبّ لزوجته وعائلته وعليه أن يتنازل عن الأشياء البسيطة وتتنازل الدّكتورة كذلك عن أشياء وجودها يضرّ بالعلاقة الزّوجيّة ولا ينفعها فالتصرّف خارج المنزل ليس كداخله لتستمرّ حياتهما الزوجيّة في كنف الانسجام والاحترام والتّواصل والتفهّم والتفاهم ولا تضطرب أبدا.

بدأ يلتقيان بنزل الدّبلوماسي قرب حديقة البلفيدير كلّما سمحت لهما ظروفهما، بل يخلقانها، يتحادثان طويلا لمزيد المعرفة وليغوص كلّ منهما في أعماق الآخر،

وحديث العين وزلّات اللّسان لا أصدق منها ولا أوثق. ورغم ذلك مازالت ترهقهما الظّروف العامّة الحالية صحيّة كانت أو سياسيّة.

وضع كارثي في زمن موبوء، متعفّن على جميع الأصعدة، ويبقى الأمل هذا البصيص من النّور الذي يضيء جوانب النّفس البشرية المتفائلة...

رغم هذه الأوضاع حدّد معها موعدا في سيّارتها أمام مدخل مدينة الألعاب "دحدح" تؤنسهما الأفواج الدّاخلة والخارجة. تقابلا وتحادثا طويلا عن إجراءات ضروريّة تهم حياتهما ونجاحها واستقرارها. كانت أنيقة كعادتها ببنطلونها الأزرق القطني الناعم وقميصها المزهر الخريفي اللّون وتلك المسحة الجمالية الأخاذة على محيّاها وابتسامتها العذبة الخجولة. فرصة لم تعهدها استغلّتها، كما يجب، لتخرج ما يعتمل داخلها وتظهر كما هي واضحة شفّافة بطبيعتها الحقيقيّة بعيدا عن المجاملة والتخفّي وراء الكلام العذب المنمّق ليعرف حبيبها الوجه الحقيقي الذي سيعيش معه ويرتبط معه بشراكة زوجيّة ناجحة ومتألّقة... وبما أنّها قويّة الشكيمة، كانت نقطتها الوحيدة التي تحدّثت عنها طويلا، ذلك العتاب بين الأحباب الذي يزعجها كثيرا ويسبب لها توتّرا لا تستطيع كبح جماحه، يلجمها ويخنقها ويقلقها و يضجرها إلى أبعد الحدود وبدت كأنّها تخفي أشياء مهمّة، في حين يراه هو كجزء لا يتجزّأ من المحبّة الحقيقيّة الصّرفة ولا يوجد على أرض الواقع "حبّ بلا عتاب" على رأي أم كلثوم في أغنيتها " الحب كده" "الحب كده وصال ودلال ورضا وخصام... أهو من ده وده الحب كده مش عايزه كلام. " نهلا من عسل اللقاء وكان آخر لقاء !

غير ذلك، كلّ شيء يسير على أحسن ما يرام كما تمنّته وتتمنّاه أيّة امرأة خفق قلبها ونبض الحبّ فيه. حمل لها ساعة ذات شهرة وقيمة اعتباريّة تخليدا لتلك اللحظات. ألبسها إيّاها بكلّ متعة وتمنّى لها معه سعادة كما تتمنّاها وتشتهيها طوال حياتها ثمّ بقلب دام ودّعها وغادر المكان لا يرى إلا صورتها ولا يسمع إلاّ صوتها ولا يتمنّى إلا رؤيتها على الدّوام. قضى يومه على شاطئ المرسى ولم يعد إلا مع نسمات المساء المنعشة ولم تغادر صديقته مخيّلته ولا نزار وأشعاره... كان يوما من أسعد أيّامه لا ولن ينساه !

يا سيّدتي: كنتِ أهمّ امرأةٍ في تاريخي قبل رحيل العامْ.

وأنتِ الآنَ.. أهمُّ امرأةٍ بعد ولادة هذا العامْ..

أنتِ امرأةٌ لا أحسبها بالسّاعاتِ وبالأيّامْ.

أنتِ امرأةٌ.. صُنعَت من فاكهة الشِّعرِ.. ومن ذهب الأحلامْ..

أنتِ امرأةٌ.. كانت تسكن جسدي قبل ملايين الأعوامْ..

كانت تراوده من حين لآخر بعض صفات ما قرأه عنها في برجها وما يجده منها من أنّها رومانسيّة حالمة ولكنّها عنيدة متعنّتة لا تتنازل بسهولة عن قناعاتها، تحبّ الورد والاهتمام والشّعر والغزل والموسيقى ولكنّها تبدو عميقة، جافة، باردة في أغلب الأحيان ولها من الأنفة وحبّ الذّات ما تعتدّ به وخوفه أن يجعل هذا علاقتها به

باردة كليلة شتاء قاسيّة. هكذا هو الحبّ يغمض عينيك وأذنيك ويقودك إلى حيث تدري أو لا تدري مسلوب الإرادة لتستفيق بعد ذلك على حقيقة حظّك ونجاح حدسك فتسعد وتواصل حياتك بمراحلها صعودا ونزولا أو تجد نفسك على هامش ما كنت تنتظره وتتمنّاه فتواصل مغلوبا على أمرك وتشرب رحيق حياتك بلا نكهة ولا طعم أو تتوقّف في المنتصف وتغيّر طريقك وحيدا أو مع رفيق آخر، فليست الاختيارات بالسّهولة الّتي نرجو ونريد.

الفصل السادس والعشرون

فعلا استيقظ ذات صباح على كابوس لم يقرأ له حسابا ولكنّه كان يراوده من حين لآخر عندما يحلّل بعقله تصرّفات الدّكتورة نون. اتّصلت به ذاك الصّباح وأعلمته بفسخ الزّيجة من جانبها لأنّها التقت بمن كانت تحبّه ولا تودّ خيانته أو تتمنّى له ذلك قائلة ببساطة: " مكتوب وانتهى" معلمة إيّاه بخروجها قريبا إلى باريس وعليه نسيانها... أيّ أنّها لم تبادله يوما حبّا صادقا. هل ترى خدعته؟ كانت تكلّمه بلهجة لم يعهدها وكأنّها ليست هي ! سبحان الله كم تتقلّب الأنفس...! كان حماما باردا بكل المقاييس وهو الذي تعوّد عل "دوش سخون" كما يقول صديقه فهمي، طوال أيامه معها يزيل أتعابه ويخفف ألام عضلاته ومفاصله وتوتّره المستمر، يحارب اكتئابه ويدعّم صحّة قلبه وجودة نومه وجهاز مناعته...

في لحظة انهار كلّ ما بناه واشتغلت بمخيلته كلّ تلك الأشرطة المسجّلة في ذاكرته وزالت عنه غشاوة الحبّ ورأى الحقيقة مكشّرة عن أنيابها واقعا ملموسا لا خيالا وافتراضا واشتعلت نيران قلبه وتفحّمت مشاعره ومداركه على السّواء بفعل المباغتة. ضربة قويّة مفاجئة على أمّ رأسه في غفلة منه !

هذه الاستنتاجات الّتي كثيرا ما حدّثه عنها رفيق السّكنى فهمي، ذاك المتمرّس بالحياة الزّوجيّة وإن لم يدخلها إلاّ أخيرا، بل لم يقف على بابها أو عتباتها أبدا ولكنّه من كثرة الاستماع إلى برامج إذاعيّة كثيرة معدّة للغرض ومحادثاته مع صديقات الشّبكة العنكبوتيّة عبر دردشات الفضفضة وجلسات المقاهي مع الأصدقاء وهو

يروّج لمنتوج شركة التّسويق الشّبكي الّتي يتعامل معها. فتراه دائما يردّد أنّ أغلب العلاقات، كما يقول جبران خليل جبران عن الحبّ في الأرض" أكثرها كالعشب في الحقل لا زهر ولا ثمر".

كم تمنّى صاحبنا ألاّ يخيب حدسه وأن يوفّق مع الّتي سهر من أجلها اللّيالي وكتب لها النّثر والشّعر ودخل معها أعماق البحار. فكم هو صعب هذا الاختيار وكم لا بدّ للحياة من رفيق قويّ متماسك جبّار ليجتازا الصّعوبات معا ويؤسّسا سعادة فترة العمر معا فهو لم يلعب قطّ بعواطف الفتيات ولا جذبته النّساء ولا كان له هذا الميل من قبل وهو يعيش معهنّ ولا حتّى الخبرة. فقط هذه البعيدة حرّكت ما كمن داخله من خلال المحادثات الافتراضيّة الّتي كانت تردم بها فراغا تركه حبّا قويّا جارفا لمن لا علم لها بمكانه. قضت عليه بكلمة بل بجملة واحدة في آخر المطاف.. وتيقّن فعلا من هشاشة علاقتها معه وقساوتها المتأكّدة وهو عزاؤه الوحيد لردمها في الأعماق ونسيانها بلا حنين...

تكتب روعه قاسم[30] في مقال وقع بين يديه حول ارتفاع نسب الطّلاق في تونس: بين قيود التّقاليد المجتمعيّة وهواجس التفكّك الأسري ناهيك عن العلاقات التي تموت قبل أن تتمّ أو تصل البلديّة أو العدول كعلاقته بالدّكتورة نون:

" تشير آخر الأرقام الصّادرة عن الهياكل الرّسميّة التّونسيّة سواء العدليّة أو غيرها إلى ارتفاع نسب الطّلاق في تونس خلال الأعوام الأخيرة. وفي آخر دراسة صادرة عن وزارة العدل هذا العام، فإنّ المحاكم التونسيّة تُسجّل يوميّا أكثر من 46 حالة

30 القدس العربي روعه قاسم بتاريخ 2020/10/10

طلاق، و13 ألف قضيّة طلاق سنويّا في ارتفاع ملحوظ بالمقارنة مع إحصاءات سابقة.

ولئن قلّل البعض من خطورة هذه الأرقام باعتبار أنّها عادية بالمقارنة مع حجم الزيجات التي تتمّ يوميّا، إلاّ أنّها تطرح تساؤلات عديدة حول أسباب ازدياد حالات الطّلاق وعن مستقبل الأسرة في مجتمع بات يواجه تحدّيات أعمق مجتمعية واقتصاديّة وسياسيّة ونفسيّة وغيرها. فالأكيد أنّ الوضع الهشّ الذي تعاني منه البلاد في خضمّ تجربتها الدّيمقراطيّة الوليدة، وما رافقه من غلاء معيشي وضغوطات يوميّة يعاني منها الزّوجان، إضافة إلى أسباب أخرى تراكميّة ونفسيّة، تتسبّب إلى حدّ كبير في تعكير مناخ الحياة الأسريّة والظّروف العائليّة فيصبح معها عقد الزّواج مهددا بحد ذاته.

يشار إلى أن هناك ثلاثة أنواع من الطلاق في تونس، وبحسب ما جاء في الفصل 30 من مجلّة الأحوال الشّخصيّة، فإنّه لا يقع الطّلاق إلاّ لدى المحكمة بموجب حكم قضائي، وأنواع الطّلاق حدّدها الفصل 31 من مجلّة الأحوال الشّخصيّة وهي ثلاثة: الطّلاق بالتّراضي بين الزّوجين ويتمّ بالاتّفاق بينهما. ولا يثبت هذا الاتّفاق إلاّ متى تم تأكيده أمام القاضي. ويمكن أن يتعلّق الاتّفاق بمبدأ الفراق وبآثار الطّلاق. والطّلاق للضّرر الحاصل لأحد الزّوجين من الآخر. ومفهوم الضّرر هنا كأوسع ما يكون وتقدّره المحكمة حسب اجتهادها وفي ضوء ملابسات كلّ قضيّة. والطّلاق إنشاء من الزّوج أو برغبة خاصّة من الزّوجة.

وبالتّالي فعلى طالب الطّلاق أن يُبيّن في عريضة الدّعوى أيّ نوع من الطّلاق يطلب. كما انّ القاضي لا يصدر الحكم بالطّلاق مهما كان السّبب القانوني إلاّ بعد القيام

بمحاولات صُلحيّة وُجوبيّة بين الزّوجين بحسب ما نصّ عليه الفصل 32 من مجلّة الأحوال الشّخصيّة.

فهل هنالك ثورة على المألوف والتّقاليد؟

"في الصّيف في الصّالة وفي الشّتاء في قصر العدالة" هذا المثل الشّعبي التّونسي بات يتكرّر بتندّر لدى أطياف واسعة وهو دلالة على ارتفاع وتيرة الطّلاق وسرعتها في عديد حالات الزواج الحاصلة. ففصل الصّيف هو في العادة الموسم المخصّص للاحتفال بالأعراس، ولكن لا تمرّ شهور قبل أن تكشف بعض عقود الزّواج عن هشاشتها أو أنّها مبنيّة على أسباب مصلحيّة تؤدّي إلى فشلها أمام أولى الهزّات. وبعد شهور قليلة يتوجّه الشّريكان إلى " قصر العدالة" أيّ إلى المحكمة للبدء بإجراءات الطلاق.

رئيسة اتحاد المرأة التونسيّة راضية الجربي، لديها قراءة لهذه الظاهرة، فهي تنظر إلى ارتفاع حالات الطّلاق بنظرة مختلفة ولا تعتبر أنّها تسبّب التفكّك الأسري فتقول: "الأرقام الّتي نطالعها يوميّا في الصّحف وتتحدّث عن ارتفاع حالات الطّلاق إلى ما فوق 30 أو 40 حالة يوميّا ليست كبيرة بالمقارنة مع عدد الزّيجات وعقود القران، وبالتّالي لا يمكن الحديث عن أن النّسبة مرتفعة. فالطّلاق هو إبطال لعقد الزّواج أو فسخه، والطّلاق هو السّعي إلى قطع العلاقة الّتي ينظّمها هذا العقد".

النّقطة الثّانيّة الإيجابيّة – حسب رئيسة اتّحاد المرأة – وهي انّه إذا كانت نسبة الطّلاق مرتفعة فهي دلالة على أنّ المرأة التّونسيّة واعية ولا تقبل الإهانة أو الاستمرار في علاقات زوجيّة مغشوشة أو فيها عنف أو استغلال أو مهانة لشخصها وأنّها تحبّذ قطع هذه العلاقة على العيش غير الكريم. فالوعي لدى المرأة التونسيّة

بلغ حدّه وكذلك الوعي لدى الأسرة التونسيّة، فهناك مناصرة من الأسرة الموسّعة – يعني الآباء والأمّهات – للابنة التي تتّخذ قرار قطع هذه العلاقات الّتي عادة ما تكون فاسدة ومبنيّة على مصلحة، ويكشف الزّواج فيما بعد عن الوجه الحقيقيّ للزّيجة سواء من قبل المرأة أو الرّجل، وتُكشف الأطماع الّتي قام على أساسها عقد الزّواج. فالعقود الفاسدة على مستوى تأسيسها ومستوى كتابتها تنتهي نهاية طبيعيّة وعلى مستوى القانون المدني يقع فسخها".

وتضيف: "من منظوري أتصوّر أنّ هناك ارتفاعا في نسبة الوعي لدى النّساء وشعورهنّ بالمواطنة وأنّ المرأة هي كائن بشري من حقّها العيش في ظلّ أسرة تحميها وتحترمها وانّ تلك مسألة مبدئيّة".

و تتابع: "هذا يجعل المرأة تفضّل قطع العلاقة الزّوجيّة على العيش في ظلّ ظروف مهينة كما يحدث في مختلف الدّول الشّقيقة. فهناك ميثاق وتقاليد وعادات مبنيّة على النّفاق تحافظ على هذه العلاقات الهشّة من أجل الآخرين والتّقاليد والصّورة، خاصّة أنّ صورة المرأة المطلّقة ليست جيّدة في هذه المجتمعات. أمّا في تونس فبدأت مثل هذه السّلوكيات تندثر وهي مسألة جيّدة للغاية".

ومن ناحيّة أخرى، توضّح راضية الجربي، بأنّ هناك في تونس لبس وعدم وضوح في الرّؤيا لمسألة الزّواج لدى الشّباب، فهل هو عقد مبني على تعاقد طرفين من أجل بناء أسرة مع تقاسم الأدوار من دون روح أو مشاعر أو تفكير بإنجاب الأطفال، أو أنّها مؤسّسة متكاملة تبنى على أساس التّعايش والتّوازن العاطفي ما بين الطّرفين والأبناء مع كلّ ما تقتضيه المؤسّسات الأسريّة بمعنى العلاقات المبنيّة على العاطفة

والقيم وجملة من القواسم المشتركة الّتي تجعل من الزّوجين هما الخليّة الأولى لبناء أجيال قادمة؟".

لكن هل الزّواج عقد أم مؤسّسة؟

الصّراع والخلاف ما بين فقهاء ومفكّري القانون هو هل الزّواج "مؤسّسة" أم "عقد" يبدو انّه يُطرح الآن بشدّة بسبب العلاقات الّتي تفشل بسرعة لأنّها مبنيّة خطأ وعلى المصلحة وعلى البحث عن المنافع. فتوضّح راضيه الجربي: "بالنّسبة للرّجل يبحث عن أجر ثان يجابه به التّحدّيات الاقتصاديّة والاجتماعيّة المرتفعة وظروف اليوم جعلته غير قادر على مجابهتها براتب وحيد وبالتّالي أصبح يبحث عن زوجة أو شريكة لديها راتب أكثر ممّا يبحث عن زوجة. وبالنّسبة للنّساء أيضا يبحثن عن ظروف ماليّة ورفاهيّة أكثر ممّا يبحثن عن زوج يتقاسمن معه ظروف الحياة المستقبلية وكلا الطرفين مخطئين. ويبدو ان الأخلاق والتّفاهم أصبحا أمورا ثانويّة، وهذا جزء من أسباب ارتفاع ظاهرة الطّلاق في تونس".

هل يؤثّر الطّلاق على التفكّك الأسري وهل الأسرة مهدّدة في تونس؟ تجيب محدّثتنا: "لا أعتقد باعتبار أنّ نسبة الطّلاق لا تمثّل إلاّ 10 في المائة من الزّيجات الّتي تحدث كل سنة، يعني لا يمكن تحديد مدى تأثير النّسبة على مؤسّسة الزّواج وترابط الأسرة والعلاقات الأسريّة في غياب أرقام واضحة".

وقالت إن ارتفاع حالات الطلاق تتعلّق أساسا بالزّواج السّريع الّذي يترجم بناء على عقد مصلحة. وبالعكس فهنا يكون الطّلاق جيّدا لأنّ عقد المصلحة لو استمرّ فإنّه سينتج عنه إنجاب أبناء يولدون في ظلّ حياة أسريّة غير عاديّة تؤثّر على توازنهم

النّفسي وتقدّمهم في الدراسة، وأكيد يؤثر ذلك على تماسك المجتمع واتّزان العلاقات المجتمعيّة.

ويؤكّد علماء النّفس أن الأطفال الّذين يعيشون في مناخ يطغى عليه العنف سيترجمون هذا العنف لاحقا عندما يكبرون. وهي كلّها تكون سببا في ظهور أمراض اجتماعيّة ونفسيّة تؤثّر على المجموعة العموميّة وعلى التّرابط الاجتماعي وانتشار الجريمة أحيانا.

من جهته يعتبر المختصّ في العلاقات الأسريّة د. نبيل ريحاني في حديثه لـ "القدس العربي" أنّ ظروف العيش الصّعبة من تدهور المقدرة الشّرائيّة إلى جانب الإحباط الّذي يعيشه الزّوجان والقلق والضّغط النّفسي الّذي يصل إلى درجة الاكتئاب نتيجة الفجوة بين تطلّعات التّونسي إلى حياة أفضل وبين الإمكانيات المتاحة لتحقيق ذلك، كلّ هذه الانفعالات الّتي يعيشها الفرد يوميّا وعدم قدرة كل من الزّوجين على التحكّم بها، يتمّ التّعبير عنها إمّا بالعنف أو باللاّمبالاة وعدم تحمّل المسؤوليّة، وينتج عن ذلك التّفكير في فكّ هذا العقد وإنهاء هذا الرّابط الاجتماعي والعاطفي. خاصّة إذا كان تأسيس هذه الحياة الزوجيّة على أسس واهية وضعيفة لا يمكن أن تقاوم التحدّيات المستقبليّة لهذه المؤسّسة، وأهمّها عدم التّوافق الفكري والاجتماعي والثّقافي والمادّي بين الزّوجين الّذي لا يمكن أن يُلاحظ ما قبل الزّواج بالنّظر إلى أن خطاب العقل كان مغيّبا في هذه الفترة، ويحضر بدلا عنه خطاب الغريزة والعاطفة. ولأنّ الطّبيعة البشريّة تميل وتسكتين إلى ذلك خاصّة وأنّ طفولتنا في الأغلب تعاني من فقر في لغة الحبّ والعاطفة".

إلى جانب ذلك "هناك العديد من الرّوابط الزوجيّة تقام على الموروث الاجتماعي مثل الخوف من تأخّر سنّ الزّواج أو إرضاء الوالدين أو على المصلحة. هذا الضّعف في عمليّة البناء توازيه العولمة الّتي نعيشها اليوم وتداعياتها الكبيرة على الأسرة الّتي أصبحت مؤسّسة مخفيّة الاسم مواردها هي الشكّ وعدم الثّقة وعدم التفهّم وفقدان القدرة على التّواصل وصراع الأدوار والإدمان على المخدّرات والكحول وغيرها. كلّ هذا طبيعي سيفقد هذا التّزاوج روحه ويؤدّي إلى الطّلاق".

ويضيف محدّثنا: "التنشئة الاجتماعيّة جعلت هذا المجتمع ذكوريّا يعطي السّلطة للذكر منذ الصّغر وتسعى اليوم المرأة إلى ان تستعيد السّلطة على ضوء كل الآليات التي ضمنتها مكونات المجتمع. ممّا يخلق هذه الحرب الباردة لتمتدّ وتصل تداعياتها حتّى إلى الحياة الزّوجيّة، فتفقد روح وسرّ هذه الحياة فلم يعد يصبح هناك متنفّسا لهذه الانفعالات في غياب ضعف المهارات المكتسبة أمام هذه الحرب الباردة والعنف الأسري الّذي سينتهي بالضّرورة إلى حلّ هذا العقد".

ويمكن اعتبار أن ظاهرة الطّلاق هي مؤشّر يُقاس به واقع الأسرة والمجتمع التونسي في توازنه النّفسي وقوّة تماسكه والّتي تنعكس بالضّرورة على السّلم والأمن الاجتماعي.

ويؤكّد عديد الخبراء والمختصّون النّفسيون بأنّ ارتفاع نسب الطّلاق والعنف المسّلط على المرأة والقضايا الإجراميّة داخل الأسرة تؤدّي كلّها بالضّرورة إلى التفكّك الأسري بالرّغم من كلّ المساعي الوطنيّة من هياكل الدّولة للتّصدّي لظاهرة العنف المسلّط على المرأة من خلال التّشريعات القانونيّة، وآخرها قانون 58 لسنة 2017

وكلّ الآليات التّابعة لذلك، ولكن للأسف فإنّ نسب العنف والطّلاق قد ارتفعت بشكل ملحوظ.

ولكن بالرّغم من تعدّد الأسباب الّتي كانت وراء تفشّي هذه الظّاهرة بالتّوازي مع ارتفاع منسوب العنف وانحلال منظومة القيم والضّوابط الأخلاقيّة، فلابدّ من التمعّن بعمق في المشاكل الحقيقيّة الّتي يكشف عنها واقعنا اليومي وهي في الحقيقة نتيجة لأزمة اجتماعيّة شاملة."

أبوبكر، الصّديق اللّدود لصديقه فهمي وصلت أنباؤه المزعجة. فقد اشتكت به زوجته إلى السّلط الأمنيّة، بعدما وضعت مولودا عجزت عن تسجيله ووالده يعيش معها تحت سقف واحد، فأوقف وأودع السّجن لمحاكمته لزواجه على غير الصّيغ القانونيّة المعتمدة في القانون التّونسي وفي مجلة الأحوال الشخصيّة بالذّات. ترى هل سيعترف بمجلّة الأحوال الشّخصيّة ويكتب عقد زواجه المدني؟ سيقبع هناك ردها من الزّمن ولن تتغيّر قناعاته. سيجد صديقه فهمي السّعيد الهانئ ليحمل له القفّة والجديد... فالاختلاف لا يفسد للودّ قضيّة يردّد فهمي دائما. لكن ما مصير قرينته ؟

الجوّ السّياسي والصحّي والاجتماعي والاقتصادي مازال مشحونا. تتخلّله اضرابات واعتصامات في قطاعات عدّة وتصريحات مثيرة لرئيس الدّولة حول من يحاول تنحيته أو اغتياله. اتّحاد الشّغل يتدخّل بقوّة لوضع حدّ لما يعتبره مهاترات السّياسيين ويجب إرجاع القطار إلى سكّته. الوباء يضرب بشدّة في سيدي بوزيد

والقيروان و باجه وغيرها من الولايات... وفترة الامتحانات الوطنيّة على أشدّها في ظلّ كلّ هذه الأوضاع الضّاربة والمتضاربة. حديث عن انتشار داء لكلب أيضا حسب بعض الإذاعات والجوّ يزداد تعكّرا بين الرّئاسات الثّلاث والرؤى تتناقض وتتباعد شيئا فشيئا... والفاتورة الثقيلة يدفع تبعاتها الشّعب المفقّر المسكين...

" فقد أعلنت رئاسة الحكومة[31] انّ رئيس الحكومة قرّر إثر تطوّر الوضع الوبائي في ولاية القيروان اتّخاذ جملة من الإجراءات تدخل حيز التّنفيذ حالّا.

وأوضحت رئاسة الحكومة في بيان صادر عنها نشرته بصفحتها على موقع "فايسبوك" انّ رئيس الحكومة قرّر إعلان حجْر صحّي شامل وغلق الولايات التي تشهد نسب عدوى تفوق أربعمائة ألف ساكن على مائة ألف ساكن وإحداث مراكز عزل جهويّة للحالات الإيجابيّة ومستشفيات ميدانيّة للتّكفّل بالحالات المكتشفة بصفة مبكّرة.

وأضافت انّه قرّر أيضا تعزيز هياكل الخطّ الأوّل للتّكفّل المبكّر بالحالات والحرص على إتاحة التزوّد بالأوكسجين وتنظيم حملات ميدانيّة مكثّفة للتقصّي للمشتبه بهم وعزل الحالات الإيجابيّة والمخالطين مع تعزيز قدرات المخابر وتكثيف التّقطيع الجيني لتحديد السّلالات المنتشرة والتفطّن للسّلالات المتحوّرة إن وجدت وتكثيف حملات التّلقيح الميدانيّة الموسّعة إضافة الى تسخير هياكل القطاع الخاصّ لتعزيز قدرات التكفّل بالحالات.

وأشارت الى انّه تقرّر كذلك تسخير الإطارات الطبّية الملحقة بوزارات أخرى ووضعها على ذمّة وزارة الصحّة، لمعاضدة الجهود الجهويّة للتقصّي والتكفّل بالمرضى

31 الشارع المغاربي 2021/06/19

وحملات التّلقيح (وزارة الشّباب والرّياضة، وزارة العدل، وزارة الدّاخلية، وزارة الشّؤون الاجتماعيّة، إطارات الدّيوان الوطني للأسرة والعمران البشري) وتكليف الفريق العسكري الموجود حاليّا على الميدان بولاية القيروان بتنسيق عمليّة نقل المرضى بين مختلف الهياكل الصّحّية على المستوى الجهوي وبين الولايات، بالنّسبة للحالات الخطيرة.

في حين كتب عبد الحميد الرّياحي بجريدة الشروق[32]: " بكلّ تأكيد فإنّ إطلاق صفة «المدينة الشّهيدة» على القيروان يصيب كبد الحقيقة.. ويأتي من باب توصيف أمر واقع وحال تتخبّط فيه الولاية منذ فترة. .

القيروان بما هي عاصمة الإسلام في الشّمال الإفريقي ونقطة انطلاق الرّسالة المحمّدية إلى الأندلس جنوبي إسبانيا ومنها إلى تخوم باريس. والقيروان التي أعطت للحركة الوطنيّة وللنّضال ضدّ الاحتلال الفرنسي مجموعات من خيرة أبنائها. والقيروان الّتي زوّدت البلاد بآلاف الكفاءات والخبرات في كلّ الميادين والمجالات.. هذه القيروان تقبع في ذيل التّرتيب حين يرد الحديث عن التّنمية وعن مقاومة الفقر والتّهميش وحين يرد الحديث عن البنى التحتيّة في كلّ المجالات. هذه المدينة الصّابرة ووراءها كل المعتمديات التّابعة لها تغطّ منذ عشرات السّنين في بحار من التّهميش والنّسيان. واقع زادته السّنوات العشر الأخيرة العجاف على كلّ البلاد تهميشا ونسيانا.. لتقع الولاية بأكملها بين براثن الفقر والخصاصة وضرب اليأس والإحباط في كلّ ربوعها.. حتّى ان احدى معتمدياتها باتت عنوانا لهذه المشاعر السّلبية ما دفع العديد من زهرات هذه المعتمدية إلى الانتحار.

32 جريدة الشروق 2020/06/20

و لأن المصائب لا تأتي فرادى حفظ الله كافة أبناء وبنات القيروان من المصائب.. فقد جاءت جائحة كورونا لتعرّي من جهة بنية تحتيّة صحّية متردّية إلى أبعد حدود التردّي ولتكشف أنّ الصّحّة الّتي شكّلت إلى جانب التّعليم أحد مرتكزات دولة الاستقلال الّتي ناضل من أجلها الزّعيم بورقيبة ورفاقه لم تعد حقّا مشاعا لكلّ أهالي القيروان.. بل إنّها لم تعد حقّا أساسيّا من حقوق الإنسان.. كما جاءت الجائحة لتكشف من جهة أخرى حجم ارتباك وجهل وتقاعس الطّبقة الحاكمة منذ عشر سنوات.. وخاصّة قصور كبار مسؤوليها عن تقدير حجم الكارثة الّتي ستحل بأهالي القيروان وبالتّالي التّحرك في الإبّان وتعبئة الموارد الماديّة والماليّة والبشريّة اللاّزمة لمواجهة آفة كورونا.. بل انّ هذه الطّبقة الحاكمة بعناوينها الثلاثة الّتي تختزلها «الرئاسات الثلاث» تمادت في غيبوبتها ومضت في غيابها عن معاناة بل مأساة أهالي القيروان وهم يواجهون الكارثة بصدور عاريّة وبمستشفيات وبمؤسّسات استشفائيّة «خربانة» وبإمكانيات تعيسة تبقى قاصرة عن مواجهة التّحدّي الكبير.. الرّؤساء الثّلاثة تلذّذوا طوال أشهر بل سنوات كارثة كورونا الّتي تشارف على دخول عامها الثّالث بصراعاتهم من أجل السّلطة ومواقع التّأثير والنّفوذ. وأغرقوا في مناكفاتهم من أجل تسجيل النّقاط السّياسيّة على حساب الخصوم. ولم يلتفتوا إلى القيروان وأهل الذّكر يحذّرون ويقرعون الطّبول وينبّهون من قرب حدوث الكارثة.

وبالمحصلة ها هي القيروان شأنها شأن باقي مدن الشّمال الغربي المهمّشة والّتي أغرقها السّياسيون في «الحفرة» وفي الفقر ها هي تتعرّض لموجة كورونا عاتية

أحدثت كارثة حتّى الآن وهي تنذر بحصد المزيد من الأهالي بالنّظر إلى التأخّر الكبير الذي طبع تحرّك الجهات المسؤولة على المستوى المركزي...

انّ ما يصيب القيروان وكلّ الولايات الّتي تئنّ تحت وطأة جائحة كورونا سيبقى جرما على عاتق هذه الطّبقة السّياسيّة الفاشلة التي باتت أبرز عناوين الجائحة السّياسيّة التي ضربت بلادنا منذ عشر سنوات، وأهالي القيروان وأهالي كلّ الولايات «الشّهيدة» في الشّمال الغربي وفي كل ربوع البلاد سوف لن يغفروا لهم هذا الجرم الموصوف الذي تركهم وحدهم مكشوفين أمام فيروس لا يرحم."

و " كشف عضو اللّجنة العلميّة لمجابهة فيروس كورونا ورئيس قسم الكشوفات الوظيفيّة وانعاش القلب ورئيس اللّجنة الطبّية بمستشفى الرّابطة سامي المورالي[33]، يوم 23 جوان 2021، أنّ هناك شكوكا تحوم حول وجود السّلالة البرازيليّة لفيروس كورونا في تونس، مشدّدا على أنّه لا يمكن التأكّد بصفة قطعيّة من صحّة هذه المعلومة الا بعد استكمال التّقطيع الجيني .

وأبرز المورالي في تصريح له، أنّ فريقا من الخبراء بمعهد باستور ومستشفى شارل نيكول ينكبّ حاليّا على استكمال التّقطيع الجيني للكشف عن أحد سلالات فيروس كورونا التي تمّ اكتشافها مؤخّرا في تونس والّتي تتطابق مبدئيّا مع خاصّيات السّلالة البرازيلية، في انتظار التأكّد من ذلك بصفة قطعيّة بعد استكمال التّقطيع الجيني الخاص بها.

33 جريدة الشروق 2021/06/23

ولفت الى أنّ السّلالة البرازيليّة لفيروس كورونا تتميّز بالخصوص بسرعة الانتشار وبتأثير أوسع على الشّرائح العمريّة الصّغيرة ..

وأكّد يوم الاثنين 28 جوان وزير الصّحّة تسجيل 18 حالة بالسّلالة الهندية في تونس.

وتتوزّع الإصابات كالاتي:

7 في القيروان

8 في تونس الكبرى

2 في سليانة

وإصابة بالمنستير

كما تمّ تسجيل إصابة بالسّلالة النيجريّة بنابل

وتكشف دراسة حديثة[34] "ما كان مسكوتا عنه في تونس أو ما يصفه الباحث القاعدة الاجتماعيّة التي كشف عنها فيروس كورونا الحجاب وزعزع توازنها الهشّ اقتصاديّا واجتماعيا ونفسيّا". وهي تمثل 700 ألف عاطل عن العمل و285 ألف عائلة معوزة و70 ألف عامل حضيرة و622 الف عائلة ذات دخل محدود و380 الف متقاعد تقل جرايته عن الأجر الأدنى المضمون بالإضافة الى 70 بالمئة من اليد العاملة الفلاحيّة وهي نسبة العاملات في هذا القطاع."

34 ماهر حنين في دراسة حديثة عن "مجتمع الهامش"

ومع بداية شهر جويلية تمّ تسجيل رقم قياسي مفزع 6776 إصابة و106 وفاة في 24 ساعة.. لكن الجائحة استمرّت غير مبالية بأيّ شيء وصلت فيها ضحاياها إلى حدود 03 جويلية 2021، 4686 إصابة جديدة بفيروس كورونا و116 حالة وفاة. وارتفع إجمالي الوفيّات في البلاد منذ بداية الجائحة إلى 15.377 حالة مقابل 443.631 إصابة. من مواطنينا لسبب أو لآخر...

ترى ما الذي يخبّؤه القدر ؟!

نحن في بلد كسفينة بلا ربّان في عرض البحر تتقاذفها الأمواج. ففي زمن الوباء يتخاصم ربّانها على تحديد الاتّجاه ومواطن هبوب الرّياح والخوف من الموت غرقا أو وباء يفزع كلّ الرّاكبين وينهك راحة الجميع ...

والغريب أنّه ولأوّل مرّة في التّاريخ المعاصر يغلق شاطئ بوجعفر أمام المصطافين يوم الأحد 4 جويلية فبدا مقفرا حزينا كئيبا وبدت المدينة لا روح فيها.

الفصل السابع والعشرون

أمّا فهمي وإلهام فقد حلّ موعد الزّواج الذي طالما انتظراه، خوفا أن تعطّله هذه الجوائح، ولن يؤجّلاه مهما كان الوضع، فالحبّ هو الحياة والحياة أقوى من كل شيء والحبّ يموت على شفاهه الحزن ويولد الأمل، وزواجهما لن يختلف عن بقيّة الزّيجات المعتبرة في المنطقة فهما ينتميان إلى طبقة نسبيّا هادئة هانئة مستورة فلم يختلف حفل زفافهما عمّا كتبته إيمان السكّوحي [35] "أصبحت صالات التّجميل اليوم مزاراً دوريًا لكلّ الباحثين عن الجمال في فرشاة مختصّي التّجميل. ولأنّ الصّيف هو موسم الأفراح بامتياز، فإنّ هذه القاعات تكتظّ بالزّبائن سواء من العرائس أو "الحضّارات" أو أهل العروسين، وما يلفت النّظر في هذه الاجتماعات بعض الحوارات التي قد تجعلك لوهلة تعتقد أنّ مناسبات الأعراس في تونس أصبحت حلبة مصارعة يتقاتل فيها الجميع لأجل التّباهي والتّفاخر. فلا تسمع سوى المبالغ الطائلة التي صرفت ولا يتردّد على المسامع سوى أسماء الماركات المعروفة ومشاهير مصمّمي الأزياء وأقوى صالونات التّجميل، فأُفرغ الزّواج من محتواه، وفق الكثيرين، وأصبحت الغاية الأسمى لهذا "الميثاق الغليظ" هو ما يتركه من صدى بين الأهل والجيران والأصدقاء.

يرصد موقع "الترا تونس" هذه الظّاهرة الاجتماعيّة المتفشّية والّتي أصبحت تسبّب عديد المشاكل في فترة التّحضيرات للزّواج أو كثيرًا من الخلافات الزّوجيّة في الفترة الّتي تعقب هذا الحدث.

35 موقع الترا تونس الصحفية ايمان السكوحي بتاريخ 2019/07/01

حفلات الزّواج.. سباق من يدفع أكثر؟

تشهد الأفراح والأعراس التّونسيّة تغيّرات عميقة سواء على مستوى الشّكل أو المضمون وأصبحت تسير على نسق التّنافس والتّفاخر، وأصبح كلّ التّركيز على مظاهر البذخ ويحرص الأهل على أن يكون كلّ شيء في أقصى كمالياته: صالات ذات بهرجة، فرق موسيقيّة بمبالغ طائلة، أزياء وقاعات تجميل، وحلويّات فاخرة بأغلى الأثمان.

إذ بات الزواج شكلًا من أشكال التّباهي بين العائلات، وصار من الشّائع أن يقال "والله عرس بنتهم تعدّا كي المهرجان"، و "عملّلها عرس ولا في الأحلام"، و "ريت قدّاش يحبّها و قدّاش صرف عليها". وهو ما يدفع النّاس إلى الدّخول في دوّامة مرهقة ماديًا ونفسيًا واجتماعيًا، وأصبح الإفراط في بهرجة الحفلات موضة العصر ودخلت العائلات حلبة الصّراع والتّنافس المحموم حول الشّكليّات.

يتحدّث أحمد غديرة، صاحب شركة لتنظيم الحفلات، لـ "الترا تونس" قائلًا: "حفلات الزّواج في تونس أصبحت صناعة لها تفاصيلها وتكاليفها المشطّة، ورغم تراجع القدرة الشرائيّة للمواطن إلّا أن الإسراف في التّرف والتّنافس على إقامة أغلى الأعراس بقي الغاية الأسمى لهذا المواطن حتّى لو اضطرّ للتداين أو القروض."

ويؤكّد أنّ العديد من العائلات التي تتواصل معه تفرض أن تكون كلّ التفاصيل من آخر ما صدر من صيحات وأن يواكب زفافهم آخر التّقليعات.

فيما تؤكّد عواطف، صاحبة قاعة تجميل ومحلّ لكراء فساتين الأعراس بباب سويقة، أنّ الفتاة التونسيّة أصبحت متطلّبة في علاقة بمظهرها يوم زفافها إذ لا

تتردّد في إنفاق الكثير من المال من أجل أن تبدو بإطلالة متميّزة أو تتشبّه بأحد المشاهير أو الفنّانين على حدّ تعبيرها.

وتضيف محدّثتنا أنّ بعض البرامج التلفزيّة سواء التونسيّة أو حتّى العالميّة ساهمت في وضع صورة نموذجيّة لحفل الزواج النّاجح "فلا تتوانى الفتيات في البحث عن كلّ ما يجعلهنّ يعشن ليلة العمر بكلّ مقاييسها المثاليّة وترفض العديد منهنّ التنازل عن أيّ من هذه الشّروط، فيسعى شريكها في هذه الفرحة إلى أن يلبّي جلّ رغباتها" على حد تأكيدها.

وتضيف عواطف، في هذا الجانب، أنّه يوجد من يلغي الزّيجة في آخر اللّحظات، مبيّنة: " رغم أنّ الزّواج من أهمّ المناسبات المحوريّة في حياة الإنسان إلّا أنّه قد يلغى بسبب تفاصيل قد تبدو بسيطة للبعض إلّا أنها مصيريّة عند البعض الآخر."

كيف يقرأ علم الاجتماع ظاهرة المغالاة في حفلات الأعراس؟

يرى الباحث في علم الاجتماع معاذ بن نصير، في هذا السّياق، أنّنا نعيش اليوم عصر الصّورة بامتياز حيث أصبحنا نهتمّ بالشّكل و البهرج قبل المضمون والمفاهمة والحب في مسألة الزواج والتّحضيرات التي تسبقه، على حدّ تعبيره.

ويؤكّد، حول الأسباب، أنّ جيل اليوم تأثّر بدرجة كبيرة بما تقدّمه له الدّراما الغربيّة ومنها التّركية التي تدخل إلى بيوتنا لتقدّم صورة مسقطة على المجتمع التّونسي، والّتي يعتبر أنّها صورة أساسها المغالاة المادّية في المرحلة الّتي تسبق الزّواج على حدّ قوله. ويضيف: "ليس ذلك فقط بل يلعب العالم الافتراضي عبر الانستغرام بالأساس الفضاء الأبرز لتمرير تلك الأنماط السّلوكية للشّباب المقبل على الزّواج والذي يتأثّر

بنوعيّة الإكسسّوارات المقدّمة كالحلي والمجوهرات ونوعيّة الفساتين المكلفة والباهضة تحت غطاء محلاّت عالميّة محليّة وعالميّة."

ويعتبر بن نصير أن الوسط الاجتماعي له الأثر المباشر لمثل هذه الممارسات، إذ يوجد لدى بعض العائلات التونسيّة نوع من المنافسة بين الأقارب حول تكلفة الزواج ومقدار المصاريف لتدخل في الخطاب اليومي من قبيل "بنت عمّك عملولها قدر وكار وعرست في أقوى بلاصة"، "بنت خالك عرسها تقول مهرجان"، وفق قوله. ويبيّن أن مثل هذا الخطاب دائمًا ما يتم تكراره من الوالدين لأبنائهم وتنشئة أطفالهم على أن الزواج هو الراحة المادية بالأساس، والمؤسف أن يتمّ تحديد نجاح الزّيجة من عدمها بمقدار الجانب المادّي الموضوع للزّواج، على حدّ قوله.

ويحذّر الباحث في علم الاجتماع من هذه الممارسات التي اعتبرها تؤسّس لانهيار القيم الاجتماعيّة في إنشاء مؤسّسة الزّواج، "فنتخلّى عن الجانب الأخلاقي والاجتماعي ومدى المفاهمة والاحترام بين الطّرفين، لنبحث عن الشّكل والواجهة الخارجيّة الماديّة."

ويقدّر أنّ الواقع الاجتماعي والاقتصادي التّونسي متأزّم، ليجد الشّريكان، في الكثير من الحالات، أنفسهما أمام ضرورة التّداين والاقتراض من أجل كسب احترام وهمي من طرف المجموعة وللانسياق في السّلوك الجمعي حتّى يحقّقا نوعًا من المكانة الاجتماعيّة، وفق تعبيره.

هكذا تحدّث بن نصير عن تداعيات التنافس في حفلات الزّواج، مضيفًا أنّ هذه السّلوكيات جعلت من قطاعات متداخلة في عمليّة الزّواج تلقى رواجًا، ذاكرًا على سبيل المثال مراكز التّجميل والحلاقة ومحلاّت كراء الفساتين وما يتبعه من

فضاءات مخصّصة للتّجميل لنلاحظ ارتفاع التّكلفة بطريقة مهولة وقد تصل في الكثير من الحالات إلى عشرات ألاف الدّنانير على حدّ تعبيره.

ويؤكّد محدّثنا أنّ مثل هذه الزّيجات مآلها الفشل بنسبة كبيرة وذلك لغياب الرّابط الرّوحاني المؤسّس للزّواج وقيم الحبّ والتّعاون والتّضامن وبالأساس مفهوم الاحترام والتّوازن الاجتماعي بين الشّريكين.

تحوّلت حفلات الزّفاف إلى عبء كبير على كاهل الأسر التّونسيّة التي تحرص على صرف أموال طائلة في أفراحها وتغالي في التفاصيل اعتقادًا منها أنّ السّعادة في البهرج وأنّ حفلات الزفاف مقياس مستواها الاجتماعي والمادي. وهو ما قد يكون سبب الدّاء بالنّسبة لشباب عدلوا عن التّفكير في الزواج متأثرين بتجارب من سبقهم.

في هذا الخضمّ، وبعد أن خمدت جائحة الكورونا أو كادت، وبمثل ما يتباهى به التونسيون تمّ الحفل في أجمل قاعات المدينة. فهي المربيّة البارزة المعروفة وهو الشابّ النّبيه الشّهم الذكي. كانت ليلة من ألف ليلة وليلة انتصر فيها الحبّ وغنّى فيها الهوى أروع ما غنّى. رقصا فيها على أنغام فرقة شهيرة بالمدينة أمتعت آذانهم بأغاني كاظم السّاهر وشيرين وايمان عمارة وأمينه فاخت وصابر الرباعي وكل أغاني الزمن الجميل والوقت الحاضر إلى ساعات متأخرة من الليل بل من اليوم القادم على مهل. رقصت أمّها وأخواتها وأخوات زوجها وقريباتها وأقاربها وزميلاتها ومعارفها، كما لم يرقصوا أبدا، وخلّدوها ليلة لن تنسى من أجمل ليالي تلك الرّبوع. لا مقارنة لها مع ذلك الزّواج الفاشل الذي كاد أن يقضي على كيانها إجمالا. ذاك الزّواج التّقليدي في زمن غير زمانه وبناس غير ناسه..

زغردت أمّه بملء حنجرتها صحبة بناتها ومن حضر من العائلة والجيران وزلزلوا القاعة رقصا ففهمي ابنهم و"نوارة" حيهم وسعادته من سعادتهم.

رقص فهمي وزوجته كما لم يرقصا في حياتهما.. وكذلك أصدقاؤه وزملاؤه ومعارف الشّبكة العنكبوتيّة الذين جاؤوا من كل صوب وحدب... كان مجد في ظرف بائس محبطا عاطفيّا، كئيبا تعيسا في أعماقه بين الناس لكن واجب الصّداقة فرض عليه الحضور وحتّم على ملامحه الفرح والسّرور.

للأقدار سهامها وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم يردّد مجد بينه وبين نفسه.

انفضّ الحفل، ركب العروسان سيارتهما وسارعا إلى نزل قد حجز للغرض حيث أكملا سهرتهما هذه المرّة رأسا لرأس تحت سقف واحد وكم ركعا وشكرا الله على حسن النهاية لعلاقة لم ير لها مثيلا خاطتها أقداره وسهرت على إتمامها كما يشتهيان ثم ذاب الاثنان في شخص واحد له ملامح كل منهما...

من الغد، وقد تقاطرت عليهما هدايا الزواج وسفرات شهر العسل وفنادقه ومدنه، وسعيد من أحبّه النّاس وحالفه الحظّ، ركبا أوّل طائرة متوجهة نحو إسطنبول لتكتمل الأحلام بالأحلام شابان جميلان ينهلان من عسل الحبّ ما شاء لهما بعد أن لدغا طويلا بلسعات النّحل في تلك الظنون والأشواق والمتاهات التي يولدها العشق والوله لمن جاء في طريقه. والحياة كنشأتنا، نحبو ثم نقف ثم نمشي ونصعد سلّمها شيئا فشيئا...

الفصل الثامن والعشرون

بحثت إلهام عن أهم الأماكن السياحية في تركيا فوجدت في مقال للدكتور مصطفى الستيتي ضالتها[36] وهو الباحث المختص في التاريخ العثماني: اتّكأت على كتف فهمي وبدأت تقرأ بصوت منخفض لا يتجاوز أذنه: " العلاقات التّركية التّونسية علاقات ضاربة في أعماق التّاريخ، وممتدة في واقعنا اليوم. فقد أُلحقت تونس بالدولة العثمانية عام 1574م على يد القائد سنان باشا، وظلّت ولاية عثمانية إلى حدود عام 1881م تاريخ الاستيلاء الفرنسي على البلاد التونسية. ويمكن القول إنّ الكثير، إذا لم نقل إنّ أغلب التّونسيين لا يعرفون إلا النّزر القليل من المعلومات عن الوُجود التّونسي في تركيا، وعن دور التّونسيين في الحركة العلميّة والدّعويّة والنضالية مع إخوانهم الأتراك ضدّ القوى الاستعماريّة في أحقاب مختلفة.

"قرية التوانسة" تقف اليوم شاهدا حيّا على عمق هذه العلاقات وعلى الدّور الكبير والفعال الذي قام به التّونسيون أثناء الحرب العثمانيّة الرّوسية المعروفة بحرب القِرِمْ سنة 1854م. فما هي هذه القرية؟ ولماذا سمّيت بهذا الاسم؟ وما هي قصّتها؟

توجد قرية التّوانسة، أو حسب ما تُنطق باللّغة التّركية في ولاية قَسْطَمُوني في شمال وسط تركيا الواقعة على سواحل البحر الأسود. وتبعد عن مركز الولاية مسافة 59 كلم. ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر 1150 م. ويسكن بها نحو 50 شخصًا حسب إحصائية صادرة في عام 2012م.

36 www.turkpress.co/node/2835 د. مصطفى الستيتي 2014/10/23

وسكّان هذه القرية هم من بين التّونسيين الذين شاركوا في حرب القرم، وهي الحرب التي اندلعت بين روسيا والسّلطنة العثمانية بتاريخ 28 مارس عام 1853م، واستمرت حتى 1856 م. ودخلت بريطانيا وفرنسا الحرب إلى جانب الدّولة العثمانية في 1854م التي كان قد أصابها الضّعف، ثم لحقتها مملكة سردينيا التي أصبحت فيما بعد (1861م) مملكة إيطاليا. والسّبب الرئيسي في إشعالها هي الأطماع الإقليمية لرُوسيا على حساب الدّولة العثمانية، وخاصة في شبه جزيرة القِرِم التي كانت مسرحًا للمعارك والمواجهات. وانتهت الحرب في 30 مارس 1856 م بتوقيع اتفاقية باريس، وهزيمة الرّوس هزيمة فادحة.

كانت تونس قد ساهمت في الحرب بنحو 20 ألف جندي يقودهم الجنرال رشيد، كما ساهم أهالي تونس بأموال تمّ جمعها من التبرّعات إحساسًا منهم بأهمّية هذه الحرب التي تستهدف المسلمين وأراضيهم والقضاء على دولتهم. وشارك إلى جانب التّونسيين متطوعون من طرابلس الغرب (ليبيا) ومن المغرب الأقصى، ومن مصر ومن الجزيرة العربية والشّام، ومن مناطق مختلفة من الدّولة. ومن أبز العلماء التونسيين الذين ساهموا بالكلمة وبالكتابة في التّحريض ضدّ الرّوس في هذه الحرب العالم التّونسي محمّد المثنّى، وكتب في ذلك عدة رسائل.

وقد سَقط في الحرب من الجانب العثماني نحو 400 ألف ما بين قتيل وجريح. واستشهد من الجنود التّونسيين عدد كبير، ومن نجا منهم رجع قسم منهم إلى تونس، وقسم آخر فضّل البقاء فمنحهم السّلطان العثماني قطعة أرض في ولاية قسطموني ليسكنوا فيها، فسميت القرية باسمهم، وهي إلى اليوم بهذا الاسم. وما يزال التونسيّون القاطنون في هذه القرية يُحافظون على العادات التّونسية في المأكل والملبس، وسيمَا وُجوههم تتحدّث عن هويّتهم العربيّة التّونسية. ومن بين القادة

التونسيّين قائد يسمّى محمّد التّونسي، استشهد أثناء الحرب ودُفن في هذا المكان. والنّاس في هذه القرية يعرفونه باسم محمّد التونسي. وبالقرب من هذه القرية تم في عام 2003 إنشاء شِشْمة (سبيل) الصّداقة التّونسية التّركية" بحضور عدد كبير من التّونسيين والأتراك.

هذا نموذج واحد من بين عشرات النّماذج والشواهد على صلابة الرّوابط بين الشّعبين التّونسي والتّركي. ويمكننا أن نذكر مثل هذا في المجالات السّياسيّة والعلمية والتجارية وغيرها. فللتّونسي حضور كبير في الذاكرة التّركية القديمة و المعاصرة. فعندما أسس مصطفى كمال أتاتورك الجمهورية التركية الحديثة تأثّر به بورقيبة واعتبره الأب الرّوحي، وسار على طريقه في كثير من الإصلاحات التي أنجزها بعد الاستقلال."

في إسطنبول بدأ شهر العسل جميلا عذبا لا تشوبه أية شائبة، أشياء لن تنسى كسفرة البوسفور وزيارة القصر وجزيرة الأميرات وقصر نور ومهنّد و أشياء أخرى كثيرة مفصّلة كما يلي:

إسطنبول[37] هي واحدة من أجمل مدن تركيا وأكبرها من حيث الكثافة السكّانية وأهمّها من حيث التأثير الثّقافي والدور الاقتصادي للبلاد، وتعتبر السّياحة في إسطنبول هي الأكثر جذباً عند خيار السّفر إلى تركيا، علاوة على كونها مصنّفة ضمن أكثر المدن السّياحية جذباً للسّياح في العالم.

37https://tourflag.com كاريمان أنور

فقد عاشت المدينة التي حملت أسماءٍ عدة خلال تاريخها الطويل العديد من الأحداث المؤثرة التي تركت بصمتها الواضحة على شوارعها ومبانيها الأثرية المُنضّمة لقائمة اليونسكو لمواقع التراث، هذا إلى جانب موقعها الوسط بين القارتين الأوروبية والآسيوية، وإطلالتها الجريئة على مضيق البوسفور الذي أضفى مزيد من السّحر إلى عددٍ من معالمها الأثرية ومُتنزهاتها الترفيهية وأسواقها الشعبية والعصرية الراقية أيضًا.

وقد ساهمت هذه العوامل مُجتمعة في جعل إسطنبول الوجهة السياحية الرئيسية التي تطأها قدما السائح في بداية رحلة السياحة في تركيا.

وهذه رحلة تعريفية قصيرة نتعرف من خلالها على أهم معالم السياحة في إسطنبول بما فيها من أوجه جمال تستحق الزيارة.

- أسئلة متكررة عن أبرز المعالم السياحية في إسطنبول:

1- قصر توب كابي (Topkapı Palace)

من أفضل الأماكن السياحية في إسطنبول الموصي بزيارتها لمعرفة كيف كانت تُدار شؤون الحياة والحكم في ظل الخلافة العثمانية بتركيا طيلة أربعة قرون يستعرض المتحف العظيم أحداثها وتفاصيلها.

فالقصر في الأساس كان مقر إقامة السلاطين والأمراء العثمانيين، ومقرًا أيضًا لاستضافة سفراء وضيوف الدولة العثمانية من الدول الأجنبية.

ويتميّز القصر الذي وُضع على قائمة اليونسكو لمواقع التراث العالمي منذ منتصف الثمانينات بأجنحته الفخمة وأقواسه المُزيّنة بالذهب وخزائن الذهب والمجوهرات.

فإن كنت في شغف لمعرفة الكثير عن تاريخ الدولة العثمانيّة فعليك وضع قصر توب كابي على قائمة أولوياتك عند السيّاحة في إسطنبول.

برج غالاتا (Galata Tower)

برج غالاتا هو برج تاريخي عريق يُقال أنه بُنِي عام 507 م وكان يطلق عليه برج المسيح، ثم تعرض البرج لزلزال قوي أثر عليه تأثيراً بالغاً، بعدها تم اعادة ترميمه وبُنِي على الطراز الرومانسكي في القرن الرابع عشر، وفي هذا الوقت كان أطول مبنى في إسطنبول.

تعددت استخدامات هذا البرج فقد استخدمه السلطان سليمان الأول كسجن للمحكوم عليهم، وفي وقت آخر تم استخدامه كبرج للمراقبة. يتكوّن برج غالاتا من تسعة طوابق مع مصعدين لنقل الزوار فيما بينها.

ويُعدّ البرج واحد من أفضل الأماكن التّرفيهيّة في إسطنبول بما يضمّه من مطعم ومقهى على مستوى عالٍ من الرّقيّ والفخامة، حيث يوفّران إطلالة ساحرة على مضيق البوسفور الشّهير، إضافة إلى سطح ومرصد مُراقبة يوفّر رؤية كاملة لأشهر وأجمل أماكن سياحيّة في إسطنبول حيث يُمكنك التقاط صور رائعة لا تُنسى.

من معالم السّياحة في إسطنبول الّتي تجذب الأنظار للزّيارة بطرازها الأوروبّي الواضح والأنيق الّذي يبدو على طلّة القصر من الخارج وتصاميمه الدّاخلية أيضًا، علاوة على موقعه المركزيّ على مضيق البوسفور.

قديمًا وبعد أربعة قرون من الحكم العثماني من قلب قصر توب كابي، قرّر السّلطان عبد المجيد الأوّل تحويل مقرّ المحكمة لقصر دولمة بهجة، أمّا الآن فقد أصبح

القصر معلما ومزارا سياحيّا شهيرا يتصدّر قائمة جولات الكثيرين عند السّفر إلى إسطنبول.

يجمع قصر دولمة بهجة بين شكل العمارة العثمانيّة والباروكيّة وبين الطّراز الروكوكو الألماني وبين عدة طرازات أخرى، جعلت من شكل القصر مميّزا للغاية ولا يضاهيه تقريباً شكل أيّ قصر رأيته سواء من الخارج أو من الدّاخل.

يتميّز القصر أيضاً باحتوائه على نجف ودرج مصنوعون من الكريستال يتحاكى بهم جميع السّائحون، وهناك أيضاً جناح كامل مليء بالمصنوعات الكريستالية.

من معالم إسطنبول الأثريّة العريقة والعتيقة والمميّزة بكونها خليطًا من الفنّ والمعمار البيزنطي واليوناني على حدّ سواء، وهو ما يظهر في جدارياتها وأسقفها وجدرانها المُطّعمة بالفُسيفساء.

بالرّغم من أنّ تاريخ بناء كنيسة تشورا غير معروف بالتّحديد، إلاّ أنّها تعتبر من أقدم الكنائس الممكن زيارتها عند السّياحة في إسطنبول حيث يقال إن عهد كنيسة تشورا يعود إلى أوائل القرن الرّابع. هذا وقد تمّ بناءها وترميمها عدّة مرّات من ذلك الحين لكي تحافظ الكنيسة على شكلها الموجودة عليه حاليّاً.

تحوّلت كنيسة تشورا إلى مسجد في مطلع القرن السّادس عشر بعد الفتح العثماني للبلاد، ثم إلى متحف بنهاية الأربعينات لتسمّى بعدها بمتحف تشورا، وتجمع بذلك بين الفنّ والثّقافة المعماريّة المسيحيّة والإسلاميّة، وتشهد بحجم التحوّلات والتقلبّات التاريخيّة والثقافيّة التي شهدتها إسطنبول على مرّ تاريخها.

زارا أشهر الأماكن، تقريبا، و أكلا الأكلات التّركية الشّهيّة و الشّهيرة وسهرا في ليالي الصّيف الجميلة على ضفاف مضيق البوسفور وفي أجمل ملاهيه ومقاهيه ومطاعمه ونهلا من الحبّ ما انتظراه طويلا وحقّ لهما ذلك... شهر عسل لا و لن ينسى عسله ورحلات أخرى عسليّة المذاق تتالت إلى كلّ من بلجيكا و بوردو وباريس ومدريد. رسخت كلّها بالذّاكرة ولن تنسى كذكريّاتها مع فهمي وبداياتها العذبة وكلماته الجميلة كما كان يناديها أيّام التّعارف والتّقارب و المحبّة و الأخذ والردّ والشّكوك والظّنون و أشواك الورد ولسعات النّحل اللّذيذة والحبّ الصّافي. إنّها الحياة حينما ينظر إليها بعين المحبّة والتّفاؤل والتّفاهم والانسجام وإنّه فهمي الطّيب وإلهام الصّابرة الصّبورة حين تبتسم لهما الأيّام... وإنّه أخيرا المكتوب حين يلين ويستكين ويؤدّي التّحية والسّلام ...

إنّه حبّ بطعم عسل النّحل في زمن مرارة علقم الكوفيد وجوائح السّياسة والطبيعة والبشر والشّعب يريد... وحُلمه البعيد...

أما الدكتورة نون التي طارت مع الدّكتور شهاب إلى فرنسا فقد تركت صديقها شبه جثّة خاويّة. كانت الصّدمة قويّة لا تحتمل. صدمة مباغتة، ليست لها مقدّمات ولا علامات تحذّر منها، خالية تماما من الإنسانيّة.. صفعة قويّة أيقظته من سبات الحبّ الطويل ولقّنته درسا لن ينساه. لكن ماذا لو تفشل زيجتها يوما ما وتعود مثخنة بالجراح ؟! الأيّام حبلى ليس يدرى ما تلد كما كانت تقول.

الفصل التاسع والعشرون

ذات مساء، جلس مجد في شرفة منزله وحيدا فحتّى صديقه فهمي تزوّج وغادره تاركا له حلو الذّكريات وجميل الحكايات وضحكات تجلجل في كلّ الآفاق، وعلى أنغام فيروز الرّومنسيّة " يا جبل البعيد" تلك الأغنيّة الّتي كانا يتراسلانها، هو والدّكتورة، لإطفاء ما يلمّ بهما من شوق واشتياق، غزاه الحنين وذكّره بجزء جميل، عذب، مضطرب، متداخل ومتشابك من حياته فأخذ قلمه الوفيّ الّذي لا يخدع والرّفيق الّذي لا يغدر ولا يغادر، أنيسه في كلّ الظّروف، بعد أن ترك وحيدا يتجرّع المرارة، وبدأ في تدوين ما خالجه ذاك المساء:

هذا المساء، تذُكّرتكَ ككلّ مساء، لكن بطعم مختلف.. تذكّرتك بألوانك الطّبيعية و بالأبيض والأسود أيضا و بكلّ ما فيك من صفات البشر... ذكّرتني فيك تفاصيل كثيرة كانت تجمعنا... تفاصيل صغيرة كانت عاديّة لا تلفت الانتباه فأصبحت واضحة مثيرة... ونحن على أعتاب عيد ميلادك الذي طالما احتفلنا به معا في سعادة خلناها بل خلتها أبديّة دائمة لا تزول...

تفاصيل عذبة بنكهة العسل أصبحت مريرة بطعم العلقم، متعبة للعقل والقلب معا، ذهبت مع الزّمان وتصاعدت في الفضاء بخارا بل كدخان سجائري... واندثرت تماما كضباب صيفي الا من ذاكرتي... القويّة الصّلبة...

تذكّرت بداياتنا الجميلة ذات ليلة شتويّة من ليالي يناير منذ سنوات... بدايتنا العميقة المتجذّرة... بداية الرّواية التي تظلّ خاتمتها مفتوحة وان انتهى سردها...

بدايات زمن الكورونا وما تبعه... من استعداد و تلاقيح وعمل ميداني مضني، على أرض الواقع لا و لن ينسى وأحداثك الكثيرة خلاله... وخوفنا الكبير المنطقيّ من ذاك الغول المجهول... غول الكوفيد وما تبعه من جوائح...

تذكّرت كلّ شيء وكلّ ما سجّل بشريط الذاكرة... وكلّ ما صوّر وكتب ورسخ بالوجدان... من تذبذبك وانفعالاتك وإرهاصاتك... وتردّدك في مواقفك...

تذكّرت لقاءاتنا وانصهارنا ومشاكساتنا وهواياتنا...

تذكّرت اللّيالي و الأيّام الخوالي... تذكّرت الأنغام ومولد الإلهام...

تذكّرت كلّ الكتب...

تذكّرت الشّعر والنّثر و الأدب..

وليالي الفنون والطّرب.. تذكّرت الشّوق و الغضب...

تذكّرت كلّ شيء وكأنّه بالأمس رغم ما تلاشى من زمنه !

لازمتِ الصّمت بل فجّرت القنبلة بين يدك... وأطفأت شمعتك كما تفعلين ذلك دائما فزال ذاك النّور المضطرب الجميل من أفق حياتي وتساءلت كيف ينهار ذاك الصّرح في لحظات وكأنّه من رمال فيمسح علاقة كنت تصوّرتها عصيّة على الأيّام... وعلى من يروم تقويضها من الوراء... فإذا بها تقوّض من الأمام، وعلى يدي أهمّ عنصر فيها... و أحد أبطالها..

كيف للزّمن أن يمحوك من ذاكرتي وينسيك فيّ تماما وكأنّني لم اكن ذاك الذي يلوّن بريشته أيّام حياتك... بل ربّما كنت مجرّد رقم في قائمة اهتماماتك أو لعلّني كنت

أملأ فراغا و يا لها من مهمّة و يا له من فراغ ! كذلك النّسخ والتّكميل في سنوات تعليمنا الأولى... حتّى أزيل أتعابك وأطفئ بعضا من إرهاصات عذابك..

كيف لي بمسحكَ من ذاكرتي وقد حفرت أروع الكلمات في قلبي ونقشتها كنحّات ماهر... وكنت صادقا لا مخادعا... وكنت لا أدري ما بأعماقك... كنتِ محيطا عميقا غامضا يلفّه الضّباب ويصعب الغوص بين أمواجه...

يا للمفارقة العجيبة !

كيف لي بنسيانكَ ونسيان ذكرياتنا و تصوّراتنا معا... واندفاعاتنا و ساعات المدّ والجزر بيننا... و عذب أحلامنا.. وهواجس الواقع فيها...

كيف لي بنسيان ساعات من السّفر الطويل معك في طرقات الحياة الملتويّة المتشعّبة... وساعات من ظلال شمسك المحرقة... وأشعّتها فوق البنفسجيّة...

وكيف لك ان تنسي أناملك ومعصمك... وقلبك ورحابة صدري وكرمي... وذكريات ملتصقة بكلّ جزء فيك و في سيّارتك البيضاء النّاصعة كقلبي أنا...

لحظة غضب ما كان لها ان تحدث جرّاء حدث بسيط عابر، في حياتك المهنيّة، من أحداث الحياة... أو رغبة حبّ ميّتة أُحيت من جديد و يا للغرابة ! وكأنّك كنت تنتظرين هذه القطرة التي تفيض كأسك ... تنتظرينها بشوق لتغلقي قوسا من أقواسك.. بات يؤرّقك... او لعلّه امتحان رهيب من امتحاناتك الفجئيّه المفاجئة.. لم أعد أعرف... لكن ما أعرفه أنّ كلّ شيء غاص في الأعماق ودفن هناك...

وما كان السّبب بوجيه لذلك.... لوكان البناء صلبا... لو كانت المحبّة قائمة فعلا ومتبادلة صدقا... لما كان هذا السّبب في زعزعة علاقة من علاقات هذا الزمن..

وشبيهة به بجنونه و تقلباته... وهراءاته... بنيت عليها الكثير وتصورتك زوجة في خيالي وأنت تلاعبين أطفالي وتتقاسمين أوهامي وأعمالي... لكنّه امل من خيال لم يعش الا في البال... هكذا تصوّرته لفترات من ظلال رمادية غامضة... من ظلال هذه الحياة الغامضة هي أيضا... لكنّها الحقيقة..

لم أخنك ولم أهنك ولم أطلب منك ما لا يستساغ... ولم أتخلّ عنك ولم أتنازل عن العشرة وان كانت نسبيّا بلا ماء او ملح ولا حتّى قهوة أو شاي ما عدا ذاك الشّاي الحار الافتراضي الذي انسكب على العلاقة ذات يوم فإذا بها أوهن من بيت العنكبوت... وإذا بما خفي منك يظهر للعيان...

واذا بها وهم ولم تكن غير ذلك...

وما اقسى ان يصحو الإنسان صباح ذات يوم على وهم تربّع على صدره وسكن أعماقه لسنين طويلة... بل وهمي انا هو ذاك الوهم المشتهى الجميل !كنت أشتهيه وأتوقّع نهايته في كلّ وقت فقد بدأ افتراضيّا وسينتهي حقيقة... فقد فهمت من حركاتك ذلك وظهر لي ما خفي من جبل الثّلج في أعماقك...

كنت تفعلين ذلك لتمسحي ظلال حزن لازمتك ولم أعرف كنهها... في انتظار غائب قد يعود...

وها إنّه قد عاد...

وبعودته ظهر الحقّ و زهق الباطل وانطفأ بهتان الماضي !

كم كنت غبيّا بمنظورك وكم كنت شهما نبيلا بمنظوري.. وكم كنت صادقا، لم أكن لك إلاّ محطّة انتظار.. لقطار آخر يحملك إلى المجهول...

وها قد حملك...

ما أمرّ الذكريات بحلوها ومرّها... وما أبشع وجه الحقيقة وأنت تموتين في ذاكرتي و أعماقي، تتحوّل نار حبّك إلى رماد، وتتحوّلين إلى لا شيء!

تقاطع المستقيمان مع المستقيم فأنتج عديد الزوايا الداكنة !

الأمجد العثماني

تم بحمد الله.